





خيرية قاسمية

مذكرات فوزي القاوقجي

١٩١٢-١٩٣٢

الجزء الأول

دار القدس
بناية مكرزل - شارع بشارة الخوري
تلفون ٢٩١٤١١ - ص.ب ١١٢٤٨٩ - بيروت/لبنان
برقياً: مقدسبريس

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٥

فهرست

تمهيد

طلب الي كثير من اخواني ، بعيد الثورة السورية ، أن انشر مذكراتي ، وكان الحافهم في هذا الطلب يزداد مع ازدياد الحوادث . وكنت ارفض دوما طلبهم ، اعتقادا مني بأن اعمالنا لمّا تنته بعد ، ونشر شيء من المذكرات عن الثورات الماضية يكشف عن عورات واسرار طالما صرف العدو جهودا جبارة واموالا كثيرة لمعرفتها ، لذلك كنت أجدني مضطرا للاحتفاظ بها لنفسي لتكون لي ، بما فيها من اختبارات، نبراسا أستضيء بنوره في اعمالي المقبلة .

غير اني بعد عودتي من الثورة الفلسطينية (١) ، الحّ عليّ اخواني بوجوب نشر هذه المذكرات ، واخذت ادارات الصحف والمجلات العربية والغربية في الوقت نفسه تطلب مني نشرها كذلك . حتى اذا الحفوا في الطلب مرة ثانية اخذت استعرض حوادثي التي غامرت فيها خلال الحرب العامة وحوادث الثورة السورية وثورة فلسطين ١٩٣٦ الاخيرة فوجدت نفسي امام وقائع يحتاج في تدوينها الى مجلدات .

وعنت لي الفكرة بتدوين اهم الحوادث شأنا ، والتي كان لها اعظم اثر في مجرى تاريخنا الحديث . فعزمت عندئذ على اخراج هذه المذكرات بعنوان « مغامراتي » .

افضيت الى احد اخواني بما عزمت عليه ، فوعد بأن يقوم هو بنفسه على تدوين ما امليه عليه وحددنا موعدا الساعة الرابعة بعد ظهر يوم السبت ٢٣-١-١٩٣٧ في داري ب كرادة بغداد .

---

١ - عن أحداث هذه الثورة راجع كتاب : «فلسطين في مذكرات القاوقجي» (الجزء الثاني من المذكرات) .

وفي الساعة التي حددت للشروع في تدوين هذه المغامرات كنت تجدني في سيارة بين مفوضين من الشرطة مخفورا بسيارتين مزودتين بالرشاشات تنهب بي الطريق نحو كركوك – الى المنفى – حيث وصلتها مع عاصفة هوجاء من الثلوج لم تعهد كركوك مثلها منذ عشرات السنين . وكأني ومغامراتي على موعد مع هذه العاصفة السماوية في كركوك .

وصلت كركوك في الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٧ . وكان مراسلي حميد سلمان قد سبقني اليها يحمل حوائجي . كما ان صديقي المجاهد بهاء الدين طباع قد لحق بي في اليوم التالي ليكون الى جانبي .

ان السكون والهدوء اللذين أصبحت أسيراً لهما في غرفتي ، واللذين لم آلفهما عمري أخذا يثيران من عصبيتي ويملآن نفسي سأما . فبماذا يمكنني ان اتغلب على تلك البطالة وهذا السأم ؟ «بمغامراتي» . اذا في هذا المنفى خير فرصة أنتهزها لتدوين مغامراتي . على اني لا أقصد من تدوينها وتسجيلها التفاخر . كلا ، فقد قام كثير من المجاهدين الاحياء منهم والشهداء بمثلها ، وبأعظم منها . بل قصدت تسجيل صحائف من التضحية والمجد التي قام بها قسم من سوادها في تاريخها الحاضر ، ولأثبت ان في سواد هذه الامة من الحيوية ما يكفي لاتيان المعجزات ودفع كل الاخطار الممكن نزولها فيها ، اذا وجد من يعرف كيف يستثمر ويستخدم هذه الكنوز الثمينة . يقرؤها اي (المغامرات) شباب الامة ويتخذون واجيالنا المقبلة من حوادثها قدوة يقتدون بها في التضحية التي تتطلبها البلاد لنيل حريتها واستقلالها . ولكن ليعلموا انه لا يوجد ثمة ما يحول دون تضحياتهم في سبيل هذا الوطن مهما بلغت قوات الاعداء من عظمة ومنعة . كما انه لا يوجد شيء يدعى بالمستحيل عندما يراد القيام بواجب مقدس .

واذا كنت لم اذكر خلال (مغامراتي) المعارك التي جرت في سائر ميادين الثورات ، ولم أذكر اسماء الابطال المجاهدين الآخرين ، فما سبب ذلك الا عدم اتصالي المباشر بتلك الميادين التي خاضوها وبالابطال المجاهدين فيها .

واختتم مقدمتي هذه بكلمة اوجهها الى كل شاب يريد المغامرة لاكتساب شرف خدمة البلاد ، انير بها طريقه ولعل فيها الذكرى . يجب على المرء المغامر ان يتجرد من أنانيته ، وان يكون رحب الصدر لدرجة يتحمل معه ما يعترض سبيله من انواع الاذى ، وما قد توصم به وطنيته وشرفه من انواع التهم والافتراءات والاّ يصدّه عن سبيله ما قد يلاقيه من العثرات والصعاب والاّ توهمه سعة تشكيلات عدوه السرية ، ولا عظمة ترتيباته العسكرية ، وان يجعل الكتمان والعزم والصبر رائده .

ان المغامرة سهلة ، والصعوبة هي في تمهيد سبلها ، واتقان خططها . والأمة الضعيفة التي لا يمكنها ان تعيش بدون توحيد أجزائها ، يجب ان تتوقع النكبات المتتالية والدسائس في كل حين . وليس يدفع عن الامة أمثال هـذه المخاطر الا استعدادها لها . ولا يكون الاستعداد بتشكيل الاحزاب على النمط الذي سارت عليه الامة في سابق عهدها ، او بتنظيم المناهج دون ما تنفيذ ، او بإقامة المظاهرات والتفاخر بالوطنية والتبجح الفارغ ، بل بإعداد العدة فعلا ، وتنظيم الرجال ذوي الكفاءة سرا . فالعرب لم يسبق لهم أن استعدوا لدرء مصيبة كان تحقق لديهم وقوعها ولكنهم تعودوا القيام بالاستعدادات بعد وقوع الكارثة . وكم كلفها ذلك من الضحايا في الانفس والأموال ، وكم كانت النتائج سيئة !

على من يريد الفوز في مغامرة يقدم عليها ، أن يستعد لها بحكمة وإتقان ، ويقدم بعزم وجنون ويدرأ بصبر وتعقل .

اني واثق كل الوثوق بأن هذه المغامرات لا بد ان تخلق روحا قوية في نفوس الكثير من شبابنا الذين يتعطشون الى حب المغامرة وخدمة البلاد عن هذه الطريقة وابتعادهم عن اتباع طرق الديبلوماسية والمظاهرات والاجتماعات غير المجدية (١) .

---

١ – دونت في منفاي بكركوك خلال اشهر كانون الثاني – تموز ١٩٣٧ .

الفصل الاول

نشأتي

فتحت عينيّ في هذه الدنيا ، فاذا بي في المدارس العثمانية . وكنت لا أشعر بما يجري خارج المدرسة . فقد كنا فيها خليطا من التلامذة، عرباً وتركاً وارناؤوطاً واكرادا وشراكسة ، وغيرهم من العناصر التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية . لم يكن المعلمون من اصحاب الكفاءات في اختصاصهم . وكنت كلما فكرت في نفسي أشعر بأن حياتي عبث . اما العرب والعروبة فلم يكونوا ليمروا بخاطري ، ولم يكن هناك رجل او حزب او جماعة تلقي في نفوس الشبيبة شيئا من دروس الوطنية . وكان الخليفة في نظرنا خليفة للعربي كما هو للتركي وللكردي والارناؤوطي والشركسي ، كل على انفراد . فكان الخليفة وحده رمزا للجامعة .

وظللت انتقل من صف الى صف حتى دخل علينا يوما احد الضباط مضطربا، شرع يخطب فينا قائلا : «ان جيش الحرية (!) دخل استنبول ، وأعلنت الحرية والعدالة والمساواة والاخوة في الدولة» . وكنت انا ، اضحك في سري ، وأتساءل قائلا : ما هو جيش الحرية ؟ وماذا يحدث اذا دخل استنبول ؟ وما معنى الحرية؟ وهل كانت مفقودة فوجدناها ؟؟ . ظل الضابط يحدثنا بمثل هذه الاخبار ، ونحن نستمع اليه كأننا نستمع الى درس في آداب اللغة العربية يلقيه معلم صيني .

وتدرجت في صفوف المدرسة حتى وصلت المدرسة الحربية . ولكنني كنت اشعر في نفسي دائما شعور من ينقصه شيء يتحرّاه .

وكان تلامذة كل قطر من أقطار الامبراطورية يجتمعون في المدرسة سوية ، ولم يكن بين هذه المجموعات اية صلة قومية تجمعهم سوى الجامعة العثمانية ، كأنما كانت الاقطار مستقلة بعضها عن بعض .

واخذنا نسمع بعد حين ان احزابا تأسست في الخارج ، من اتحاد وائتلاف وغيرهما . غير اني في أواخر عهدي في المدرسة الحربية بدأت أشعر بأن الترك شرعوا ينضوون تحت لواء رابطة جديدة غير الرابطة العثمانية التي نعرفها . ولم اكن أفقه معنى لما يتحدثون به . كما اني اخذت أسمع بوجود تشكيلات واحزاب عربية . وان جمعيات سرية تعمل في الخفاء لضم شتات العرب وتوحيد جهودهم والمطالبة بحقوقهم . ولكنا كنا نفكر في ان لا بد من ان تتصل بنا هذه الجمعيات يوما ما .

وحدث يوما شجار في المدرسة بين مجموعة تركية واخرى عربية ، وسمعت قائلا يقول بحماس وجد : (انا تركي) فأجابه آخر على الفور بحماس وفخر : (وانا عربي) وانتصر التلامذة العرب لزميلهم . وكأن هذه الحكمة الاولى التي انطلقت في سماء «المدرسة الحربية» قضت على الصلة التي تجمعنا بالدولة العثمانية . فأصبحت كلمة «عرب» الآن جامعتنا . ومنذ وقوع ذلك الحادث بدأنا نشعر بأن لنا قومية عربية مستقلة ، وراءها أمة وتاريخ ومجد تالد .

واشتدت مع الايام حزبية الاتراك وانتسابهم الى طوران كما اشتدت غيرتنا على عروبتنا بالنسبة عينها . وكان الواجب يقضي علينا بأن ننقب عن جد ننتسب اليه ونفخر به ، حتى اذا قال الاتراك : «نحن طورانيون» قلنا عندئذ «نحن قحطانيون» .

واخذت الاخبار تتسرب الينا عن وجود شخصيات عربية في مجلس المبعوثان تدافع عن حقوق العرب ، وعن وجود احزاب وجماعات تسعى لانهاض العرب بشتى الوسائل ، فأخذنا نعمل بقدر ما تسمح لنا به ظروف المدرسة للاتصال بهذه الشخصيات والجماعات للاستنارة بآرائها . واخذنا نتساءل بدورنا : هل للعرب حقوق ؟ وما هي حقوقهم ؟ ومن هم أولئك الاشخاص ؟ وما هي غاياتهم من تأليف أحزابهم ؟

ودارت الايام دورتها وتخرجت عام ١٩١٢ ضابطا في الجيش العثماني ، وكل ما كنت احمله في نفسي من الشعور هو انني عربي ، واننا نعيش ضمن كيان عثماني سادته الترك .

منذ تلك الساعة صممت على وقف نفسي ومواهبي على عضد اي شخص او جماعة عربية تعمل في سبيل سؤدد العرب ، وامتلكني شعور فياض جعل المغامرة والمجازفة والعمل في سبيل أمتي مثلي العليا في الحياة .

***

تخرجت في المدرسة الحربية في سنة ١٩١٢ ، وكنت منتسبا فيها الى صنف الخيالة . ومما حدا بي الى اختيار هذا الصنف من صفوف الجندية صفات البطولة التي يمتاز بها الفرسان ، وما في الفروسية عينها من سرعة حركة ومخاطرة ولذة . وكان تعيين الضباط في الفيالق يجري في ذلك الحين بطريق الاقتراع . وقد اقترعت بدوري فكانت الموصل نصيبي ، كما كانت نصيب المرحوم أحمد مختار الطرابلسي ، صديق ورفيق عزيز علي باشا ، الذي استشهد فيما بعد في حروب بلده طرابلس الغرب ضد الطغيان .

وكان الطريق المألوف حينئذ من الاستانة الى الموصل طريق حلب ــ دير الزور . غير اني بالاتفاق مع صديقي احمد مختار فضلنا سلوك طريق آخر يخترق سهول الاناضول وحزونها ، ويتيح لنا أن ندرس في خلال سفرنا أحوال سكان الاناضول وأخلاقهم وعاداتهم ، فنقارنها فيما بعد بأخلاق العرب وعاداتهم .

ابحرنا من الاستانة الى صمسون على احدى البواخر ، وسرنا من صمسون الى ديار بكر على عربة يجرها زوج هزيل من الخيل . فقطعنا المسافة في واحد واربعين يوما . ومن ديار بكر ركبنا ما يسمى بـ (الكلك) منحدرين في نهر دجلة . والكلك هو عبارة عن مجموعة من جلود الماعز ، تنفخ بالهواء ، ثم تلقى فوق الماء ، ترصف عليها أعواد ، تبنى فوقها حجرة صغيرة يأوي المسافر اليها عند الحاجة . ولقد تم لنا قطع المسافة بين ديار بكر والموصل في اثني عشر يوما .

كان لنا من جبال الاناضول وسهوله وقراه ودساكره ومدنه ، دروس كشفت لنا عن حقيقته ، واتضح لنا ان الاناضول بعمرانه وبأخلاق اهله وعاداتهم دون البلاد العربية . واخذ شعورنا يتدرج كلما قطعنا منطقة من مناطق البلاد من شك الى يقين .

كانت مناظر الاناضول ومنازله تمر بنا على نسق واحد ، حتى اذا ركبنا الكلك ثانية ، وانطلق بنا في مجرى دجلة منحدرا نحو الجنوب ، وجدنا أنفسنا في عالم جديد ، ولقد كان عرب القبائل القاطنة على ضفتي النهر يقدمون الينا ما نحتاج اليه ، ويجودون بثمرات اراضيهم . وكثيرا ما كانوا ينشدوننا مختلف اناشيدهم وقصيدهم البدوي الحربي منه والقومي ، مما اثار حماسنا . فهذه لغتنا تسمع لهجاتها المختلفة ، وهذا الشعور المشترك ، وهذه العادات العربية تتجلى في كل مظهر من مظاهر بني قومنا .

أطلت علينا (الموصل) ، تلك المدينة التي اقترح المرحوم الشيخ رشيد رضا أن تكون مركزا للخلافة الاسلامية لتاخمتها حدود البلدان الاسلامية المجاورة كتركية

وايران وسورية . وما كدنا نصل المدينة حتى ذهبنا توا الى الثكنة العسكرية ، حيث كتيبتي الخيالة ، فتسلمت فصيلي ، وشرعت في اعمالي .

كانت كتيبة الخيالة هذه شبيهة بالامبراطورية العثمانية ؛ ففيها خليط من العناصر ، غير انه لم تكن قد سرت اية فكرة سياسية او قومية الى رؤساء ضباطها او جنودها بعد . وكان الضباط الاحداث على شيء من العلوم والمعارف العسكرية، بخلاف باقي الضباط المثلين لطبقتهم الرفيعة ، اذ كان هؤلاء قليلي الخبرة ، بعيدين عن العلم ، مجردين عن كل ما تتطلبه قيادة الوحدات من فن ومعرفة بالقوانين والتدريب العسكري .

وكان في الوحدات نوع من التسابق بين الضباط الحديثين انفسهم للبروز والظهور . وقد اصبحت بعد وقت قصير معلما للكتيبة كافة ، ومحاضرا لضباط الفيلق ولقواده ، مما هيأ لي التعرف الى كثير من اخواني الضباط العرب .

واخذت الفكرة تنمو رويدا رويدا وتختمر في رؤوس الضباط ، ولكن على غير نظام او اساس . وبدانا نسمع اشياء عن (المنتدى الادبي) في الاستانة . كما اخذت اخبار نوابنا العرب في مجلس النواب العثماني تصل الينا ، ومن ضمنها ما كانوا يجاهرون به من وجوب منح العرب حقوقا تتناسب وخطورة شانهم .

ونشبت حرب طرابلس الغرب في العام عينه ، واقدمت ايطاليا في ذلك القطر العربي العزيز على اشنع الاعمال الهمجية وافظعها ، ولم تكن اعمال الطليان البربرية تلك لتثير اي حماس في نفوس العرب سوى ما كنا نقرؤه في الصحف . ووقعت الحرب البلقانية على الاثر فانكشف الستار عن الامبراطورية العثمانية ، فاذا بها عظاما نخرة . ولم تثر هذه الحرب ايضا اي حماس في نفوس الضباط وغير الضباط كما كان ينتظر .

واخذت تجول فكرة مخيفة في نفوسنا : هل يقضى على شعوب الامبراطورية العثمانية اذا انهار هذا البناء الهرم ؟ وهل لدى العرب اذا ما انهار البناء من القوة والمنعة ما يصد طمع المستعمِر الاوروبي عن الجزيرة ؟

وكان يخيل اليّ ان خطر الانهيار انما يقع معظمه على العرب ، لانهم عزل من اية تشكيلات تكوّن دعائم الكيان العربي . اما الترك فان ما كان لديهم من تشكيلات واسعة ومن سوار الامبراطورية العثمانية ومؤسساتها ، وما كانت تظهره جمعية (الاتحاد والترقي) من النشاط في اعمالها ، كان يحملنا على الاعتقاد بأن ما يصيبهم من الانهيار اقل بكثير مما يصيب العرب . حتى ان كثيرا من ضباط الترك المنتسبين اليها راحوا يشمخون بأنوفهم على العرب . وتمادى هذا الغرور حتى

اخذوا يصرحون بضرورة تبديل اسماء الخلفاء العرب المعلقة على جدران المساجد بأسماء الخلفاء الترك ، والقضاء على أحرار العرب وعلى الفكرة العربية وجعل البلاد العربية مستعمرات تخضع بقوة السلاح لسلطان الترك ونفوذهم . وتجلت فكرة تتريك الامة العربية ايضا ، فأخذنا نشعر من طرف خفي بتنكيلات وبأعمال تدل على انها تدابير تمهيدية لتنفيذ ما نسمعه على السنة الاتحاديين . فيزداد بحثنا ليلا ونهارا عن تشكيلات عربية ننتمي اليها ونضع مواهبنا وحياتنا قيد تصرفها .

وساقني الحظ يوما الى التعرف الى اخ عربي مخلص هو السيد سعيد الحاج ثابت احد شباب الموصل . فأخذ يبث في نفوسنا افكارا جديدة ، كما اخذ يمنينا بقرب حلول وقت العمل ، ويَعِدنا بإشراكنا في هذا الشرف ، موصيا ايانا بالهدوء والسكينة . وكثر اتصالي بالضباط العرب ، وفوجئت ليلة بصديق من الضباط ينفرد بي ، ويسألني اذا كنت مخلصا حقا لبلادي ان اتبعه من غير سؤال . شد الضابط على عينيّ منديلا وقادني الى دار لم اكن اعرفها . حتى اذا وصلناها حل الرباط فاذا بي امام جماعة مقنعة بألبسة سوداء لا يظهر منها سوى عيونها ، وقد احدقوا بمائدة عليها نسخة من القرآن الكريم وسيف ومسدس . وطلب اليّ احدهم ان اقسم يمين الاخلاص لجمعية تعمل في سبيل تحرير العرب ، ففعلت. ثم اغمض الضابط عينيّ ثانية وعاد بي الى منزلي .

بتُّ ليلتي وانا انتظر تكليفا من الجمعية أقدم على ادائه ، وجاءني اخي الضابط بعد حين يخبرني بأن الحزب قرر ايفادي بمهمة الى ابن سعود في الجزيرة، فأعربت له عن استعدادي للقيام بالمهمة من فوري . وبقيت طيلة الليل ساهرا اتخيل كيفية مقابلتي لابن سعود وكيف سيسرع الى حشد جيوشه ، فأكون في مقدمتها، وتقاتل الترك ، وتطردهم من بلادنا ، وتؤلف فيها سيادة عربية ونعلّم جمعية الاتحاد والترقي درسا لن تنساه، وتتابعت الايام، ولكني لم اجد لصديقي اثراً ، ولم اسمع بعد كلمة تكليف من الجمعية . فبدات الشكوك تساورني ، ظانا انهم ربما لم يجدوا فيّ الكفاية والمؤهلات للقيام بمثل هذه المهمة العظيمة . غير اني مع الايام أيقنت ان ثقتهم بي لا تزال هي هي . فانقلبت الشكوك التي خامرتني في كفاءتي الى الشكوك في كفاياتهم هم انفسهم ، واتضح لي ان تشكيلات حزبنا لا تشبه تشكيلات حزب الاتحاد والترقي التركي الذي كان ينظم وينفّذ . بينما كنا نحن نحسن وضع الخطط ، ونتكلم ولا نعمل . وسألت نفسي ، هل نحن اقل كفاية من الترك ؟ ام ان الترك أشجع منا ؟ ام نحن نظريون فقط والترك عمليون ؟ مع العلم بأن الذكاء العربي يفوق الذكاء التركي .

واجابتني نفسي : هذا ما ستكشفه لك الايام .

***

كنت اسكن في الموصل دارا على ضفاف دجلة ، وكان لي جارة عربية جميلة الصورة فصيحة اللسان من قبيلة (البقارة) المستوطنة فيها . وكان يسكن في المحلة عينها فريق من الضباط الترك . فكان كل منهم يحاول جذب قلب المرأة اليه ، فأخذت أفكر في طريقة اتمكن بها من السيطرة على شعورها . ولم اجد الا ان أمتلك قلبها بضرب من ضروب الفروسية التي يتعشقها العرب رجالا ونساء . وظللت اتحين الفرص لانال الشهرة التي تنيلني الحظوة لديها .

دعاني قائد الفيلق اسعد بك يوما اليه وقال لي : ان الحكومة قد ارسلت كتيبتين من الفرسان وقوات اخرى الى قبائل شمر لتحصيل ضريبة (الودي) . وان القبائل المذكورة لم تذعن وهي تعيث في اراضي عشيرة (الجبور) فسادا . لذلك اطلب منك ان تتوجه مع خمسة وعشرين فارسا الى قبائل الجبور للتظاهر بالمحافظة عليهم ، الى ان يتم جمع الودي من القبائل المذكورة . وشدد عليّ الوصية بوجوب اجتناب كل ما من شأنه ان يؤدي الى فتنة او اصطدام بقبائل شمر .

اعددت العدة وخرجت بصحبة الخمسة والعشرين فارسا الى اراضي الجبور، حيث اجتمعت بشيخ العشيرة ، واوضحت له اهتمام الحكومة به وبعشيرته ، فسخر الشيخ ورجاله مني بادىء ذي بدء ، لحداثة سني ولضآلة القوة التي ترافقني . فأثارني استهزائه بي ، سألت الشيخ تزويدي بقائمة الاشياء التي سلبتها قبائل شمر لأعيدها اليهم ، فازدادت سخرية القوم بي . ولكن احد شيوخهم قدم لي على سبيل المجاملة قائمة بالمنهوبات .

ولجت على الفور مضارب شمر التي كنت اجهل منازلها . وصادفت بعض رعاة شمر ، فأخبرتهم بأنني انا الضابط الموكول اليه دعوتهم الى قرية تل عفر لتأدية الضريبة . وما لبث خبر مهمتي ان انتشر بين مضارب شمر . واخذت استقصي منازل افخاذ العشيرة التي تحتفظ بمنهوبات قبيلة الجبور فعرفت بعد بحث بمكانها . وسرت اليها ليلا واوعزت الى من معي بالانتشار حول المضارب على أبعاد متفاوتة. واتجهت بصحبة ثلاثة فرسان نحو مضارب (الشيخ محمد المطلق) وفاجأته بظهوري على باب خيمته في منتصف الليل . وبادرته بقولي : ان جموع قوة (تل عفر) قد جاءت اليك وطوقتك ، وقد ارسلني القائد اليك لمقابلته على الفور ، وليس لديّ من الوقت اكثر من خمس دقائق حيث تتحرك القوة جميعها نحوكم ، فتقبض على القبيلة بأجمعها .

أوجس شيخ القبيلة منا خيفة ، فرغب اليّ ان اسأل القائد امهاله وقتا قصيرا لاعداد نفسه لمواجهته . فأجبته بأنه يتعذر عليّ ذلك . وبعد اخذ ورد ركب وركب معه ثمانية فرسان من عبيده وسرنا حتى اذا ابتعدنا عن مضارب القبيلة

واحاط بنا فرساننا امرت هؤلاء باستلام اسلحة الشيخ وعبيده وبشد وثاقهم . وفاتحت الشيخ بأمر المنهوبات ووجوب اعادتها الى الجبور . ولقد اقسمت له بأني قاتله وعبيده اذا لم يعد المنهوبات خلال اربع وعشرين ساعة . فأذنت له بارسال احد عبيده لجلبها . ولم تمض الاربع والعشرين ساعة حتى كانت منهوبات الجبور بكاملها بين ايدينا . واطلقت سبيل الشيخ وعبيده للحال . غير انه التفت اليّ وقال : ان هذا اول مال أدفعه للحكومة . ثم أقسم لي بانه لن يدع هذه الاهانة تمر من غير ان ينتقم لها ، فأجبته : افعل ما بدا لك . وذهب مغاضبا .

وانتشر الخبر بين القبائل . ولقد ذهب وفد من الجبور ومن سواهم الى الموصل يشكرون السلطة ما قمت به من اعادة مسلوبات الجبور ، ويطلبون ابقائي في منطقتهم للمحافظة عليهم وعلى اموالهم من عبث العابثين . واخذت تنهال عليّ بعد ذلك طلبات بقية القبائل من الحديدين والبوحمد والبقارة وسواهم لمساعدتهم على اعادة منهوباتهم . فصرت أغير من قبيلة على قبيلة استرجع ما لديها من منهوبات الآخرين ، بالحيلة طورا ، وبالعنف تارة ، حتى تمكنت من اعادة معظم المنهوبات الى أربابها ، وكان بعضها يعود عهده الى سنين .

وانتشر اسمي في الموصل ، وفيما جاورها ، واصبحت لي شهرة عظيمة . كل ذلك تم لي خلافا للأوامر والتعليمات التي اصدرها اليّ قائد الفيلق . وكنت قد جاوزت المدة التي حددها لي ، وخشي القائد معها من مغامراتي ، وما قد ينتج عنها من اضطراب في الامن ، فغضب عليّ طالبا عودتي اليه بسرعة . وصلت الموصل ، فألفيت القائد غاضبا . وبالرغم من تقديره اعمالي انّبني على مغامرتي . ويممت منزلي فوجدت الاخبار قد سبقتني اليه . وكان اهل محلتي ينتظرون اوبتي بلهف شديد . وكانت جارتي العربية في مقدمة المعجبين ، وقد شعرت من ثنائها عليّ انني نلت الحظوة في نفسها .

***

ولم تمض على عودتي ايام معدودات حتى اتاني مندوب الحزب وهو يقول بأن الاخوان يودون الاجتماع بي لأمر خطير . فاتفقنا على أن يكون الاجتماع بهم في (حمام العليل) وهي قرية على ساعتين للراكب من الموصل ، بها عيون كبريتية شديدة الحرارة ، يؤمها اهالي الموصل وما يجاورها للاستشفاء .

ولكي اتمكن من الاجتماع باخواني طلبت اجازة من آمر الكتيبة فرفض طلبي، فقررت حينئذ ان أجيز نفسي . حتى اذا حان الوقت تنكرت بزيّ بدوي، وتجنبا للأعين تنكبت عن الطريق العام واتخذت لنفسي طريقا من الوديان المحاذية .

وبينا انا اجدّ السير لقيت ركبا يسيرون في اتجاهي وقد تعجبوا من قيافتي

البدوية ومن جوادي وما عليه من التجهيزات الاميرية . فذكرت لهم انني ضابط من حامية الموصل ، وان وجهتي حمام العليل . فذكروا لي انهم مواطنون حكوميون وان وجهتهم قرية (الزاقة) على ثلثي المسافة بين الموصل وحمام العليل . دعاني الركب الى تمضية ليلتي في صحبته في قرية (الزاقة) ، فلم يسعني عندئذ الا التصريح بأنني على موعد مع بعض اخواني لا يمكنني اخلافه . فرضوا بأن اذهب الى موعدي على ان اعود اليهم .

وصلت حمام العليل في الوقت المعين وعقد الاخوان اجتماعهم الذي يؤسفني ان اقول انه لم يسفر عن شيء . وعدت وحدي الى قرية (الزاقة) ، فوجدت فيها من تعرفت اليهم في انتظاري . ولقد اتاحت لي هذه الفرصة التعرف بصديق نادر هو سعيد افندي علي صاحب قرية لزاقة الذي له عليّ أيادٍ في اثناء مقامي في الموصل ، على أثر حادث سياسي وقع لي وسيأتي نبأه بعد حين .

وعدنا الى الموصل في الصباح الباكر . وكان موعد سفر البريد الى الآستانة فكتبت كتابا الى والدي ، وآخر الى سيدة أعرفها . وشاءت الصدف ان اضع كتاب والدي في غلاف السيدة ، وكتاب السيدة في غلاف والدي . واذا بي بعد ايام أتسلم كتابا من والدي يقول لي فيه انه لم يكن ليظن ان ابنه سيء السيرة يقضي اوقاته في مغازلة النساء . وكان مما جاء في كتابه انه لا يمكن ان يربي هذه الاخلاق التي اتصف بها الى نسبي ، وانا الحسني أبا والعمري أما . ولقد كان لكتابه ذاك أبلغ اثر في نفسي .

ولكن كتاب والدي ، بالرغم مما سببه لي من الم نفسي وحزن عميق ، قد افادني فائدة كبرى ، اذ عرفني بنسبي الذي كنت اجهله ولم اكن لاعلق يوما ما اهمية على حسب او نسب بل كنت أجلّ العمل العظيم الذي يقوم به اي شخص مهما كان نسبه .

وجاءني صديقي المرحوم سعيد افندي بعد ايام ، فأخبرته بما وقع لي مع والدي فتأثر، ولكنه سرّ لما جدّ من معلومات عن نسب عائلتي. وزارني في اليوم التالي بصحبة نقيب أشراف الموصل للتعرف اليّ فذكر لي اننا من أشرف العائلات نسبا، واننا من اصل مغربي يتصل نسبنا بقبائل بني عروس ، وإمامها سيدي عبد السلام بن مشيتس المدفون في جبال الريف، والذي غدا قبره مزارا لقبائل المغرب جميعها.

ولمناسبة ذكر كتاب والدي أشير الى كتاب بعثت اليّ به والدتي وانا جريح في المستشفى ، وهي التي كانت تبث فيّ حب المكارم وتشجعني وتثير من حماسي. وهي تذكر لي في ذلك الكتاب حماس الشبان الذاهبين الى جبهات الحرب المختلفة، وان والدي بالرغم من كبر سنه قد ذهب الى جبهة ارضروم ، وتتمنى عليّ القيام

بعمل عظيم في ساحة المجد . فبعثت اليها جوابا اخبرتها فيه انني جريح في المستشفى ، وانني سألتحق بالجبهة بعد ابلالي ، فإما ان أجرح ثانية او يقضى عليّ حبا برضاها .

وكان والدي رحمه الله يغرس في نفسي على الدوام حب بلادي ويرغب اليّ ان اكون عند مشيئة والدتي مضحيا مغامرا ولكن في سبيل العروبة ولمنفعة العرب وحدهم .



الفصل الثاني

احداث الحرب العالمية الاولى

كانت الحرب البلقانية التي اعلنت بعد اشهر من تخرجي ضابطا ، قد انتهت بسرعة غير منتظرة . وكشفت الستار الذي كان يتوارى وراءه هيكل الامبراطورية العثمانية الهرم ، واضحت استنبول على الأثر مسرحا للفوضى وللدسائس ولتطاحن الاحزاب . غير ان حزب الاتحاد والترقي كان يسير حينئذ الى الزعامة . وتمكن بعد حين من القبض على ناصية الدولة . واخذ رجال الحزب يعملون من جديد لتجديد حياة الدولة مبتدئين بالجيش ، ومستعينين على تحقيـــق ذلك ببعثات اجنبية . ولم تكد تصل النهضة الى درجة ملموسة حتى اعلنت الحرب العامـــة واصبح مستقبل الامبراطورية العثمانية كلها تحت رحمة هذه الحرب .

واشتد نشاط الاحزاب السياسية العربية في مختلف الانحاء ، واتصل فريق من رجالها بي من جديد ، واخذوا يعلنون ان الفرصة قد اضحت سانحة لانقاذ البلاد العربية من العاقبة الوخيمة التي تسير اليها الامبراطورية العثمانية ، وانهم يرغبون في ان لا يشترك العرب في هذه الحرب التي لن تكون في مصلحتهم . ولقد طلب اليّ اخواني ان اقوم بالدعاية المقتضية بين القبائـــل لبث روح الثورة فيهم . فنزلت عند رغبتهم ، نظرا لما كنت اشعر به من قوة الاتحاديين وغطرستهم وتظاهرهم بالفكرة الطورانية التي اصبحت ظاهرة ملموسة في كل مجتمع مـــن مجتمعاتهم العامة والخاصة .

واخذ منهاج الاتحاديين الخفي ينكشف بإرسالهم الولاة والقواد العسكريين الترك القساة الى الولايات العربية ، مزودين بالصلاحيات للقضاء التام على احرار العرب وعلى الفكرة العربية الآخذة في الانتشار .

وكان من حسن الصدف ، تحقيقا لرغبة اخواني في خروجي الى القبائـــل

والاتصال برجالها ، ان طرقت بابي يوما عجوز بدوية رغبت مني في السعي لانقاذ زوجها شيخ قبيلة الدليم من السجن . وكنت لا اعرف من قضية زوجها شيئا ، فوعدتها بالسعي الى انقاذه ، حتى اذا تعذر عليّ ذلك اخرجته من السجن بنفسي فاطمأنت لوعودي .

واتجهت صوب صديقي سعيد افندي ، وكان حينئذ مدعيا عاما في محكمة الاستئناف ، ثم على اثر اعلان النفير العام عين مدعيا عاما في ديوان الحرب العرفي، فرجوته مساعدتي على انقاذ الرجل . فأمهلني سعيد افندي ريثما يطلع بنفسه على اضبارة السجين . وجاءني بعد قليل قائلا ان صاحبك محكوم عليه بالاعدام لانه قام ضد الدولة العلية وقتل جنودا وضابطا ولا يمكنني عمل اي شيء لانقاذه وان اوراقه قدمت الى الباب العالي للموافقة عليها .

فأسفت لمصير الرجل واخذت افكر فيما سيكون عليه موقفي من المراة البدوية. وخرجت من تفكيري الى وجوب مقابلة سليمان نظيف بك والي الموصل . رجوته ان يسمح لي بمحادثته ومصارحته في بعض امور جالت في خاطري تعزيزا للامبراطورية العثمانية . فقلت له : مولاي ! ان الجيش الانكليزي زحف بقوة فولاذه وماله على العراق . وقد سبق للدولة ان سحبت القوة الموجودة فيه للدفاع عن ارضروم فنحن هنا ضعفاء قوة ومالا . ومع ذلك كله تقدمون اليوم على اعدام شيوخ العرب الذين هم ورجالهم القوة الوحيدة الباقية التي يعتمد عليها في هذه الجزيرة . فاذا اسأتم الى شيوخ العرب كان ذلك فرصة سانحة للانكليز لاستمالتهم اليهم ، وعندئذ تتهمون العرب بخيانة الدولة في أحرج مواقفها مع ان الامر خلاف ذلك . فبهت الوالي من صراحتي والتفت اليّ قائلا : وما الذي تعنيه ؟ فقلت لقد حكمتم بالاعدام على الشيخ نجرس القعود شيخ مشايخ قبائل الدليم . وهو ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه . ولقد جئتكم الآن راجيا من سعادتكم التوسط لانقاذ هذا الشيخ ، وبذلك تجعلونه وعشيرته طوع بنانكم ، وتوجهونهم الى اعمال تسدون بها الفراغ الذي أحدثه الجيش ، ولن تلبث سائر العشائر ان تقتدي بهم . اطرق الوالي قليلا ، ثم رفع راسه قائلا : اني أشكر لك هذه الصراحة ، واقدر لك شعورك ، واني فاعل ما تقوله الآن .

وبشرت العجوز التي كانت تنتظرني . ولم تمض ساعات حتى وردت برقية من الاستانة بالعفو ، فأسرعت الى السجن حيث اخرجت الشيخ بنفسي . وبذلك أضحى الشيخ مدينا لي بحياته ، كما امسيت فيما بعد مدينا له ، فوفاني دينا بدين بانقاذه حياتي في ابان الثورة السورية سنة ١٩٢٠ كما سأبينه في فصل لاحق.

اشرت على الشيخ نرجس العقود ان يقوم بزيارة الوالي ويشكر له انقاذه

حياته ، ويسأله مرافقتي له الى قبيلته لاعادة نفوذه اليه . وسنحت لي بذلك الفرصة التي كنت أتحيَّنها للاتصال برجال القبائل .

كانت الحكومة العثمانية في ذلك الحين قد دخلت الحرب التي اخذ لهيبها يلتهم الارض من جهاتها الاربع . كما ان الوهن والضعف كانا ظاهرين في الجبهة العراقية على اثر تقدم الانجليز الى البصرة واحتلالها في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ بسهولة وبدون مقاومة .

انتقل خبر دعاوتي بين قبائل شمر لسلطات الموصل . وكان صديقي سعيد افندي مدعيا عاما ، فما كادت التقارير تصل اليه عن اعمالي حتى أسرع الى اخباري لاتخاذ الحيطة واجتناب الوقوع في أيدي المحكمة العرفية .

وعزمت على الرحيل الى بغداد لمواجهة سليمان قطيف بك الذي كان قد عين واليا عليها . فقطعت الجزيرة فارسا ، حتى اذا وصلت بغداد زرت الوالي وابنت له انني قمت بما يجب من الدعاية بين القبائل لاستمالتهم الى جانب الحكومة ، ولاسيما قبائل الدليم . فشكرني على عملي .

وتقدم الانكليز بعد سقوط البصرة نحو القرنة فاستولوا عليها في ٨ ــ ٩ كانون الاول ١٩١٤ بعد معركة دامية أسروا فيها القائد صبحي بك ومن كان في معيته بعد حصارهم لها . وعين سليمان عسكري بك لقيادة جيش العراق (كانون الثاني ١٩١٥) ، المؤلف من فوجين وعدد لا بأس به من الضباط المدربين وبعض الوحدات الاخرى . وكنت بعد اسبوع في الصف الاول من الجبهة أقود فصيلا من فرسان الكتيبة في الضفة الغربية من شط العرب . وشرع سليمان عسكري بك في جمع فلول الجيش وتنظيمها ليؤسس منها ، ومما جاء به من القوى ، خطا دفاعيا جديدا في منطقة الروطة ، وهو قنال يقع شمالي شرقي القرنة . وما كاد يتم سليمان عسكري بك استعداداته وتحكيماته حتى قام الانكليز بهجوم عام على الموقع في ٢٠ــ١ــ١٩١٥ ودارت ثمة معركة حامية مني الطرفان فيها بخسائر فادحة وأسفرت عن ارتداد القوى الانكليزية وفشلها . ولقد جرح سليمان عسكري بك كما جرحت انا ونقلنا معا الى مستشفى بغداد .

واتصل بي اثناء اقامتي في المستشفى بعض اخواني ، وحدثوني بشيء مما عزم الترك على القيام به للقضاء على احرار العرب على اثر ورود تقارير من اخوانهم العرب في استنبول .

كانت صحتي قد تحسنت قليلا ، فأوعزت الى مراسلي شهاب الدلبي بإعداد جوادي (سوف) ، وكنت أحبه كثيرا . وكان شهاب هذا احد أفراد قبيلة الدليم

وكان ذكي الفؤاد شجاعا مغامرا يفيض شعورا بالعربية . وقد لازمني حتى نهاية الحرب .

عزمت على الخروج من المستشفى . وكان بعض الاخوان قد عادني سائلا عن وسيلة لايصال بعض الرسائل الهامة والخطط ذات الشأن الى اخواننا في سورية، فأجبتهم بأنني على استعداد للقيام بهذه المهمة . وقد ذكروا لي ان قسما من الرسائل في الموصل بينما سلموني ما لديهم من رسائل بغداد .

وكان عليّ ان اقنع رئيس اطباء المستشفى بوجوب التحاقي بكتيبتي فأذن لي وخرجت من المستشفى . ولكني بدلا من الالتحاق بكتيبتي توجهت بصحبة مراسلي شهاب الى الموصل ونحن فارسان . وتسللت فيها ، حيث اتصلت بالاخوان الذين يجب الاجتماع بهم ومنهم السيد ثابت عبد النور . وتركت الموصل صوب حلب عن طريق رأس العين .

ولقد قطعت المسافة اليها بما يقارب العشرين يوما . فلما وصلت محطة بغداد في حلب في أوائل تموز ١٩١٥ وجدت صديقي الضابط (فرج عمارة) محافظا فيها .

كانت الافكار وقتئذ مضطربة ، والقلق مستحوذا على جميع المفكرين في البلاد، وجمال باشا آخذا وقتئذ بجمع الضباط العرب وسوقهم ، تبعا لخطة مرسومة ، من سورية الى الجبهات النائية في الاناضول وجناق قلعة وغيرهما . وبذا أضحت سورية خالية من الرجال الذين يؤمل منهم خير ، وأخذ جمال باشا في الوقت نفسه في حشر الضباط غير العرب في سورية . وقد حصر اهتمامه بالقضاء على الشبيبة العربية وعلى زعماء البلاد الذين كانوا يحملون الفكرة العربية ، وينشرونها بين طبقات الشعب ، فاعتقل أحرارهم وحشرهم في سجون (عاليه) في لبنان .

واطلعت صديقي الضابط على خبر ما احمله من رسائل الى اخواننا في سورية ، فصرح لي بأن لجمال باشا جيشا من الجواسيس لا يدعون صغيرة ولا كبيرة الا احصوها وأوصلوها اليه . وكان صديقي فرج عمارة احد شباب الكرد، الذين يماثل شعورهم شعور العرب بالنسبة الى موقف الاتحاديين . فكان يلحّ عليّ ، مظهرا قلقه ، بوجوب تمزيق الرسائل التي احملها ، ولاسيما بعد اطلاعه على عناوين الاشخاص المرسلة اليهم . فذكر لي بأن معظم اصحابها معتقلون في سجون عاليه ، وان مجيئي من العراق الى سورية على هذه الصورة ، ووجود الرسائل معي كافيين للقضاء عليّ . ولم يلبث ان مزق الرسائل . ولكني أصررت على الاتصال بأصحابها ، والتحدث اليهم شفويا . وأخذت في البحث عن وسيلة

للاتصال بهم . وتمكنت بواسطة احد الاطباء العرب النافذي الكلمة من دخول دار النقاهة في صوفر لابراء جرحي .

نزلت صوفر المصيف اللبناني ، بعد تعب أصابني في سفرة قمت بها فارسا من بغداد الى الموصل الى رأس العين فحلب ، ولقد وجدتني بعد وصولي صوفر كأنني نزيل رياض الخلد . اخذت أتجول في هذه القرية الجميلة وما حولها . وما كنت لاجد وقتئذ اثرا فيها للحياة ، اللهم الا اولئك الجنود الترك وضباطهم الذين احتلوا مبانيها الارستقراطية الفخمة ، والتي لعبت أيديهم فيها بعد حين ، فحطمت نوافذها وابوابها ، وجعلت منها وقودا .

وعبثا حاولت الاتصال برجالاتنا المعتقلين في عاليه . ولكني علمت ان فيها شريف بك الحجار احد الضباط العرب على رأس سرية من الخيالة . فأردت ان اتخذ من وجوده في عاليه وسيلة لتحقيق رغبتي . تعرفت الى احد الجنود العرب، فأفضيت اليه بما في نفسي ، فتطوع للخدمة . ولقد ارسلته بصحبة مراسلي الى شريف بك برسالة متواعدا معه على الاجتماع عند قمة واقعة على منتصف الطريق ما بين صوفر وعاليه ليوافيني بجواب الضابط . وعبثا انتظرتهما في الوقت والمكان المعينين . وانقضى النهار دون ان اقع له على اثر . وجئت الموعد في اليوم التالي فاذا بي ارى الجندي ومراسلي قادمين . فسألت الجندي عما تم له ، فأجابني بأن شريف بك مزق الكتاب ، وطرده ، ثم استحصل على اجازة من آمريه ، وتوجه الى بيروت . فأيقنت ان الضابط خشي مغبة عملي ، فآثر الابتعاد عني .

★★★

أبت الاقدار الا ان تنشيء علاقة غرام بيني وبين احدى سيدات بيروت المسيحية ، وكانت اصيبت بحمى التيفوئيد فنزلت صوفر لتمضية دور النقاهة في قصرها الجميل الفخم المشرف على وادي حمانا الخلاب . وشاعت اخبار علاقتي بهذه الفتاة ، ولاسيما بين الضباط الترك في معسكر جمال باشا ، الذي اتخذ فندق صوفر الكبير مقرا له . وكان جمال قد جاء الى مقره في صوفر للاشراف على محاكمة أحرار العرب الموقوفين في سجون عاليه وبعد أن صمم على القضاء عليهم .

وكان ضباط مقر جمال باشا يعدّون انفسهم فوق القانون وفوق الجيش ؛ وكنت تعرفت على هؤلاء الضباط ، ولم نلبث ان توسعت شقة الخلاف بيننا ، واخذوا يكيدون لي المكائد . وبلغني ذات يوم ان جمال باشا بعث انذارا الى الوحدات الموجودة في لبنان للتأهب لصد فرقة من العدو ، انزلت في ميناء جونية.

وحفزتني الرغبة في المغامرة والاشتراك في هذه الحملة الى مقابلة جمال باشا،

ورجوته تعييني في احدى الوحدات للاشتراك في الدفاع عن جونيه . وكنت آمل ان أعين ضابطا في سرية الخيالة التي يرأسها الضابط العربي شريف بك الآنف الذكر ، وكانت هذه السرية السرية الخيالة الوحيدة في عاليه ، وكنت آمل من وراء ذلك أن أتصل باخواني الموقوفين فيها . ضحك جمال باشا عند سماعه كلامي ، والتفت بدوره اليّ قائلا : انني أشكرك ايها الشاب ، على ان الذي سمعته عن الانذار انما كان على سبيل الافتراض لمناورة اردت تمرين الجيش عليها . ولكن سوف ارسلك الى ميدان اوسع حيث تظهر فيه مواهبك وقدرتك . ولقد عينتك في الفرقة الخيالة الثالثة في بئر السبع .

جاءني احد ضباط المقر ، الذي وصل الفتور بيني وبينه الى أقصى حدود، وابتدرني بقوله : ان امر الباشا قد صدر ، والاوراق قد أعدت لسفرك الليلة الى بئر السبع مقر وظيفتك الجديدة . قلت : وكيف يتسنى لي السفر وليس هناك قطار ؟ قال أجل سوف يمر قطار الحطب في الساعة الرابعة بعد الظهر في طريقه الى الشام . وعبثا حاولت ارجاء سفري الى يوم آخر ، وفي قطار غير قطار الحطب ، فأبي عليّ ذلك .

ركبت القطار مرغما . وكانت صديقتي قد لحقت بي الى المحطة لوداعي ، مقسمة لي على انها لاحقة بي في القطار التالي . وانطلق القطار مسرعا نحو دمشق . وأخذت الوساوس تساورني ، وبت أخشى على صديقتي من كيد هؤلاء الضباط . وكان من حسن حظي ان لحقت بي في اول قطار الى دمشق ، اتجهنا بعدها معا الى قرية سبستيا القرية الاثرية الواقعة على مقربة من نابلس غربا . وكان نزولي في بيت كان مخصصا لاحد علماء الآثار المنقّبين في المدينة .

وبقينا في سبستيا زهاء شهرين ، وكنت في خلالهما غير مكترث بما قد ينتج عن تخلفي من مسئوليات . وسافرنا بعد حين الى القدس ، حيث نزلنا في فندق فاست . وكان الضباط الالمان ينزلون هذا الفندق ، فاختلطت والسيدة بهم كأني احدهم ، لا يعترض سبيلي معترض من رجال الجيش التركي ، ولكن المقام لم يطل بنا ، اذ انكشف امرنا بعد حين ، واوقفت ، ثم أخرجت من القدس الى بئر السبع. وقد تمكنت من اقناع صديقتي بالسفر الى يافا حيث يقيم بعض أقاربها لتنتظر اخباري . وكان هذا آخر عهدي بها .

وصلت في اوائل شهر مايس ١٩١٦ بئر السبع . وكان قد انقضى على هجوم غزة الثاني ما يقارب الخمسة عشر يوما . وكانت فرقة الخيالة التي عينت فيها مرابطة في بئر السبع . كانت بئر السبع منتهى خط الدفاع التركي الممتد من غزة الى بئر السبع شرقا . وكانت الفرقة تترصد في ذلك الوقت حركات خيالة الانكليز من جهة ، وتراقب اعمال القبائل من جهة ثانية . حيث تؤمن جناح الترك الايسر .

ومدينة بئر السبع هوة محاطة من سائر جهاتها — ما عدا شماليها — بكثبان رمل وصحاري قاحلة غير مسكونة خلا بعض الاماكن التي فيها تكثر الآبار الشحيحة المياه ، والتي تردها القبائل لسقي مواشيها . وهي معرضة دوما لسف الرمال التي تحجب احيانا سماء القرية ، فتغطي المعسكرات ، حيث تصبح شبيهة بالتلال الرملية المتنقلة التي تكونها الرياح الهوجاء .

وكانت الفرقة الخيالة بقيادة اسعد بك الالباني اخي عزة باشا المشهور . وما كدت اصل المعسكر حتى قدمت للقائد اوراقي فبهت لتأخري طوال هذه المدة عن الالتحاق بمركز فرقته من غير عذر . وبعد محاورة قصيرة طلب مني ان أصدقه حقيقة ما وقع لي فقصصت عليه قصتي حرفيا منذ نزولي صوفر حتى وصولي اليه ، فبادرني بنصائحه القيّمة ، ثم أخبرني بأنه عينني في مقر الفرقة ، وطلب مني أن أبذل ما بوسعي لاداء واجبي بنشاط واخلاص لتلافي ما فرط مني .

***

كان نشاط الكشف في وحدات الخيالة الانكليزية والتركية قد بلغ أقصى حدوده . وكان ضباط الخيالة يتباهون بأعمالهم المضنية الخطرة عند عودتهم من الكشف ، ويفاخرون بها زملاءهم القابعين .

كنت دائما ميالا الى الاشتراك في اعمال الكشف هذه ، لافاخر بدوري زملائي . فاستأذنت يوما قائد الفرقة للخروج الى الكشف فأذن لي . وتقدمت بفصيل من الخيالة للاستكشاف للمرة الاولى . وكنت أجهل حينئذ الاراضي وطريقة الاستكشاف والقتال ايضا . فوقعت في كمين أعده لنا العدو ونجوت منه بأعجوبة .

ولكنني عدت أحمل بعض القتلى والجرحى من رجالنا . ولم ألبث طويلا حتى قمت باستكشافات عدة بعد ذلك ، واتقنت طرق القتال والاستكشاف . وقد اتضح لي بعد الدرس ان أفضل طريقة للاستكشاف هي البيات قبيل الفجر . ولذا كان عليّ أن اتعرف الى الاراضي جيدا ، لكي يتيسر قطع المسافة الى مكمني ليلا. وتمكنت في احدى محاولاتي من مباغتة مفرزة كشف للعدو ، فاجأناها بنيران شديدة على مسافة قريبة من جهة ، وبهجوم عنيف على ظهور الخيل من الجهة الاخرى ، فسقط من رجاله عدد كبير من القتلى اما من حاول الفرار راكبا ، فقد قطعنا عليه طريقه وأسرناه ، ورجعت بعد ذلك الى معسكر بئر السبع مستصحبا من الاسرى ضابطا واثني عشر فارسا وسبعة جرحى .

وكانت هذه الحادثة اعظم توفيق فازت به مفارز استكشافنا . وقد نلت على

مغامرتي فيها الوسام الحربي العثماني . وبرعت بعد ذلك في اعمال الكشف ، حتى ذاعت شهرتي . وكان من عادة القيادة اذا تطلـّب الموقف استكشافا خطرا ، او قياما بعمل هام ، أن تدعو الضباط الى التطوع . وكنت أشعر بدافع غريزي يدفعني الى القيام بكل مغامرة خطرة ؛ اذ كنت لا ارى الذ من العودة من مغامرة كهذه موفقا غانما . وكان النجاح حليفي في كل مغامرة قمت بها . فحزت بذلك على ثقة القائد اسعد بك ، وثقة بقية الضباط ، واضحت خسائر جنودنا في مغامراتي جد قليلة ، كما اني لم اصب بأي جرح في خلال مغامراتي .

وقد مهدت لي الشهرة التي اكتسبتها سبيل الاتصال بالقائد الالماني فون كريس باشا ، الذي اصبح فيما بعد يعتمد عليّ في الاستكشافات البعيدة ، التي تتطلب براعة وجراءة ، وغدوت موضع تقديره . وعين يوما القائد الالماني فون لايزر لتنظيم خطوط المنازل بين بئر السبع والحفير وقلعة النخيل . فرغب الى القائد اسعد بك – بناء على توصية يحملها من فون كريس – ان يعينني مرافقا له ، وتم ذلك . وقد قدمت للقائد الالماني هذا خدمات جلى ، وحزت ثقته التامة . واضحيت بعد مدة قليلة اتقن الالمانية ، التي كنت تلقنت مبادئها وقواعدها في المدرسة الحربية في استنبول . وكان فون لايزر يشجعني كثيرا على اتقانها . وكان اختلاطي به، وبرفاقه الضباط الالمان، اكبر مساعد لي على اتقانها في مدةوجيزة.

بقيت طوال المدة التي قضيتها في جبهة بئر السبع منعزلا عن العالم العربي، جاهلا أحوال اخواني العرب ، حتى أمسيت لا أدري مقر اي اخ من اخواني العاملين . ولقد وجدتني بانتقالي الى معيـّة فون لايزر متمتعا بحرية ونفوذ عظيمين . فكانت الفرصة سانحة للاتصال باخواني الضباط العرب . فصرت ابحث عنهم ، واسعى في نقلهم الى الوحدات التي اضحت تحت امرتنا .

وفوجئنا يوما ، وكان قد تم لي نقل فريق كبير منهم الى فرقتنا ، بزيارة جمال باشا لنا في الحفير ، وكان الباشا آنئذ قادما من دمشق على اثر تنفيذه حكم اعدام الحياة بالقافلة الثانية من الشهداء العرب (٦ ايار ١٩١٦) فطلب تفتيش الوحدات ، فأعددنا له كل شيء . تقدم جمال باشا يصحبه فون لايزر ، وأنا في صحبته ، الى التفتيش . فأخذ يستعرض الوحدات وحدة وحدة . ويسأل فون لايزر عن بعض التفصيلات . وكان جمال باشا لا يحسن الالمانية ، كما ان فون لايزر لم يكنيحسن التركية ولا الافرنسية، التي يتقنها جمال باشا، فكنت أقوم بالترجمة بينهما . والتفت فون لايزر الى جمال باشا يرجوه الاعتماد عليّ في كل ما اقوله له . فانتبه هذا لهذه الملاحظة ، وشكر فون لايزر ، كما شكرني على ثقة القائد الالماني بي . وشرع جمال باشا يسألني عن بعض التفصيلات فكنت أسردها له بصراحة واسهاب أثارا دهشته . ثم شرع في سؤالي عن اسماء بعض الضباط الذين مروا من أمامه في اثناء العرض ، وعن موطنهم . فكنت كلما مر ضابط عربي

وعرفته به ازداد استغرابا وريبة . فالتفت اليّ والشرر يكاد يتطاير من عينيه سائلا : وانت من اي بلد انت ؟ فقلت له من طرابلس الشام . فهز رأسه ، وقال بالحرف الواحد :

«طرابلس شاملي لر جدق وطن يروز درلر» . اي ان الطرابلسيين جد وطنيين **وأذكياء** (لا توجد في النص التركي هذه الكلمة «اذكياء») وانك لا شك قد لقنت هؤلاء الضباط العرب ، الذين لا أدري كيف تجمعوا في هذه البقعة ، كل ما يجب عليك تلقينهم . فأجبته فورا : نعم اني قد لقنتهم كل ما يحتاجون اليه للقيام بواجبهم حق القيام .

ولم اكد أتم جوابي ، حتى أسرع جمال باشا الى مغادرة ميدان العرض ، طالبا مني ان اتبعه . فاتجهنا نحو احدى خيام الصحة الالمانية ، وتبعنا فون لايزر على الاثر دهشا . ولم يكد يستقر بنا المقام في الخيمة ، حتى بادرني جمال بالسؤال الآتي (فقط كولكرينه كوكورد صيد دركولجك برو جوق عائله لردر اوردر ويلمي ؟) اي ان الطرابلسيين وطنيون ولكن بينهم من العائلات ما يجب ان يصب على شرشهم ماء الكبريت اليس كذلك ؟ فأجبته : ان مولاي الباشا ادرى مني بهذا. على اني ، وان كنت طرابلسيا ، فاني لا اعرف طرابلس جيدا ، لانني خرجت منها منذ طفولتي للدراسة في استنبول ، ولاداء الواجب كضابط .

ثم سألني (شامده ابيه جكنك لريم حقتده نه درسك ؟) اي ما قولك فيمن علقتهم على أعواد المشانق في الشام ؟ فأجبته : «لقد عهد بمقدرات البلاد السورية اليكم ، ولا شك في انكم قد قمتم بما أوحاه اليكم ضميركم» . فبدت آثار الغضب في وجه الباشا ، واتفق ان فون لايزر تدخل في الامر ، وسألني عن الموضوع الهام الذي حمل الباشا على مغادرة ميدان العرض قبل انجاز العرض ، ويأتي بي الى هذه الخيمة . فقلت له ان الباشا يباحثني في سياسة سورية . فضرب فون لايزر المنضدة بقبضة يده قائلا (صعقا ورعدا مرة اخرى) اي مناسبة ، ربـّاه ، بين تفتيش الوحدات وبين سياسة سورية ؟ وشعر جمال باشا من حركات فون لايزر ان هذا لن يدعه يتمادى معي في بحث السياسة بمثل هذه الحرية ، فعجل في قوله : «انني عملت عملية جراحية في قلب سورية فإما ان يؤدي قلبها عمله كما احب ، وإما ان تقف دقاته الى الابد . وان الاعمال التي قمت بها في صحراء سيناء ستخلد لي ذكرا على مر السنين . وان الماء الذي استنبطته في تلك الصحراء لو استنبط في عهد موسى لما ضل قومه فيها» .

واختتم جمال باشا كلامه بقوله : انه ينوي نقلي الى مقره . فتدخل فون لايزر مرة ثانية ، وبحدّة ، سائلا عن موضوع حديثنا ، فأخبرته بأن البحث لا يزال

جاريا حول سياسة سورية العامة . فنهض فون لايزر غاضبا تاركا الخيمة من غير ان يهتم بجمال باشا .

وأخذ الشك والقلق يساورني على اثر زيارة جمال باشا هذه . وكان جمال قد غادر سورية مسرعا على أثر تنفيذه حكم اعدام الحياة بأحرار العرب مخافة سوء يلحق به وهو في الشام . وفضلا عن ذلك فقد كان يرغب في استطلاع درجة شعور الضباط العرب وعلاقتهم بتلك الحوادث ، وإثارة الحماس واليقظــة في نفوس الضباط الترك الذين قد يتأثرون بدعايات الضباط العرب بينهم . وكان وجـود ضباط من العرب متجمعين في وحدات يرأسها قائد الماني ، مثيرا لحفيظة جمال باشا وشكوكه . فليس بمستغرب اذن ان يعمد جمال الى اصدار الاوامر لتبديد شمل هؤلاء الضباط ، والتنكيل بمن يشتبه به منهم بشتى الوسائل . وما لبث جمال أن غادرنا الى جبهة اخرى للتفتيش .

وزارني في هذه الاثناء الاخ الدكتور احمد قدري ، وكان عضوا اذ ذاك في جمعية العربية الفتاة . فاختلى بي ، وأسرّ اليّ بأنه يحمل اليّ شيئا مـن الديناميت ، وهو يطلب مني تخبئته ، ويوصيني بحفظه حتـى يوم استعماله . ضحكت في سري وفي علني من هذا التكليف، لانني كنت حينئذ املك صناديق من الديناميت . اما متى يجب استعمال الديناميت ؟ وأين ؟ فقد كان مجهولا لدى اعضاء الجمعية ، والذي اتذكره الآن ان الدكتور أحمد قدري هو الذي اخبرني بنشوب الثورة العربية في الحجاز بقيادة الشريف حسين . وكنت طربت لهـذا الخبر وقلت في نفسي : لقد اشرق الآن فجر سعادة الامة العربيــة . وسألت الدكتور عن كيفية الانضمام الى الثورة ، فأوصاني بالصبر ، واعدا إياي بإرسال التعليمات والتفاصيل كافة .

غير اني كنت كلما مرت الايام ، وازداد تماسّي بأعضاء الاحزاب ، ضعف املي فيهم وفي نجاح مقاصدهم ، وأخذت الشكوك تساورني في قدرة هؤلاء واخلاصهم للعمل ؛ لاني كنت اعتقد بفساد الاساليب التي درجت عليها الاحزاب الى ذلـك الحين . والعمل يتطلب الاقدام والتضحية . وكان اغتيال جمال باشا كافيا لوضع حد للفظائع التي قام بها الترك ضد احرار العرب ولفتح المجال امام المخلصين . واني اعتقد بأن جمعياتنا لو عهدت الى اي رجل من اعضائها ، ولاسيما من كان منهم في صف الضباط ، بالقيام بمهمة الاغتيال هذه ، لما تأخر اكثرهم ، ولأقدموا على هذا العمل بحرارة وفخر .

***

كنت علمت من اخواني اعضاء الاحزاب ان الامير فيصل اتصل ، لما كان في

دمشق ، ببعض الضباط العرب وقادتهم وان هؤلاء أعربوا له عن استعدادهم للقيام بثورة عربية ، رجحوا اعلانها في سورية نفسها . وكان مما قالــوه له انهم لا يحتاجون الى شيء من المال او السلاح ، حتى ولا الى رجال سوى شخصية الامير فيصل . وقد سر الامير فيصل لسماعه قولهم وارصد مبلغا كبيرا من المال لهذه الغاية ، وقرر التوجه على الاثر الى الحجاز لاطلاع والده الشريف حسين على ما وقع له في سورية ، لتوحيد المساعي ، وتقرير ما يجب عمله . ومن المؤسف ان احدا من هؤلاء الضباط لم يلتحق بالثورة العربية عند نشوبها الا من اخذ منهم من الاسر فيما بعد ، او من ترك صفوف الجيش العثماني ليلتحق بالانكليز . وقد ادى التحاق هؤلاء بالعدو الى استحقار الترك للضباط العرب ، وسحب الثقة والسلطة من أيديهم ووضعهم تحت المراقبة . مما ادى الى النفور وفقدان الثقة بين العنصرين طيلة ايام الحرب العامة .

اما الثورة هذه التي طربنا لخبر نشوبها فلم تكن اخبارها تشجعني علــى الانضمام لها لاسباب عدة . فقد علمت مع الاسف ان الاسطول الانكليزي هو الذي اسقط ثغر جدة بقنابله . كما ان قلعة الطائف قد سقطت ايضا بمدافع انكليزية ارسلت الى الامير عبد الله . وان جنودا انكليزية وافرنسية قد انزلت في ثغور جدة ورابغ وينبع والوجه وغيرها من سواحل الحجاز ، وان الاسطول الانكليزي هو الذي يحمي هذه السواحل . كما ان ثغر بور سودان كان القاعـدة التي تمد الجيش الشريفي بالذخائر والاسلحـــة ، وان هناك بعض ضبــاط من الانكليز والفرنسيين يقودون بعض الفصائل الفنية ، وان الطائرات الانكليزية هي التــي تستطلع مواقع الترك في المدينة وفي سواها من مدن الحجاز ، وان ضباطـــا آخرين من الانكليز يقومون بمهمة المستشارين العسكريين فيقدمون الاموال الطائلة ويبدون آراءهم في الخطط وفي توجيه القتال حسبما تتطلبه مصلحـــة الجيش الانكليزي المحارب في فلسطين ، لا حسبما تتطلبه مصلحـــة العرب . فكانوا يحولون دون تحقيق هذه الاغراض ، ويقدمون للعرب من الاسلحة والعتاد ما لا يكاد يكفي لمعركة موضعية واحدة . فكانت دفة الجيش العربي وقيادته بأيديهم . فكنا كأننا نجابه جيشا انكليزيا من المستعمرات لا يختلف عن وحـدات الجيوش الانكليزية من اوسترالية وكندية ونيوزيلاندية وغيرها .

وصرت اسائل نفسي واقارن بين انتصار الترك وانتصـار الانكليز في هذه الحرب . وكان فيما قلته : لنفرض ان الترك انتصروا على اعدائهم الا يقضون على الأشراف في الاراضي المقدسة ويؤسسون لانفسهم فيها ادارة جديدة ، مما يخرج هذه الاماكن نهائيا من أيدي العرب ؟ الا يكون انتقامهم من العرب فظيعا ؟.

وصرت من الجهة الثانية أحلل انتصار الانكليز على الترك ، وهل يكون فـي مستطاع الجيش العربي في هذه الحالة الحيلولة دون مطامع الانكليز في العراق

وفلسطين ودون مطامع الافرنسيين في سورية ؟ وهل تغضب بريطانيا حليفتها الكبرى فرنسة من اجل هذه الشرذمة العربية ؟ وهل يحسن بنا في مثل هذه الظروف ان نستسلم لوعود وعهود اضطرت بريطانيا الى قطعها للشريف حسين تحت ظروف خاصة ؟ وهي المعروفة بمكرها وخداعها وعدم مراعاتها اي عهد لا يلائم مصلحتها .

ولقد تحقق فيما بعد كل ما ذهبنا اليه في شكوكنا ومخاوفنا . ففي الوقت الذي كانت بريطانيا تعاهد فيه الشريف حسين على تحقيق الامبراطورية العربية، كانت تعاهد الصهيونيين على انشاء وطن قومي لهم في فلسطين ، وتبرم مع الافرنسيين في الوقت عينه اتفاقية سايكس بيكو التي تخصها فيها بسورية . هذه المخاوف والاعتبارات جعلتني أرجح البقاء في صفوف الترك ، واعتقد انه اهون شرا . وبالرغم من كرهي العظيم للاتراك كنت ابغض وامقت الحركة الشريفية الانكليزية . وظللت على ذلك حتى سقوط دمشق .

وكنت أعتقد بأنه لو اتيح للترك النصر لكان من السهل على العرب استرجاع شيء من حقوقهم ، ولديهم ضباطهم وجنودهم المسلحون . كما ان فيهم رجالهم المفكرون الذين يمكن معها تأمين غايتهم هذه التي اعتبر تحقيقها من الترك أسهل مع ما لدينا من الوسائل من تحقيقها من اعدائنا الانكليز والفرنسيين ، ونحن عزّل لا نملك شيئا من السلاح .

وبرغم الضعف الملموس في كفاية الجيوش التركية في الميادين كافة ، كانت ثقتنا بالنصر عظيمة ، وذلك لاعتقادنا بقوة جيوش المانيا الحليفة : فكانت المعارك التي جرت في أواخر عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧ لا تزال تدل دلالة واضحة على قدرة الجيوش الالمانية في الدفاع والهجوم . كما ان مخترعات المانيا الحربية كان لها تأثير عظيم في صلابة معتقدنا بالظفر. ولم يكن لحوادث سقوط بغداد وانكسارات القفقاس ، والانكسارات المتتالية اي وزن في نظرنا ؛ اذ كانت الآمال تتطور تبعا لحركات الجيش الالماني وحده .

***

تلقى فون لايزر امرا بالسفر الى الاستانة بغية تأليف قوة مختلفة ، وسوقها الى جبهة بئر السبع بقيادته . ففرحت بهذا اعتقادا مني بأنني سوف ارافقه في سفرته. ولكن سروري لم يطل اذ فاجأني امر من القيادة العليا في بئر السبع بالسفر الى بئر السبع للمحاكمة . ولم اكن أعلم موضوع المحاكمة ، ولا سببها . ولكن تأثير حديث جمال باشا الاخير معي كان لا يزال له فعله في نفسي . وما كاد فون لايزر يطلع على الامر حتى غضب ، واعتبر هذا التدبير اهانة له ؛ لانه كان يثق بي كل الثقة وكان قد عهد اليّ بمعظم اعماله ، فكنت فيها لا اكلّ ولا املّ .

وانجز فون لايزر اعماله واستعداداته للسفر وركبنا القطار معا في اليوم المقرر لمحاكمتي . كان القطار الذي ركبناه مؤلفا من شاحنة احتللناها ، على حين انها كانت معدّة لركوب اربعين جنديا . وكان وراءها شاحنات مدثرات بقنابل ذات عيار ضخم . سار بنا القطار مسرعا تبعا لامر فون لايزر ولما بلغنا قبيل الظهر منتصف الطريق كان القطار يمر بنا في منعطفات خطرة لا تزال قيد التصليح ، وكان العمال لم ينجزوا بعد املاء بعض جوانبها بالتراب ، وكانوا قد تركوا على الخط بعض المركبات الصغيرة (الديكومتيل) بعد ان رفعوا الاعلام الحمر على مسافات بعيدة عن مكان التصليح . واذا بالسائق يجد نفسه بغتة امام شارة الخطر . ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لاتقاء الكارثة . وكان فون لايزر آنئذ واقفا يتطلع الى الافق للاشراف على مناظر بئر السبع . فناداني ، وما كدت اصل اليه ، حتى رايته يلقي بنفسه الى خارج المركبة . كان القطار لا يزال في سرعته ولمجرد رؤيتي فون لايزر يلقي نفسه من القطار ، وقبل ان أفكر في الموضوع ، قفزت في الهواء . وسمعت على الاثر دويا عظيما ، فخلت ان حادثا سيقع ، وان القنابل التي في القطار ستنفجر ، وتجعلنا هباء منثورا . وكان ارتفاع سطح التسوية عن قاعدتها تسعة امتار . وما كدت اصل الارض حتى كانت القاطرة وشاحنتنا منقلبتين الى الجهة المقابلة لجهة سقوطنا ، وسمعنا ثمة انفجارا ثانيا ، وتعالى الدخان . ومن حسن حظنا ان شاحنتي القنابل ظلتا مستويتين على الخط .

لزمت مكاني برهة ملصقا جسمي ووجهي بالتراب خوفا من انفجار يقع . حتى اذا تأكدت من السلامة ، قمت اتفقد فون لايزر فوجدته يشكو الما في فخذه. ولم يكن الانفجار الذي سمعناه الا صوت انقلاب القاطرة . اما مراسلي شهاب وسائر الضباط الالمان ومراسليهم فكانوا في داخل المركبة المنقلبة وقد أصيبوا بجروح ورضوض غير خطرة . وبعد ساعات من الحادث وصلت ترزينة في طريقها الى مكان العمل فلما شاهد رجالها ما حل بنا ، سجلوا الحادثة ونقلونا عليها الى بئر السبع . اما السائق وموظف القطار وكانا في القاطرة فقد قتلا لساعتهما .

وصلنا بئر السبع فذهبت توا الى قائد الموقع ، واخبرته بما حدث لنا في الطريق ، فأوعز اليّ بمواجهته في اليوم التالي . حتى اذا جئته سألته عن اسباب محاكمتي فأجابني بأن الامر جد بسيط . فعدت الى فون لايزر وأخبرته بما قاله لي قائد الموقع ، فاطمأن ، ثم طلب مني ان الحق به في القدس في اليوم التالي ، لاضطراره الى السفر اليها بقطار الليل للمعالجة . وجئت المحكمة في اليوم التالي واذا بدعوى مقامة عليّ اتهم فيها بعدم حمايتي للقانون العثماني من تعدي احد الضباط الالمان ، واخذت قيد الحفظ فأوقفت الى انعقاد جلسة المحاكمة .

فتحقق لديّ عندئذ سوء نية الترك نحوي وصممت على الفرار مهما كلفني الامـر .

ومرّ ببئر السبع في اليوم التالي قطار يحمل أخشابا وبعض اللوازم العسكرية في طريقه الى القدس ، فانسللت الى داخله ، وأخفيت نفسي بين الاخشاب . حتى اذا وصل القطار القدس غادرته وذهبت لساعتي الى المستشفـى الالماني ، حيث عدت فون لايزر ، وأخبرته بما حدث لي . فغضب غضبا شديدا ، وأخذ يطيّب خاطري . واني لا ازال أذكر قوله لي (ان أمة تعامل خيرة ضباطها بمثل هذه المعاملة السيئة ليست جديرة بالحياة) . ثم سألني أن لا أبرح المستشفى الا في صحبته بعد ابلاله ، حيث نذهب معا الى استنبول لعرض امري على انور وطلعت. وأيقن فون لايزر ، كما أيقنت انا نفسي ، أن ثمة مؤامرة خبيثة قد دبرها جمال باشا للقضاء عليّ .

شفي فون لايزر بعد ايام ، فخرجنا من المستشفى ، وسافرنا الى استنبول مع فريق من الضباط الالمان ، وكنت معهم كواحد منهم . اجتزنا جبال طوروس وكان الفصل شتاء ، ولم يكن نفق طوروس قد أنجز بعد . حتى اذا وصلنـا اسطنبول نزلنا في فندق طوقتليان . ومن غريب الصدف اننا لما دخلنا على أنور باشا وجدنا جمال باشا عنده ، فبهتنا لهذه الصدفة ، لعلمنا ان جمالا كان لا يزال في سورية . ولم يخفِ جمال باشا تعجبه لوجودي هنا ، فالتفت اليّ قائلا : وأنت هنا ؟ فاضطربت لسؤاله ، ولكنني تجلدت ، وأجبته : نعم ، وقد أمرني فون لايزر بمرافقته لمساعدته في التشكيلات الجديدة . ولم يلبث فون لايزر ان انفجر مخاطبا انور باشا بالالمانية التي يجيد التكلم بها كأحد ابنائها ، وشاكيا له اعمال جمال باشا . وكان جمال باشا في اثناء ذلك لا يستطيع اخفاء اضطرابه ، وقد سألني ان أقابله في الساعة العاشرة من صباح الغد في نزل بيدا بالاس حيث كان مقره .

يمّمت شطر الفندق بصحبة فون لايزر ، وكان على موعد مع جمال باشا . وقد أثار دهشتي ما لقيته من جمال باشا من حسن الوفادة ، خلافا للمأمول ، وأخذ يبيّن لنا التشكيلات الجديدة وما يقصد منها . ثم طلب من فون لايزر ان يقدم اليه تقريرا عن احتياجاتنا ، وعما يراه من الاستعدادات الضرورية . غير اني لم اكن لانخدع بمظهر جمال باشا في مقابلتنا تلك ، فأفضيت الى فون لايزر بما يخامر نفسي من الشكوك ، وما يحتمل ان يكنه جمال باشا لكلينا من نوايا سيئة، ربما قضى على التشكيلات الجديدة بسببها .

اخذنا في الاستعداد ، وتعقيب ما نحتاج اليه في تشكيلاتنا الجديدة مـن الدوائر المختلفة المليئة بالفوضى والمنهمكة في تأمين احتياجات الجبهات المختلفة.

وكانت نتيجة مساعينا عدم تأمين حاجياتنا فضلا عن حاجيات الجبهات الآخرى .

كانت وزارة الحربية أشبه شيء بسوق حراج لتركة عظيمة ، كلّ يتسابق الى الحصول على ما يحتاج اليه منها ، ويلتمس من يعينه على امره . وكانت جبهة جناق قلعة في تلك الايام اهم الجبهات شأنا واكثرها خطرا ، لان موقف الجيش التركي كان يزداد فيها حراجة يوما بعد يوم ، وكان القتال قد بلغ الغاية ، وكانت قوافل الجرحى من الضباط والجند تعادل قوافل النجدات الذاهبة اليها .

وتمكنّا بعد جهود جبارة من اكمال معظم احتياجاتنا ، وسافرنا الى حمص مركز تجمع وحداتنا . وبينما كنا نقوم بتنظيم أعمالنا ، اذا بخطورة الموقف في جبهة غزة ــ بئر السبع تنجلي لنا عن حاجتنا الماسة الى النجدات والمعـدات . واخذ جمال باشا الذي عاد الى مقره في القدس يمطرنا ببرقياته طالبا سرعة انجاز الاعمال لنتمكن من الوصول الى الجبهة في الوقت المحدد .

وكان فون لايزر قد عهد اليّ ــ على عادته ــ بمعظم اعمال الحملة وخـص نفسه بالمخابرات واكمال النواقص ، وترك لي امر الاشراف على التدريب والادارة. وكانت سيطرتي وانا ضابط عربي برتبة ملازم اول على قادة من الترك بينهم من هو برتبة مقدم وعقيد غير محتملة لديهم ، لذلك كنت ألحّ على فون لايزر بإعفائي من بعض الشؤون التي لها علاقة مباشرة بهؤلاء الضباط ، فلم يحفل برغبتي .

وفوجئنا صباح يوم ببرقية جمال باشا الى فون لايزر يطلب منه فيها ارسالي الى محكمة دمشق العسكرية . وشعرت بالمؤامرة المحاكة ضدي ، ولفتُ نظـر فون لايزر الى مخاوفي وخطورة المؤامرة . وبعد مخابرات برقية عقيمة مع جمال باشا ، عزم فون لايزر على السفر بنفسه الى القدس لحل المسألة . وأرسل على الاثر برقية الى جمال باشا ينبئه فيها بأن غيابي يسبب توقفا في أعمال الحملـة برمتها ، لذلك سيتوجه هو بنفسه اليه للاستيضاح والتفاهم .

دخل فون لايزر على جمال باشا في مقره في الطور ، دون استئذان ، وهو يجرني بيده . فبادر فون لايزر بالسؤال عن اسباب المحاكمة . فأجابه جمال باشا بأن قواد الوحدات غير مرتاحين الى وجودي بصحبة فون لايزر في ادارة الحملة، وهم يتهمونني بأخطر التهم ، وانه حسما للشكوك اراد ان يحيلني الى المحاكمة . فقال فون لايزر لجمال باشا ان الوقت لا يتسع لسماع أمثال هذه التهم ، وانه هو المسئول عن اعمالي وتصرفاتي . لذلك هو يرجو الغاء امر محاكمتي لنتمكن من متابعة اعمالنا . فأصرّ جمال باشا على المحاكمة ، ولم يسع فون لايزر الا ان التفت اليّ قائلا : انا ذاهب الآن الى استنبول لحل قضيتك مع انور باشا نفسه، ولوضع

حد لأمثال هذه المحاولات الشاذة ، وخرج مغلقا الباب وراءه بشدة ، وتركني وجها لوجه مع جمال باشا .

التفت جمال باشا اليّ والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال : كان يجب عليك ان تحمي القانون العثماني ! فأجبته بأنني لم اقصر قط في حمايته . ثم اشار اليّ بأن انتظر تعليماته من جوبان ذكي بك . وجاءني جوبان ذكي بك بعد خروجي من لدنه قائلا : ان الباشا يأمرك بالسفر الى دمشق برفقة احد الضباط . وكان جوبان ذكي بك مدير شعبة المعاملات الذاتية واشد اعداء الضباط العرب . يمّمت دمشق برفقة الضابط ، فسار بي الى آمر الموقع أشرف بك الذي كان صنيعة جمال باشا وامينه الخاص . فناوله الضابط كتابا لم يكد يتم أشرف بك قراءته حتى التفت اليّ قائلا : موقوف . وأمر من اخذ مني سيفي ، واطبق عليّ في سجن الضباط .

وطلبت في اليوم التالي الى المحكمة العسكرية ، فوجدت نفسي امام تهمة فظيعة خلاصتها انني متصل بالافرنسيين في ارواد . ولم اكن اعرف شيئا عن ارواد . هل هي جزيرة ام مدينة ام امراة . دافعت عن نفسي ما امكنني الدفاع لدفع التهمة ، ودامت محاكمتي عشر ليال لان جلساتها لم تكن تعقد الا ليلا على صورة سرية .

وقبل ان تلفظ المحكمة حكمها اذا بقائد الموقع يطلبني اليه ويقول لي : لقد انتهى الامر ، وقد عينت في فرقتك السابقة في بئر السبع ، وعليك ان تسافر اليها بقطار صباح اليوم التالي . وتأكد لي ان نجاتي من السجن ومن المحاكمة كانت بتأثير فون لايزر الذي مضى عليه حتى اليوم خمسة عشر يوما في استنبول . وكان مسعاه هذا المعجزة الوحيدة لانقاذي من براثن جمال باشا .

اخرجت من السجن في صباح اليوم التالي ، وارفقت بأحد رجال الانضباط الى محطة القدم للسفر منها الى جبهة بئر السبع . واتخذت مكانا في احدى عربات القطار المتجه الى القدس ، وكنت ساعتئذ لا احمل درهما في جيبي ولا شيئا من حاجياتي . وعنّت لي وأنا في القطار فكرة الاتصال بزوج الدكتور (يان) الضابط البيطري الالماني لاستطلع منها خبر فون لايزر ، ولاسألها اعطائي بعض الحوائج . تريثت في مكاني من القطار ، حتى اذا تحرك ، انتصبت واقفا ، ثم انسللت منه الى مركبة ثانية ، ومنها الى بابها ، فنزلت منه قبل ان تشتد سرعة القطار . وتواريت عن الانظار بين المركبات المنتشرة على الخطوط في المحطة . ثم قفزت الى عربة صادفتها فأقلتني الى بيت السيدة الالمانية . وسألتها عما اذا كانت تعلم شيئا عن فون لايزر ؟ فأجابتني بأنه لا يزال في الآستانة ، وان زوجها تلقى منه كتابا ينبئه فيه بأنه عائد الى سورية قريبا ، ولن يسافر الى المانيا .

واخبرتني السيدة بأنها عازمة على السفر الى القدس للحاق بزوجها الدكتور. واخبرتها بأني انا ايضا عازم على السفر اليها . ثم اتفقنا على السفر سوية . وكانت السيدة لا تعلم من امري شيئا وسألتني الخروج في صحبتها للنزهة . ولم أر بدا من اجابة سؤالها ، فركبنا عربة ، واتخذ مراسلها مكانه بقرب السائق . فكان وجوده معنا خير ستار اتوارى وراءه عن انظار المارة . وانطلت الحيلة على كل من رآنا ، فكانوا يظنون ان الضابط الجالس بقرب السيدة الماني . وكان البعض يؤدي التحية لي . ومن سوء الصدف ان مر بنا رئيس اركان الجيش في دمشق آنئذ ، سعيد سعدي بك وكاد يؤدي التحية للضابط الالماني الذي داخل العربة . وكانت دهشته عظيمة حينما اتضح له ان ذلك الضابط لم يكن سواي . وهو الذي ارسل خبرا للقيادة بسفري الى بئر السبع . وشعرت بأن مصيبة ستحل بي من جديد، فرجوت السيدة ان نذهب معا الى نادي الضباط الالمان ، فوافقت على ذلك ، وامضينا فيه وقتا غير قصير . واعددنا في الصباح ما نحتاج اليه من لوازم السفر ، واتجهنا نحو المحطة في آخر لحظة من ميعاد سفر القطار . وصلنا القدس حيث امضيت ليلتي . ثم تابعت سفري في اليوم التالي الى مقر فرقتي في بئر السبع . وتقدمت ثانية الى قائد فرقتي اسعد بك ، وقد فرح بقدومي كثيرا ، واعادني الى مركزي في الفرقة .

كانت حالة الجبهة عند قدومي سيئة للغاية . الجنود لا يكادون يملأون خنادقها ، والاحتياط مفقود والارزاق والتجهيزات في نقص ، والمعنويات في منتهى الضعف . على حين ان الحالة في الجبهة الانكليزية كانت على نقيض ذلك.

واخذ النشاط الحربي يزداد يوما فيوما ، حتى كان لا يمر يوم من دون حوادث . وتبين لنا من الاخبار التي تلقيناها من مختلف المصادر ، أن الهجوم الانكليزي المنتظر بات قريبا . وكان القائد العام في الجبهة الانكليزية قد استبدل بالجنرال اللنبي . وذلك على اثر فشل القائد الاول في معركة غزة الثانية . وكانت اخبار نشاط الجنرال اللنبي واستعداده ، والمعدات والنجدات التي اخذت ترد اليه استعدادا للمعركة المقبلة قد عمّت جبهتنا ، وبتنا نعتقد بأنها ستكون الوقعة الحاسمة .

اصبحنا ذات يوم ، فاذا بنا نرى ما يقارب الفرقتين من خيالة العدو تملأ سهول منطقة بئر السبع الجنوبية وحزونها . واخذت مفارز الانكليز تستطلع جبهتنا المحكمة . وكانت مدافعنا الوسيلة الوحيدة التي نملكها لابعاد العدو عنا . ولكن الانكليز بالرغم منها تمكنوا من التقدم الى مسافات قريبة منا . وما كادت مدفعيتنا تصب نيران مدافعها على المفارز المتقدمة حتى شاهدنا عددا كبيرا من العدو يتساقط امامنا . فظننا لاول وهلة ان هذه الشرذمة لم تكن سوى دورية صغيرة من العدو سقطت امامنا . فالتفت القائد اسعد بك الى الضباط الذين كانوا بقربه طالبا منهم

متطوعا لاستكشاف مفرزة الكشف الانكليزية هذه . فتردد الضباط ، ولكني تقدمت من بينهم نحو اسعد بك ، فطلب مني اصطحاب عدد من الجنود لتأدية هذه المهمة . وقال اننا سنكون جد يقظين لحمايتك بمدفعيتنا .

اخذت جنديين فقط ، وانطلقنا على خط معوج نحو القمة التي سقط قتلى العدو فوقها . وما كدنا نتسلق القمة حتى انتصب جنديان من الخيالة الاسترالية وصوبا بندقيتيهما علينا . فلم اجد بدا من رفع يديّ اشارة الاستسلام وصحت بأعلى صوتي : «عرب ، عرب» فاطمأن الجنديان وظنا انني ضابط عربي فر من الجيش التركي ملتحقا بهم . وكان مثل هذا الحادث مألوفا مع الاسف في ذلك الحين .

ولما بلغت القمة دهشت لرؤيتي كتيبة كاملة قد توارت وراء خيولها . وانطلق الجنديان امامنا يبشران ضباطهم بالغنيمة . غير اني لم امهلهما ورفيقي ، فأدرنا أعنة خيولنا وانطلقنا منصبين من اعلى القمة الى اسفلها . وكان رجال مدفعيتنا قد ظنوا اننا استسلمنا للعدو ، فأخذوا باطلاق مدافعهم على القمة التي كنت ورفيقي فيها ، لتودي بعدونا وبنا على السواء . وكان هذا القذف من حسن حظنا لانه صدّ عنا حينا نيران العدو . وابتعدت عن الخطر بانسلالي في الوديان بصحبة رفيقيّ . واخذت نيران عدونا تنصب بغزارة وسرعة وبارتباك ، وظللنا في غارتنا هذه حتى وصلنا استحكاماتنا التي تبعد عن القمة التي يحتلها العدو زهاء ثلاثة كيلومترات .

وصلنا قمة الترصد التي تجمهر فيها ضباط الفرقة مع القائد اسعد بك . وما كدت أصل اليهم حتى علا الهتاف من كل صوب . ثم اخذت احدثهم بما رأيت ، وحددت لهم أماكن العدو ، فسددت نيران مدفعيتنا على كمائن العدو التي عينتها ، فأصابت الاهداف ومُني العدو بخسارة عظيمة . وشاهدنا على الاثر فلوله منهزمة في الوديان . وظلت بعض كتائبه في مراكز ترصدها ، حتى اذا جن الليل انسحبت الى معسكراتها .

كان الانكليز قد اتموا حشد قواتهم بقيادة الجنرال اللنبي . وكانت هذه القوات تفوق قواتنا بعَددها وعُددها كما أسلفت . وكانت قد أتمت استعداداتها على ضوء اختبارات الهجومين السابقين على خط غزة ــ بئر السبع . ولم تمض ايام على استطلاعهم الاخير الذي قاموا به ، حتى بدا هجومهم المنتظر ، الذي انخدعت قيادتنا بهدفه الحقيقي ، اذ كانت تصرّ على ان الهجوم يكون على مدينة غزة كما حدث في الهجومين السابقين ، وانه لن يجري امام بئر السبع سوى تظاهرة عسكرية فقط . وقد تظاهر الجنرال اللنبي بحشد قواته الكثيفة امام غزة، وظهر الاسطول الانكليزي في الوقت عينه في بحر غزة ، فانخدعت قيادتنا بذلك ،

واذا بالانكليز يقومون في صباح ٣١ تشرين الاول ١٩١٧ بهجومهم العنيف على تحكيمات بئر السبع بشدة لم يسبق لها مثيل ، وما أن انتصف النهار حتى سقطت خنادقنا جميعها وهي ملأى بجثث الشهداء ، واضطرت فرقتنا الى الانسحاب على الاثر الى التلال الواقعة شمالي بئر السبع . واخذت الخيالة الانكليزية المجهزة بالمدفعية الخفيفة تحيط بالتلال ، وتهاجمها ، وأوشكت خيالة العدو ان تحول دون اتصال مقر قيادتنا فيتلول خشم اليتير بقواتنا المحتلة للتلال الشمالية . فكان لا بد للقيادة من ارسال من يعتمد عليه في هذه اللحظة لايصال الاوامر الى هذه القوى المحاطة بالعدو . وكان النظام قد اختل ، فلم ار بدا من ان اتقدم لانقاذ الموقف . طلبت من اسعد بك ان يأذن لي بالتقدم لانقاذ الموقف ، فأبدى خوفه على مصيري. وانطلقت وحدي . وكانت ثمة مسابقة طريفة بيني وبين خيالة العدو ، التي بذلت ما بوسعها للقبض عليّ ، غير اني وصلت الوحدة ، ولكن تحت وابل من قنابل العدو ورشاشاته . وتمكنت من ابلاغ الاوامر الى قائدها، وطلبت منه ارسال مفارز من رجاله لاحتلال القمم الواقعة وراءه تأمينا لانسحابه . وعدت الى مقر فرقتي الذي اخذ في التنقل والانسحاب شيئا فشيئا . وكانت الخيالة الانكليزية من ورائي تطاردني ، وكانت بعض طلقات من مسدساتهم تقع بالقرب مني ، وامتلكني الخوف على فرسي من ان يصيبها ما يعيقها عن متابعة انطلاقها ، فيقضى بذلك عليّ القضاء المبرم . وكان فريق من خيالة العدو تباريني في غارتي ، وتفوّق اخيرا في هذه الحادثة الدم العربي الذي يجري في عروق فرسي العربية على الخيل الاوسترالية الضخمة . وصادفت مجرى سيل عريض عميق في اثناء غارتي ، ولم يكن في مقدوري اتقاء الخطر بضبط فرسي المسرعة فضغطت عليها صارخا بها لكي تقفز المجرى بسلامة ، ففعلت ، ولكنها وقعت على الطرف الآخر من المجرى، ووقعت من فوقها ، فنهضت حتى اذا فحصت فرسي وجدتها بدون حراك . وقد يكون موتها قد نشأ عن عطل في احد اعضائها الرئيسية او انفجار في احد شرايينها . تركت الفرس مكانها ، وأسرعت الخطى متسللا في منعطفات الوادي ، حيث تواريت بعد حين عن انظار العدو المطارد . وسمعت بعد حين طلقات ، فتأكد عندي ان خيالة العدو وصلت حيث وقعت فرسي ، حتى اذا وجدوها في حالة نزع قضوا عليها بطلق ناري فأردوها . ولم يقدم احد من اللاحقين بي على عبور ذلك المجرى الخطر . وبقيت مختبئا في احد الوديان حتى غروب الشمس ، حيث اتجهت باحثا عن مقر الفرقة الجديد الذي كنت أجهله ، وظللت في بحثي هذا حتى قبيل الفجر ، وما دلني عليه الا اصوات بعض الجنود المتصاعدة . فتقدمت نحوهم وتلقاني أسعد بك بفرح زائد . كان المقر قد تاه في اثناء انسحابه من تلول خشم اليتير . فاقترحت على القائد اسعد بك ان نظل في أماكننا حتى انبثاق الفجر ، حيث نتجه الى هدفنا على بصيرة . وظللنا في مكاننا حتى الصباح ، حيث تداركت فرسا آخر ، وتابعنا بعد ذلك القتال والانسحاب .

سادت الجبهة التركية فوضى لا حد لها ، على اثر المعارك العنيفة التي نشبت

فيما بعد على طول الجبهة . ووقعت في بعض الاماكن ملاحم بالحراب ومجازر بشرية لا توصف ، فقد الجيش التركي فيها نظامه ، واضاع وسائط نقله الضعيفة، ومعظم معداته وعتاده ، ولاسيما عتاد المدافع ، فتضاءلت قوته ، وبرغم كل ما اصابه استطاعت شراذمه التي نجت من القتل او الاسر ان تقاوم بشدة واستبسال، ثم تراجعت بعد صراع دام زهاء اسبوعين . ثم انشأت جبهة تركية جديدة . وبذلك طويت صفحة ثانية من أروع صفحات الحرب في جبهة فلسطين . وانتهت المعارك الدامية التي نشبت للاستيلاء على خط بئر السبع – غزة ، ومعارك التراجع في مرتفعات جبل ابي حذف وجبال خشم البيتير التي كان الجنرال اللنبي يرمي من ورائها الى تطويل جبهة بئر السبع – غزة والقضاء على الجيش التركي فيها ، كيما تنفتح امامه ابواب دمشق وحلب . وكان انهيار جبهة غزة انهيارا لركن عظيم من صرح الامبراطورية العثمانية . وقد اصبح لهذه الجبهة الحيوية اهمية كبرى في نظر ساسة بريطانيا .

على ان الجنرال اللنبي الذي تمكن من قهر الجيش التركي ، قد فشل في الدور الثاني من هجومه الذي رمى من ورائه الى الاستيلاء على جبال ابي حذف الخالية ، والتدفق منها الى ما وراء الجيش التركي للقضاء عليه القضاء المبرم . ويرجع الفضل في فشله هذا الى التضحيات الكبرى التي قامت بها فرقة خيالتنا، والى وحدات المشاة التي الحقت بها ، وقد تمكن الجيش التركي من الافلات بأجزاء كبيرة من أيدي القوى الانكليزية التي منيت بخسائر فادحة .

كان تراجع الجيش التركي على طول الخط ، وكانت مقاومته في اثناء انسحابه ضئيلة في بعض الاماكن ، ودامية عنيفة في أماكن اخرى . وكان يرمي من وراء تراجعه الى الاستقرار في خط تكون منطقة القدس من ضمنه ، بينما كان الانكليز يحاولون ابعاد الترك الى شمالي القدس . ولذا كانت منطقة القدس شمالا وجنوبا مدار معارك دامية جدا . واستمرت المعارك التي كونت ذيول الهجوم على خط غزة – بئر السبع زهاء شهرين متتابعين .

وصلنا القدس والانكليز في اثرنا . وكانت قيادتنا العامة قد أعدت فيلقا كاملا للدفاع عن بيت المقدس ، كما ان الانكليز حشدوا قوات عظيمة للاستيلاء عليها قبل حلول السنة الميلادية الجديدة . وتلقت فرقتنا امرا بالاحتفاظ بجبهة رام الله ، كما ان فرقا اخرى كانت على محاذاتنا غربا . وما عتمت ان وصلت طلائع الجيش الانكليزي ، واشتد النشاط في القتال المتحرك في أطراف القدس ، ولاسيما حول قرية النبي صموئيل ، التي كان موقعها الممتاز بمثابة مفتاح لجبهة القدس. وانتقلت هذه القرية من يد الى اخرى عدة مرات في خلال ايام قلائل ، ثم استقرت في ايدي الانكليز .

ووصلتنا أوامر القيادة بانقاذها من يد الانكليز مهما كلفنا الامر من تضحيات، بعد ان خصصت لها وحدات كثيرة من الافواج الالمانية التي كانت تحت امرة الكولونيل فرانكتبرغ . وكان على فرقتنا ان تسند هجوم الالمان عليها . ولذا عينت ضابطا للارتباط بين القوى الالمانية المهاجمة وبين فرقتنا . وطلب الكولونيل فرانكتبرغ اليّ ان اعمل ما بوسعي لحمل اكبر عدد من البطاريات التركية المجاورة لنا على الاشتراك في هذا الهجوم المنتظر ، والذي عينت الساعة الخامسة مساء موعدا له . وسألت الكولونيل السماح لي بالاشتراك في هذا الهجوم ، عسى أن افيده وذلك باستلامي السرية الالمانية المرتبطة بفرقتنا والاشتراك مع جناح قوتنا الايسر .

وبدأ هجومنا بقصف مؤثر. وما ان أتمت مدفعيتنا تمهيداتها حتى اندفعت المشاة بقوة تحت وابل من نيران العدو نحو الخط الانكليزي . وبعد قتال قصير دخلنا القرية ، وطردنا الانكليز من اطرافها –ولكننا وقد أقبل المساء – لم نتمكن من اخراجهم منها بالمرة ، فظل قسم من القرية في ايدينا والقسم الآخر في أيدي العدو. وكانت مواقع الخصمين متقاربة جدا ، بحيث لا يحجز بينهما سوى خرائب القرية مما اضطرنا الى عدم استعمال الاسلاك الشائكة .

وقدم الكولونيل فرانكتبرغ على الاثر تقريرا بنتيجة المعركة مقترحا فيه على القيادة الانسحاب تحت جنح الليل ، قبل ان يتم للانكليز اكمال نجداتهم ، فيتعذر علينا حينئذ الانسحاب . غير انه تبين لي ان التقدم نحو الخط الانكليزي من ناحيتنا والاستيلاء عليه من الامور الممكنة . واردت ان أجرب حظي هذه المرة بمغامرة ، قد ترفع شأني او تقضي عليّ . فانسللت من الخط ووجهتي مقر الكولونيل فرانكتبرغ . وبسطت له فكرتي في كيفية انقاذ الموقف . فلم يبال برايي بادىء ذي بدء . وبعد الحاح اقتنع به ووافق عليه . فسألته ان يضم الى السرية الالمانية الاولى سرية اخرى ، ثم عقدت جلسة بحضور امار السرايا والضباط ، وشرحت فيها طريقة المباغتة المنوية وتفاصيلها ، وحددت لهم الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ٦ كانون الاول ١٩١٧ موعدا للشروع في العمل .

ثم اوعزت الى الجنود تخفيف احمالهم والاكتفاء بالعتاد والقنابل اليدوية . حتى اذا حان الموعد ، اوقظوا من نومهم وقدم لهم الشاي الممزوج بالروم . ثم امرتهم بالتقدم بحذر شديد صوب منازل الانكليز تبعا للخطة المرسومة . كان السكون مخيما والهدوء شاملا . ولما صرنا على بعد عدة أمتار من العدو قذفنا قنابلنا اليدوية فمزق دويها السكون حتى اذا فرغ ما لدينا منها انقضضنا كالصواعق على الخطوط الانكليزية وارتفعت اصوات الالمان من كل جانب (هواره) وصحت بدوري للمرة الاولى (هوراه) . واخذت الحراب تفعل فعلها في المجزرة . وما هي الا دقائق حتى انهزم من ظل حيا من الانكليز تاركا هذه الناحية من الجبهة

الواقعة على جناح العدو الايمن ، واخذت بعد ذلك بنادقنا ورشاشاتنا الخفيفة تصلي العدو النار الحامية . فلم يكن منه الا ان تراجع على طول الخط مخليا لنا قرية النبي صموئيل التي تقدم اليها جنود الكولونيل فرانكتبرغ على الاثر فاحتلوها.

وهكذا نجحت في تنفيذ خطة المغامرة ، التي انقذت موقف الجنود الالمان من الخطر فيما لو ظلوا في القرية حتى الصباح. ونلت على هذه المغامرة وسام الصليب الحديدي الاول . وتلت ذلك عدة معارك في اليوم التالي كانت في منتهى الشدة ، وذلك على ابواب القدس وفي جبهتنا . واسفرت هذه المعارك عن استرداد الانكليز قرية النبي صموئيل للمرة الاخيرة في ٧ كانون الاول ١٩١٧ ، واستيلائهم على بيت المقدس في ٨ كانون الاول ١٩١٧ . دخل الجنرال اللنبي المدينة ، فكان نصره اعظم نصر أحرزه الحلفاء في ذلك العام ، كما ان سقوط بيت المقدس كان اعظم حادث سياسي وقع خلاله .

تلت سقوط بيت المقدس معارك دامية متتابعة ، انسحب الجيش التركي في خلالها شمالا حتى استقرت جبهته في خط السلط – نابلس – طول كرم البحر المتوسط . وكانت المعارك السابقة قد انهكت قوى الفريقين ، حتى اصبحا في حاجة ماسة الى الراحة والاستجمام ، وإعادة التنظيم والاستعداد للاعمال العسكرية المقبلة . وشرعت المعدات والنجدات تردهما ، كما انهما شرعا في تحصين مواقعهما ، وحفر الخنادق ، ووضع الاسلاك الشائكة ، وغير ذلك مما يتطلبه الموقف .

***

كانت البلاد العربية التي لا تزال تحت سيطرة الترك تعاني اشد حالات البؤس والشقاء . وعلاوة على ما قام به جمال باشا من ارهاق وعسف وتقتيل وتشريد ، كانت المجاعة المدبرة قد استحكمت حلقاتها في طبقات الامة العربية كافة . وكان اثر ذلك ظاهرا في لبنان ودمشق وأطراف الموصل اكثر منه في الاقطار الاخرى. ولقد ادت قسوة رجال الادارة والامن بالاهلين الى اختفاء معظم الرجال في المدن والقرى والصحاري . ولعبت الرشوة دورها المخيف ، حتى اصبحت أموال الناس عرضة للنهب ، ولم يعد احد يأمن على ما لديه من مال او متاع . ولم تلبث أيدي الطغاة ان امتدت الى هذه الاموال والامتعة .

وكان الموت يحلّ في كل بقعة من البلاد بشتى الوسائل ، حتى اصبحت هذه البلاد العربية الزاهرة مقابر للأحياء ، لا صوت يرتفع فيها ولا حركة . ولم يعد الناس يهتمون بأخبار الحرب او بنتائجها ، بل كان هم كل فرد منهم ان يحصل على قوت ساعته ، فضلا عن يومه . ولم يعد في استطاعة احد معرفة مستودعات

الاعاشة والارزاق التي تجيء اليها محصولات البلاد . ولم تكن الجبهة احسن حالا مما وراءها . بل كان الجوع مخيما عليها بكاملها . فكان النقص في الملابس واللوازم والعتاد شاملا ، مما أدى الى تكاثر حوادث الفرار من الجيش . ولم يعد لدى الترك من القوة الاحتياطية ما يكفي لسد ثغرات الجبهة ، فضلا عما يحتاجون اليه وراءها . ومع هذا كله فقد ظلت الآمال معقودة على قوة الجيش الالماني. وانتعشت هذه الآمال بانهيار روسيا ، وبفشل هجمات الحلفاء العظمى على المانيا .

وكنا على اثر انكسار روسيا على يقين من انتصار المانيا . كما اننا املنا بورود نجدات قوية لجبهاتنا في فلسطين والعراق يتحسن على اثرها موقفنا وتمكننا من استرداد ما فقدناه من الاراضي . ولكننا لم نكد نسمع بسقوط روسيا في الحرب حتى اخذت الجيوش تتسابق على نهب القفقاس ومنابع البترول في باكو ، مهملين بذلك امر الجبهات المهددة بالسقوط . ولم يكتف المسؤولون بعدم ارسال النجدات فحسب بل اخذوا في سحب قوات من الجبهتين العراقية والفلسطينية بغية التوغل في القفقاس ، مما زاد الموقف حراجة وخطورة حتى سقطت الدولة العثمانية .

عينت منطقة بروفين الواقعة جنوبي غربي مدينة نابلس مقرا لفرقتنا . وبدات الاستعدادات واكمال النواقص في المعدات والجنود ، ولكن ببطء شديد . وظل النقص ملازمنا في القوى الاحتياطية والعتاد والاعاشة والتجهيزات حتى نهاية الحرب العامة .

وبدىء بانشاء الحصون في هذا الخط الجديد ، وبتعبئة الرشاشات والمدافع فيه . وبدات اعمال الاستطلاع من جديد . وكانت حركات الانكليز ازاء منطقتنا غامضة للغاية . وبالرغم من وسائل الاستخبارات التي لدينا ، والنشاط الذي ابداه الطيارون الالمان في اعمال الكشف لم تتمكن القيادة العامة من معرفة ما يقوم به العدو من استعدادات في هذه الجبهة . واخذ القائد ليمان فون ساندرس يلح على فرقتنا في وجوب ازالة الغموض . فتقدمت كعادتي اليه متطوعا لازالة ذلك الغموض ، وانتخبت بضعة نفر من الجنود وسرنا ليلا نحو خط الانكليز الامامي حيث باغت مخافرهم بغية تنبيههم الى هذه الناحية وتضليلهم عن النقطة البعيدة التي اخترتها للانسلال وراء خطهم . فنجحت فكرتي وتمكنت من الكمون على قمة مكسوة بالشجيرات والادغال . وظللت قابعا في مكمني حتى منتصف الليل حيث ارصد العدو بمنظار كنت استصحبته . فتثبت من مراكز العدو ومن قواه وكيفية توزيعها . ثم قررت التوغل في الليلة التالية في منطقة العدو عينها . ولما خيم الظلام تقدمت نحو القوى الانكليزية متخللا صفوفها في وديان كنت كشفتها نهارا. حتى اذا أصبح الصباح كنت متوسطا تلك القوى وقد صرفت نهاري بطوله في سفح تسترت بأدغاله مترصدا العدو ومراقبا ما يجريه حولي من اعمال التحصين وفتح

الطرق وتثبيت مدفعيته الثقيلة والخفيفة ، وغير ذلك مما كانت القيادة العامة تجهله وتتوق لمعرفته .

ولما ارخى الليل سدوله انسللت قافلا الى المقر ، بعد ان قطع القائد الامل من عودتي اليه ، واعتقد ان الانكليز قد أسروني لطيشي وتهوّري في اعمالي الاستكشافية التي استغرقت ثلاث ليال ونهارين . وبعث القائد من فوره تقريرا بأعمال كشفي الى القيادة العامة ، التي شكّت في صدق ما احتواه التقرير من حقائق لم يتمكن من الاطلاع عليها حتى أشهر طياري الالمان في خلال استكشافاتهم .

ولم يلبث ليمان فون ساندرس ، بعد اطلاعه على تلك المعلومات ، ان جاء بنفسه ليستفسر عنها مني ، فحدثته بما رايت . ولما شعرت بالشك يخامره ، طلبت منه ان يرفقني بمن يعتمد عليه من الضباط الالمان ليشاهد بأم عينه ما كنت رايته واستكشفته . فقبل بمقترحي واوعز الي ضابط الماني بمرافقتي . فرجوت ليمان فون ساندرس ان يضع الضابط تحت امري ، وأن يوصيه بأن لا يعترضني في محاولاتي . وشاء الضابط استصحاب نفر من الجنود الالمان وعبثا حاولت اقناعه بجنديين من جنودنا الترك مخافة ان تفضح كثرة الجنود أعمالنا ، فأبى الضابط الا استصحاب بعض جنوده ، واكتفيت انا بجنديين من فرقتي لمرافقتي. سرنا جميعنا على النمط الذي سبق لي ان سرت عليه في اثناء محاولتي الاولى ، انما بتغيير طرق المباغتة والانسلال . ولما أسفر الصبح كنا نشرف على معسكرات الانكليز . فخال الضابط اننا هالكون ، ورفض المغامرة مكتفيا بما رأى . اخذت اشرح له ما جاء في تقريري ، واشير بيدي الى ما يقع عليه نظرنا من تحصينات العدو ومراكز مدافعه . فأخذ يدوّن ملاحظاته ويرسم بعض المخططات . واردنا العودة ، وعينت الطريق التي اخذت اتباعها ، واوضحت له ان الواجب يقضي علينا بالعودة منها قبل منتصف الليل حيث يكون العدو في طمأنينته . وبالرغم من التعليمات التي يحملها الضابط من وجوب اطاعتي في كل ما اقوله واصنعه رفض الانقياد الى مقترحاتي ، مفضلا المسير بعد منتصف الليل . ولكننا لم نتمكن من قطع المسافة الا بعد انبثاق الفجر ، وتنبهت المخافر لوجودنا في منطقتها ، فقذفتنا بنيران حامية . وما كدنا نبتعد قليلا حتى بزغت الشمس ، واصبحنا معرّضين لنيران العدو من كل جانب فاضطررنا حينئذ الى الدفاع عن انفسنا . كما ان فرقتنا وفرقة المشاة المجاورة لنا استيقظتا على اصوات نيران البنادق . واخذتا بدورهما بتعزيز الخطوط الامامية بينما كنا نحن نتابع انسحابنا نحو مقر فرقتنا. ولم تلبث تلك المناوشة البسيطة ان تحولت الى معركة كبرى . وكان احتدام المعركة وتقدم وحدات من فرقتنا الى الامام سببا في انقاذنا من ذاك المأزق . ولم نتمكن من الوصول الى مقر فرقتنا حتى آخر النهار ، حيث وجدنا ليمان فون ساندرس في انتظارنا . وسألني عن اسباب هذه المعركة غير المتوقعة فأخبرته بما حدث . ولم يسع ليمان فون ساندرس الا لوم الضابط الالماني على مخالفته

اوامري . ثم سأله عما شاهده فأكد له كل ما جاء في تقريري فاستعظم ليمان فون ساندرس مغامرتي ، وشكرني واعدا اياي بوسام النسر الاحمر . واخذ اخواني الضباط على الاثر يعتقدون بحصانتي من الموت .

ومن غرائب الصدف ان احد الضباط الانكليز قام في احد الايام باستطلاع مماثل لاستطلاعي ، وتمكن من التغلغل بين صفوفنا مستصحبا ما يقارب الاربعين جنديا وضابطا مدفعيا . وكمنوا في احد الوديان القريبة من مقرنا . وشاءت الصدف ان اقترح على القائد اسعد بك في اليوم عينه ان يقوم بجولة تفتيشية في خطوطنا ونقاطنا الامامية . فلما وافق على مقترحي سرنا مع عشرة اشخاص ، اربعة منهم مسلحون . واطللنا في الساعة العاشرة على احد الوديان ، فشاهدنا فريقا من الانكليز جلوسا كأنهم في معسكراتهم وهم يأكلون البرتقال . فدهشوا ودهشنا لهذه المصادفة . ولم البث ان تقدمت الى القائد اسعد بك راغبا منه ومن بقية الضباط سرعة الانتشار آمرا الجنود الاربعة المسلحين باللحاق بي وانطلقنا غائرين . وتقدمت من الانكليز وانا أصيح بهم طالبا التسليم . وكنت لا ازال بعيدا عنهم ، فاذا بي اراهم ينتصبون على اقدامهم ، فيفرغون ما في بنادقهم من العتاد، ويرمون بها الى الارض رافعين ايديهم اشارة الى التسليم . ولما وصلت اليهم امرتهم بالابتعاد حالا عن بنادقهم ، ثم اوعزت اليهم بتسلق القمة وانا من وراءهم حتى اذا وصلوها دهشوا لقلة عدد رجالنا العزل . وكان اسعد بك في اثناء غارتي على هؤلاء قد استنفر مركزا من مراكزنا القريبة ، واذا بفصائل منا بعد حين تتقدم نحونا مسرعة فأحاطت بالاسرى وقادتهم الى المقر . واخذ المدفعي الاسير يصيح ويشتم اخوانه لوقوعه معهم في هذا الشرك وعلى تلك الصورة . وكان لهذا الفوز تأثير عميق في نفوس رجال فرقتنا والفرق الاخرى المجاورة .

ونظرا الى وعورة الارض انتقلت فرقتنا بعد ايام الى جهة اخرى عينت في منطقة غور بيسان لتقوم على حفظ الارتباط بين الجيشين السابع النازل في منطقة نابلس والرابع النازل في منطقة السلط . وكانت منطقتنا الجديدة منخفضة عن سطح البحر بما يقارب المائتي متر ، وهي مليئة بالادغال والاحراج المهجورة التي تكثر فيها الحشرات السامة وتكاد حرارتها لا تطاق . كان على الضفة الغربية من الغور قمة تدعى بالمصلّبة ، وهي مشرفة على الجبهتين في آن واحد . وكان كل فريق من المتحاربين يرغب في احتلالها . فكانت القمة تنتقل من يد الى اخرى واستقرت اخيرا في يد الانكليز . وقررت قيادتنا الاستيلاء عليها ، وخصصت لهذه المحاولة وحدات كبيرة ومن جملتها فرقتنا .

بدا تعرضنا في صباح ١١ نيسان ١٩١٨ بمفاجأة ، ولكنه لم يلبث ان فشل بتأثير نيران مدفعية العدو الهائلة ورشاشاته . واخذت النجدات الاحتياطية تتوارد على الجبهتين ، واحتدم القتال . وكانت أقصى نقطة وصلتها جنودنا السفح

الشمالي من القمة ولكن القمة نفسها وسفحها الجنوبي ظلا بيد الانكليز . فارسل الينا آمر المقدمة يخبرنا باحتلال رجاله لها . وللتحقق من صحة الخبر طلبت من القائد ان يسمح لي بالاستطلاع بنفسي .

تقدمت نحو الخط الامامي فوجدت اننا لا نزال بعيدين عن القمة . وكان آمر القوات وراء خطنا الامامي ، فرجعت اليه وبينت له حقيقة الوضع . وكان استغرابي شديدا حينما قال لي ان الجنود الذين يحتلون القمة هم جنودنا وان العدو في السفح الجنوبي منها . ودفعني حب الاستطلاع الى التحقق من الامر ، فتقدمت ولم يكن بين جنودنا في الخط الامامي من يظن ان القمة بيد قواتنا ، بل كانوا مجمعين على انها بيد العدو . فطلبت حالا من الخط الامامي متطوعين لاحتلال القمة التي ملئت بأجسام شهدائنا . فتطوع عدد وافر من الجنود .

اوعزت الى هؤلاء المتطوعين بوضع الحراب في بنادقهم وبعدّ ما لديهم من القنابل اليدوية ففعلوا . وشرعنا بالزحف على بطوننا بحذر شديد . وكان الاتفاق قد تم بيننا على ان نزحف الى ان يقذفنا العدو بناره فنقذفه حينئذ بقنابلنا ثم نتقدم اليه بحرابنا . وتقدمت في الطليعة الى ان حاذينا خنادق العدو . فاطلق العدو الطلقة الاولى على جناحنا الايمن ، فكانت كأنها اصابت مستودعا من الديناميت فانفجر لاننا قذفنا دفعة واحدة ما بأيدينا من قنابل اليد ، ثم وثبنا وثبة رجل واحد بالحراب ، واصواتنا تدوي في الفضاء : الله ، الله ! وما هي الا لحظات حتى كانت حرابنا تعمل عملها في العدو الصامد لنا في خنادقه . وانهزم من سلم منه ، وعقبناه نيران حامية ، وتم استيلاؤنا على القمة من غير ان ننتظر امرا من القيادة التي انما اوفدتنا للاستطلاع ولم يكن العدو يتوقع هجوما جديدا منا .

غير ان الانكليز الذين اعدوا العدة لاكتساح جبهة فلسطين بكاملها ، لم يغمض لهم جفن تلك الليلة . حتى اذا أصبح الصباح قاموا بهجوم عظيم تسنده قوات عظمى من المدفعية ، وتمكنوا على اثره من استرجاع القمة من ايدينا ، بعد ان ظللنا الليل بطوله ننتظر نجدة بلا جدوى . ثم اخذ النشاط يشتد تدريجيا في هذه المنطقة بعد حين ، وتدفقت في صباح ٢٤-٤-١٩١٨ قوى الانكليز نحو جسر اريحا قاصدة السلط . ولم يكن أمام هذه القوى في بداية الامر ما يعادلها في العَدد والعِدد من قوانا فتقدمت بسهولة حتى وصلت السلط . وتلقينا على الاثر امرا بالتعرض لقوى الانكليز على جناحهم الايسر . فتقدمت فرقتنا بدورها مع نجدات من المشاة قاطعين سهول العزر الى ان وصلنا جبال السلط وطردنا ما صادفناه من قوات العدو . وظللنا في مسيرنا حتى ابواب السلط .

وكانت المسافة الطويلة ووعورة الجبال والمعارك التي خضناها ومسير الليل

بطوله قد انهكت من قوى جنودنا . وانتشر قبيل الفجر ضباب كثيف غطى القمم والوديان ، فقررنا التريث وإراحة الجنود . وبينما كانت الوحدات تقوم بترتيباتها، اقترحت على القائد اسعد بك ان نقوم بجولة نتأكد معها من سير الترتيبات المقررة. فاصطحب القائد خمسة ضباط كنت احدهم ثم شرع يتنقل بنا في الوديان تارة وعلى الجبال تارة اخرى . وانقشع الضباب فجأة فرأينا جماعة من الجنود على احدى القمم وقوفا يدخنون . فغضب القائد من وضعهم الذي ربما لفت انظار العدو نحونا ، فتقدم القائد صوب هؤلاء الجنود صارخا بهم ان يتستروا وما كان من هؤلاء الا ان ارتموا الى الارض مسددين رشاشاتهم وبنادقهم صوبنا . وما هي الا لحظات حتى أصيب القائد وثلاثة ضباط انا احدهم ببعض الجروح ، وكانت الارض من حسن حظنا مزروعة بالحنطة فتمكنا من التواري وراءها .

وكانت حقيقة ما حدث لنا اننا ضللنا الطريق ، وقطعنا خطوطنا الامامية من غير ان نشعر . وكان الضباب السبب في ذلك ، وكان علينا ان ننجو بأنفسنا خوف الوقوع في الاسر . وقد ارسلت وحداتنا على اثر اطلاق النار تستطلع سببه . حتى اذا علمت به وانتشر الخبر فيها وفي الوحدات الاخرى بأننا قد أصبنا بجروح ، اسرعوا الى نجدتنا . ونشبت على الاثر معركة حامية الوطيس شعر العدو عندها بأننا لم نكن دورية عادية خرجت للاستكشاف بل فريقا من الضباط . فأخذوا بدورهم يصلون جبهتنا نيرانا حامية . وهكذا سببت جراحنا جراحا كثيرة. وتمكنت وحداتنا بعد معركة دامية من اسكات نيران العدو وانقاذنا . نقل اسعد بك الى المستشفى . اما انا فكان جرحي بسيطا ، وتمكنت بعد بضعة ايام من العودة الى اعمالي في الفرقة . وفشل تعرض العدو للسلط ، فانسحب الى مواضعه متكبدا خسائر فادحة ، وعادت الجبهة الى سابق عهدها .

كانت حالة الجنود الانكليز جيدة . فإعاشتهم موفورة وتجهيزاتهم كاملة ، وقواهم الاحتياطية التي يبدلون بها جنودهم في خطوط القتال لا تحصى . وكانت جنودهم الاحتياطية تلعب لعبة كرة القدم في كل مساء وذلك على مرأى منا . اما نحن فلم يكن لدينا من الاحتياط ما يحل محل جنودنا في الجبهة ، وكانت اعاشتنا على غاية من الرداءة والقلة ، كما ان تجهيزاتنا كانت من النقص بمكان . وكانت جنودنا تصرف أوقاتها في حفر الخنادق والقتال .

وعنت لي يوما فكرة بعد ان شاهدت احتياط الانكليز يلعبون كرة قدمهم . فاقترحت على القائد ان يأذن لي بمدفعين ومفرزة صغيرة من الجنود ، اتقدم بها ليلا نحو العدو ، حيث اكمل نهاري حتى اذا جاء المساء ، وبدأ العدو في لعبة كرته ، فاجأته بنيران المدفعين واشتركت معه في لعبة كرة من نار وفولاذ . اعجبت الفكرة قائد فرقتنا ، ولكنه تردد في بادىء الامر ، واخذ يسرد لي ما يمكن ان نتعرض له من الاخطار والمسئوليات فيما اذا خسرنا ذينك المدفعين . فأقنعت

القائد بنجاح محاولتي وفائدة مباغتتي . فوافق اخيرا . وسرت ليلا بالمفرزة الصغيرة والمدفعين من غير ان أخبر احدا بما اقصد . وتمكنّا من التقرب الى خطوط العدو الامامية بحذر شديد . فأخفينا المدفعين والبغال تحت الادغال ، وأعددنا ما يلزم من ترتيبات للدفاع .

ولما مالت الشمس الى المغيب ، شرع الانكليز في لعبتهم . ولم نر بدا من الاشتراك معهم بدورنا . وكان المدفعان مسددين أدق تسديد فأخذت القنابل تتساقط بين أرجلهم فتنفجر ، وأصيبوا جميعا بذهول . وشتت الجمع فصوبت القذائف من جديد على الخيام وعلى الخيل ، وكان منظرا رهيبا مضحكا في آن واحد . ولم يكن استغراب قواتنا بهذه المباغتة بأقل من استغراب العدو وأخذنا نسرع في قذف القنابل التي لدينا حتى آخر طلقة . ثم اخذنا تحت ستار الليل ننسحب عائدين الى المقر دون ان نصاب بأذى . وكان لهذه المغامرة الفذة أثرها المرح في نفوس رجال المقر والضباط والجنود ايضا . وأصبحوا يثقون بي وبآرائي وبأعمالي .

وإزداد نشاط الانكليز ، وكانت تنقلاتهم تجري في كثير من الاحايين بين قطعاتهم خلال النهار . وكانوا يرمون من وراء ذلك تضليل القيادة العامة التركية عن الهدف الذي يسترونه . وحدثت مباغتة منهم ذات ليلة على فيلق عصمت باشا في جبهة نابلس مركز الجيش السابع . وكانت المباغتة هذه من حيث القوى المدفعية التي اشتركت فيها والاصابات التي وقعت وقسوة الهجوم اعظم ما عرف في الحروب حتى الآن . اذ لم يمض دقائق على اطلاق الانكليز مدافعهم حتى تمكنت مشاتهم من الاستيلاء على خنادق الترك ، وتوغلوا في الخنادق ، يقتلون ويأسرون . وفعلت المدفعية مفعولها . ولكن الجيش الانكليزي لم يلبث ان انسحب على الاثر من الخنادق . وكانت هذه المحاولة منه تظاهرة عسكرية لالفات نظر قيادتنا الى قوة مدفعيته في هذه الجبهة . وما كان من قيادتنا الا ان جمعت قواتها المدفعية في هذه الجبهة ، بينما كانت مدفعية العدو تنتقل بكاملها الى الجبهة الجديدة التي عزموا الهجوم عليها في طول كرم .

وشعرت القيادة العامة الالمانية بالنفور المتزايد ما بين الجنود الترك والالمان بسبب عدم اشتراك هؤلاء في المعارك الاخيرة التي دارت رحاها في هذه المنطقة من الغور ، والتي أصيب فيها الترك بخسائر فادحة للغاية دون اصابة احد من الجند الالماني بسوء . اذ سبق للقيادة العامة بسبب رداءة المناخ في الغور ان ارسلت الوحدات الالمانية الى السلط وقتئذ . ومن الصدف ان يقوم الانكليز بهجوم جديد على السلط ١ مايس(آذار)١٩١٨ عقبوصول القوات الالمانية هذهاليها. وقد أفرزوا في ذاتالوقت قوات خاصةللحيلولة دون نجدة قواتنا الخيالة للجيش الرابعالمرابط في السلط . وتلقينا الاوامر بسرعة التعرض للانكليز وطردهم للاتصال بقوات

الجيش الرابع . فكانت معارك اليوم اشد المعارك هولا . ولكن لم يكد النهار ينتصف حتى كنا انتصفنا من أعدائنا ، وتمكنّا من صدهم وطردهم . وأضحت القوة التي تغلغلت حتى السلط على اثر طردنا لها في خطر من احاطتنا ، فتراجعت بسرعة. وعندما كانت المعركة على وشك الانتهاء اذا بخبر يقول بأن احدى الكتائب الانكليزية دخلت احد الوديان القريبة منا ، فبعثنا على الاثر دوريات عدة للاستطلاع فلم يعثروا لها على اثر . غير انا شاهدنا غبارا يرتفع في أحد الوديان ، فأخذت للحال سريتين وانطلقت بهما وراء الغبار . وكانت دهشتي عظيمة لرؤيتي سيارات الصليب الاحمر ومفرزة كبيرة من الخيالة ، خلتها خصصت لحماية المفرزة الصحية . فانطلقت اليها دون تردد ، وأفرزت فصيلا للحال ليرقى احدى القمم حيث يبادر العدو بناره الى ان تتوسطه بسيوفنا .

وما كاد العدو يرانا حتى انهزمت سياراته وهي لا تلوي على شيء . وحاولت مفرزة خيالة العدو المقاومة . ولكن لم يكن بد أمام مفاجأة نيران فصيلنا وهجومنا المباغت ، من ان ينهزم قسم منهم ويقع القسم الآخر مع ضباطه وجرحاه أسرى في أيدينا .

ومن الصدف ان وجدنا صناديق كثيرة من الويسكي والبيرة ومن الارزاق ايضا . وكان الحر شديدا والماء قليلا ، فما كان منا الا ان أطفأنا ظمأنا من البيرة ورخصت للجنود باطفاء ظمأهم . وسقنا الاسرى والخيل وما وجدناه من التجهيزات أمامنا . وكانت اناشيدنا تملأ الفضاء . ووصلنا المقر بُعيد الغروب . فألقيت القائد في قلق شديد لتغيبي عن المقر دون مبرر . وزاد حنقه عليّ عندما وجدني أترنح أمامه والجنود . ولكني لم ألبث ان أومأت اليه بيدي ان أنظر ما ورائي من الاسرى والغنائم ، فاذا به أمام عربة الجنود ومجموعة من الاسرى ، وغنائم الانكليز ، فانقلب غضبه عليّ الى فرح . وقال لي ان مشروبك اليوم حلال . وكانت خسارة الانكليز اليوم من القتلى ٦٠٠ فارس و١١٠٠ مشاة و١٠٠٠ أسير .

كان الانقلاب الروسي هذه الآونة قد تم ، وأمضيت معاهدة برست ليتوفسك وخرجت الامبراطورية نهائيا من صفوف الحلفاء .

فأخذ الجيشالالماني ينقل فيالقه بسرعةمن الجبهة الروسيةالى الجبهة الغربية. وكان الامل الوحيد الذي يخالج نفوس ضباط جيوش الائتلاف في الهجوم المقبل الذي سوف تقوم به المانيا بعد تحسين جيوشها . وكانت الجبهة الايطالية قد تحطمت وأضحت تعتبر خارج صف القتال . ولم يبق في الميدان سوى جيوش الجبهة الغربية وكان القليل منا من يخامره شك في الانتصار النهائي على الحلفاء.

ولكن كثافة جيوش الحلفاء من جهة ، وينابيع الذخائر والتجهيزات والاحتياط

التي لا ينضب معينها في ممتلكات بريطانيا وفرنسة وامريكة ، وقلة هذه جميعها في الجانب الالماني جعل نصيب الهجوم الاخير الاخفاق ، بالرغم من البسالة والتضحية والقدرة الفنية التي اظهرها الالمان في أدوار هذا الهجوم ، وتبدلت عقيدتنا بالنصر ، واصبح الاعتقاد بانكسار الالمان يرسخ في نفوسنا شيئا فشيئا.

بدأ تراجع الجيش الالماني في الجبهة الغربية . ولم تكن حالة جبهة فلسطين على ما يرام بالنسبة لما يملكه الانكليز من قوات ومعدات . ومع هذا فقد كانت قيادتنا العليا في استنبول تفرز من قواتنا في هذه الجبهة لترسلها الى ميدان القفقاس للنهب والسلب ليس الا . فازدادت جبهتنا ضعفا وجاء استسلام بلغاريا الذي فوجئنا به ، بمثابة انهيار احدى دعائم بناء الائتلاف . واضطرت الحكومة العثمانية الى سحب قوات اخرى من جديد من ميدان فلسطين وارسالها لحماية استنبول ، وامسى حديث الصلح والمهادنة على كل لسان .

واخذت جيوش الحلفاء الذين لمسوا الضعف والانحلال في ميادين اعدائهم كافة يظهرون من جديد نشاطا نادرا . واضحت الجيوش في ميادين القتال كلها تنتظر الساعة الرهيبة . وخيم السكون على الجبهة حينا . وكانت الحركات الجوية وحدها التي تخل بالسكوت المخيف .

واصبحنا يوما امام مشهد مريع : ثلاث طائرات المانية محلقة في الفضاء مشتبكة مع ست طائرات انكليزية ، واحتدم قتالها فوق مقر فرقتنا ولم تمض لحظات حتى سقطت اولى طائرات العدو ، فانطلقت مع شرذمة وراء الطائرة الساقطة . وما كدنا نصل اليها ، ونلقي القبض على سائقها الضابط ، حتى شاهدنا طائرة المانية تهوي والطائرات الانكليزية الخمس من ورائها تقذفها بوابل من رشاشاتها ذوات العتاد الفوسفوري . وما كادت تلامس الارض حتى قفز طائرها مبتعدا عن مرمى طائرات العدو ، اذ كان مقصدهم احراق الطائرة الالمانية الساقطة بمن فيها . حتى اذا نفذ عتاد الطائرات الانكليزية انقلبت على أعقابها موليّة شطر الجنوب . وعدنا بالاسير الانكليزي . ولشد ما كانت دهشتي عندما اقتربت من الطائرة الالمانية ، اذ رأيت صديقي الملازم الالماني ، وهو مصاب في يده . فطلب مني ان اقوده الى اول مركز للتلفون . وذكر لي ونحن في الطريق ، خبر سقوط طائرة المانية اخرى بجوار اريحا صباحا ، فحلق هذا الرف المؤلف من الطائرات الثلاث للبحث عنها، فاذا بهم يتصادمون مع تسع طائرات للعدو، ودارت معركة جوية سقطت فيها ثلاث طائرات للعدو وراء الخطوط الانكليزية ، وسقطت الرابعة ضمن حدودنا . وذكر لي ان قائد طائرته قد قتل وهما في الجو ، فاضطر الى قيادتها بنفسه من وراء جثة صديقه ، وانه قد اصيب بكسر في ذراعه الايمن اثناء نزوله بالطائرة ، وتمكن من قيادة الطائرة بيسراه ، وايصال الطائرة سالمة الى الارض.

واتصل الطائر هذا بآمر السرب الالماني في الرملة تلفونيا واخبره بما وقع لهم،

فأرسلوا للحال طائرة لتصلح العطل ولنقل القتيل . ومن الصدف أن جاء فون لايزر من مقره في السلط الى مقر فرقتنا ، وحان موعد الغداء فاجتمع على مائدتنا آمر الفرقة وبعض ضباط المقر وفون لايزر والاسير البريطاني وصديقي الطائر الالماني الجريح . وتدرج الحديث الى ذكر الموقف الحربي الحاضر ، فأحببت ان ادلي برأيي ، فقلت ان الانكليز تنقصهم حقا الكفاءة ، ولو كنت مكان الجنرال اللنبي واملك ما يملك من القوى والمعدات ، لقمت بحركة دمرت فيها الجيش التركي بكامله ، وقضيت عليه وانهيت الحرب مع تركية بسرعة . فتعالت اصوات الضحك من كل مكان . وشاء فون لايزر ان أسترسل في حديثي ، فطلب مني توضيح فكرتي . فازداد الحماس بي ، فقلت آتوني بخارطة . ثم شرعت في رسم بعض الخطوط عليها واصفا خطة الهجوم ، معينا اماكن التعرض وكيفية احاطة الوحدات الكبرى وقطع الطرق والاستيلاء على المراكز الهامة فيما وراء الجبهة . ثم بإنزال حملة الى اسكندرونة تحت حماية الاسطول حيث يتعرض فيها الى حلب ويستولي عليها ، وتقطع اتصال جيوش الشمال بجيش العراق . ثم بإثارة سورية الناقمة على الترك من خلفه ، وكنت أدعم اقوالي بارشادات رسمتها على الخارطة التي لا أزال محتفظا بها . فتعالى الضحك من جديد .

ومن غريب الصدف ان يقوم الانكليز بعد ايام (١٩ ايلول ١٩١٨) بهجومهم العظيم الذي قضى به على الجيش التركي بخطة مماثلة كتلك التي رسمتها على الخارطة . واذا استثنينا تصور انزال الجنود في ثغر اسكندرونة ، فان الخطة التي اتبعها اللنبي في هجومه اما ان تكون نسخة ثانية عن الخطة التي رسمتها على الخارطة بين ضحك ولهو او تكون خطتي نسخة طبق الاصل عن خطة اللنبي . تحطمت الجبهة وتراجعت بعض الوحدات التي تمكنت من الافلات . ولاول مرة وصمت بالجاسوسية لمطابقة خطتي الهزلية خطة اللنبي الحربية .

بدأ هجوم الانكليز الذي لم يسبق له مثيل في معارك فلسطين في الساعة الرابعة من صباح ١٩ ايلول ١٩١٨ وكانوا قد حشدوا في منطقة ضيقة ٣٨٥ مدفعا. شرعت هذه الكتلة الفولاذية بقصف شديد استمر خمس عشرة دقيقة ، دمر خلالها خنادق الجيش التركي وجنوده ومدفعيته واسلاكه الشائكة . بينما كانت اسراب طائرات العدو تقصف بدورها مراكز الجيوش ، وتمكنت بواسطته من قطع مواصلاته وارتباط الجيوش ببعضها .

وتدفقت الخيالة الاوسترالية المعدّة لهذا الهجوم ، والتي كانت كامنة على مقربة من الخطوط التركية – من الثغرة التي فتحتها المدفعية الانكليزية ، واغارت منها على مؤخرة الجيوش والمراكز الحساسة لنشر الفوضى وراء الجبهة . ولقد تمكن قسم من الخيالة من الوصول الى الناصرة مقر القيادة العامة . ولم ينج القائد

العام ليمان فون ساندرس الا بأعجوبة تاركا ورائه اوراقه وسجلاته ، ولم ينقذ الموقف الا بعض شراذم المانية كانت تخص المقر وسائقو السيارات الالمان ، حيث استبسل الكل في الصمود وطرد الخيالة الاوسترالية والحيلولة دون استيلائهم على الناصرة . ولم يمض على هذا الهجوم اسبوع حتى كان أسر من الجيش التركي ٣٦٠ مدفعا و٧٥ الف جندي من مجموع مئة الف . وظلت فرقتنا والجيش الرابع يومين بعد هذا الهجوم دون ورود اية تعليمات الينا ، وعلى جهل بما حل في الجبهة .

وتلقت فرقتنا امرا بالانسحاب مساء ٢٢ ايلول نحو الشمال باتجاه درعا بأقصى سرعة ممكنة ، لإشغال درعا ، ولتأمين انسحاب الجيش الرابع ولحماية نقطة مزيريب قبل وصول خيالة الانكليز . ولقد ارفقت القيادة بنا لواء من المشاة الخفيف . وكانت الاوامر التي تلقيناها صارمة وصريحة بوجوب تجنب اية معركة مع العدو اثناء انسحابنا ، وان نسير ليلا ونكمن نهارا كي نتمكن من انجاز مهمتنا الخطرة من جهة ، ولإيهام الانكليز بأننا نجدة آتية من الشمال لا قوة مفرزة من الجبهة . وكان مسيرنا على الضفة الشرقية من الاردن . فكنا نكمن في اليوم التالي على محاذاة بيسان والى جنوبيها قليلا . ولقد راعني ان اشاهد شرذمة تركية يبلغ عدد افرادها السبعين مقاتلا مشتبكة مع كتيبة انكليزية في معركة حامية الوطيس. ولكن الشرذمة التركية تمكنت من التراجع الى الشرق حتى اصبح الاردن وراءها. واذا بحافز من نفسي يحملني على الاعتقاد بأن الشرذمة التركية لا بد وان يكون فيها عدد من رجالات الجيش رأى الانكليز وجوب التضحية بجنوده لاسرهم . فاتصلت حالا بآمر الفرقة طالبا منه التدخل للحيلولة دون أسر الانكليز للشرذمة . فرفض طلبي ، قائلا ان الاوامر جد صريحة بعدم التعرض الى الانكليز واجتناب مقاتلتهم . فقلت له اننا نجابه الآن موقفا شاذا لم يكن في حسبان القيادة . فاستهزأ بفكرتي ، فأصررت ورغبت منه في اشراك امرا الكتائب في الامر ، حتى اذا عرضت رأيي عليهم أثنوا على مقترحي . وكانت المعركة لا تزال في شدتها واضحت الشرذمة التركية داخل هلال يستند راساه على نهر الاردن . ولم يبق امامها موضع للدفاع . وكانت مدفعية الانكليز آنذاك في موضع مكشوف لتيقنها من عدم وجود مدفعية امامها . فلم أر بدا من المداخلة وأخذ المسئولية على عاتقي. ولما شعر آمر الفرقة بعزمي تركني بحجة تفتيش لواء المشاة النازل بالقرب منا .

دعوت آمر المدفعية رضا بك وكان هذا افضل مدفعي في الجبهة التركية بكاملها . وكان من عادته اذا قصد القذف ان يحتسي كأسا من الخمر . وسدد بطاريته على العدو فأصلاه نارا حامية . وما هي الا دقائق حتى تحطمت بطارية العدو . وكنت أعددت سريتين لعبور النهر الى الضفة الغربية لتخليص الشرذمة المحصورة . واخذ قلبي يزداد في خفقانه لهذه المغامرة المجهولة العواقب، وخشيت معها أن أوصم حقا بالجاسوسية .

عبرت الخيالة النهر وعادت بعد حين مستصحبة الشرذمة التركية . واذا بأحد الضباط يسرع اليّ مبشرا بأن الشرذمة تلك تضم هيئة قيادة الجيشين السابع والثامن ، وان أبرز من فيها مصطفى كمال باشا وفون فالكن هوس ونصوحي البخاري وأمراء آخرين من الجيش . ولقد قص احد ضباطنا على مصطفى كمال باشا حديث مغامرتنا وما وقع لي مع آمر الفرقة .

وصل مصطفى كمال باشا وصحبه الينا ، وتقدم هو بدوره شاكرا مقدّرا عملي . ومما قاله لي انك لم تخلص قواد الجيش العثماني فحسب بل انقذت شرف الجيش ، وان عملك هذا يجب ان يكون قدوة لضباطنا كافة . وأصدر على الاثر امرا تنص مادته الاولى على تقدير مغامرتي ، وافتخار الجيش بي لاخذي مسئولية المغامرة على عاتقي في ظروف استثنائية كنا فيها منقطعين عن القيادة. وفي مادته الثانية اسناد قيادة الفرقة اليّ على أن تربط به رأسا . والمادة الثالثة وجوب متابعة سير الفرقة الى درعا .

وبسبب وعورة الاراضي وعدم استطاعتنا استصحاب بطاريتنا في انسحابنا السريع ، عطلناها ، وسرنا باتجاه اربد فدرعا . اما الوحدات التي تمكنت من الافلات اثر هجوم الانكليز الاخير فقد انسحبت شمالا نحو الشام ، فاقدة لمعداتها ووسائط نقلها ومعنوياتها ، وكانت الفوضى وحدها هي التي تسودها وتقودها . وكان فيلق عصمت باشا قد أفلت ممزقا ووصل مزيريب . وظلت الخيالة الانكليزية تطارد فلول الترك ومن ورائها فرق المشاة . بينما طائرات العدو كانت تقوم بقسطها من المطاردة وتشتيت شمل الترك وتحطيم مراكز تموينه ومواصلاته .

***

خلال هذه الحوادث كانت الاخبار ترد الينا عن اعمال الجيش الشريفي ونشاطه في تخريب خطوط المواصلات . كما ان بعض مفارز منه وصلت جوار الارزق شمالا ، بغية الاتصال بجبل الدروز ، اذ ينحدرون بعدها لاحتلال درعا وتخريب السكة الحديدية والطرق المؤدية الى دمشق بحيث يقطعون خط الرجعة على الترك .

وكانت الاخبار لا تفتأ تصف شجاعة الجندي العربي وبسالته ، ذلك الجندي الذي تمكن ضباطه من تدريبه خلال مدة وجيزة ، واثبت في مختلف المعارك التي خاض غمارها مع الاتراك ضد قوات متفوقة عليه بأنه اقدر من الجندي التركي ، سواء في الدفاع او في الهجوم . كما انه أذكى منه . فباستطاعة الجندي العربي الاحاطة والعمل بما يتطلبه الموقف دون احتياجه الى قيادة تقوده ، عكس الجندي التركي . وقد برزت هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها في كل بقعة قاتل فيها العربي

تحت قيادة منظمة أثير فيها شعوره العربي . ولم يعد بخافٍ على قواد الجيوش المتحاربة بأن الجيش العربي الصغير الحديث كان له اعظم الاثر في تحطيم الجبهة التركية . وكان وجوده في صفوف القتال من اهم عوامل النصر الــذي أحرزه الجنرال اللنبي ، اذ استطاع إشغال ما يزيد عن الستين الفا من جنود الترك وعزلهم عن مشاركة اخوانهم في جبهة فلسطين . ومزايا الجندي العربي التي انكشفت في هذه الحرب الطاحنة لم تستثمر لمصلحة الامة العربية . واذا شئنا ان نتساءل عمن استثمر هذه الدماء ؟ وفي سبيل اي مصلحة أهرقت ؟ لم نجد جوابا الا انها أهرقت في سبيل انكلترا وحدها التي عرفت كيف تستثمرها . ولو ان الترك أحسنوا سياسة العربي واستمالوه الى طرفهم بإعطائه حقوقه المشروعة ، لأذاق الانكليز في هذه الارض المقدسة (فلسطين) من بأسه الامرّين ، ولكان الدافع الذي حدا بالعربي الى الاستبسال ضد الانكليز خلاف الدافع الذي حثه لقتال الترك مطالبا اياهم بحقه .

وان من حسن حظ الانكليز ان يكون الجندي العربــي بجانبهم في الحرب العامة بقدر ما كان من سوء حظ العربي نفسه . اذ ان الانكليز استثمروا وفاءه فاغتصبوا فيما بعد أوطانه . ولقد اتخذوا التدابير منذ بداية الثورة العربية لجعل العرب عند انتهاء الحرب في حالة ضعيفة ، لا يستطيعون معها معاكسة تنفيذ منهاجهم الاستعماري في الجزيرة ولا يكون لدى العرب من الاسلحة والعتاد ما يسمح لهم بمسّ الغنائم والاسلاب من الاقطار العربية ، الا سلاح اللسان الذي لم يكن ليطعم صاحبه يوما كسرة من الخبز . ولو ان زعماء الثورة العربية احتاطوا للامر منذ البداية ، وحسبوا لخيانة انكلترة لهم حسابا ، لتمكنت الثورة العربية من انقاذ البلاد العربية بأسرها ، ولتمكنت ايضا من مجابهة الانكليز بالسلاح اذا اقتضى الحال حين اقتسام الغنائم ، مما يضطر معه الانكليز الى الرضوخ خشية وقوع حرب ثانية ، فيذعنون عندها لمطالب العرب ، ويوفون بعهودهم المقطوعة كما حدث للثورة الكمالية في الاناضول .

***

تابعنا مسيرنا حتى وصلنا درعا ليلا واذا بنا نسمع دبيبا كدبيب حوافــر الخيل على مقربة منا . فتفرقت خيالتنا ظانة انه قد احيط بها ، وانها اصبحت في قبضة خيالة الجيش العربي الذي شاع خبر وجوده على مقربة من درعا . تمكنّا بعد جهد من اعادة النظام الى صفوفنا . واتجهت صوب الاصوات المرتفعة فاذا بي أجدني على مقربة من محطة درعا ، والقطارات تقوم بمناوراتها ، ووحدات الالمان التي كانت في السلط ، وانسحبت على اثر انكسار الجبهة تحتل اركان المحطة . تقدمت صوب الجنود الالمان للتعرف الى أحوالهم ، فاذا بهم فجأة يحيطون بي وينادون هذا جاسوس انكليزي. وعبثا حاولت اقناعهم بأنني ضابط

تركي . وكنت كلما ذكرت لهم اسما من اسماء قوادهم ، او طلبت منهم اخذي اليه للتعرف اليّ ازدادت شكوكهم بي . وكنت في كل لحظة معرضا لطلقة من احدهم تودي بي . ومر بخاطري وجوب اللجوء الى الحيلة للنجاة من هذا المأزق . اخذت امهلهم في اطلاعهم على حقيقة امري . واقص بعض الحوادث وانا أتحرى في ذات الوقت ثغرة في ظلمة الليل اثب منها الى احد القطارات التي أمامي . وسنحت لي الفرصة فوثبت الى احدى المركبات ثم نزلت من بابها المقابل وصعدت الى أخرى بجانبها ، حيث اخفيت نفسي . فأخذت جموع الالمان تصيح وتركض يمنة ويسرة وهم يفتشون في القطارات . ولم يسعهم بعد اختفائي الا الانفضاض كلّ الــى سبيله . حتى اذا ابتعدوا عني ، خرجت من مكمني أتحرى جوادي الذي لم اجد له اثرا واتجهت صوب فرقتي .

وكان مصطفى كمال قد لحق عصمت باشا في مزيريب ، وأرسل اليّ امرا بوجوب متابعة السير الى الكسوة حيث ننتظر أوامره الجديدة . وسرنا ونحــن منهوكو القوى ، وأخذ عدد أفراد الفرقة يتناقص شيئا فشيئا ، حتى أضحــى مجموعها لا يعادل مجموع كتيبة واحدة . وكانت الخيالة الاسترالية تتقدم مــن ورائنا بسرعة .

وصلنا الى جوار قرية (طفس) من قرى حوران الساعة الحادية عشرة قبل الظهر ، فألفينا بعض نساء القرية يحملن ماء على رؤوسهن ، فتقدمنا نحوهن لارواء عطشنا وارسلنا الخيل الى الآبار في القرية لسقيها ولم نلبث ان سمعنـــا طلقات وفاجأتنا رشاشات من القرية ، ثبت لنا معها ان فيها قوة نظامية من العدو . ولم يكن لدينا متسع من الوقت لتحري مراكز العدو ، فأمرت انزال ما نحمل مــن رشاشات وكانت تحت امرة المرحوم امين مطر الطرابلسي الذي استشهد فيما بعد في حروب الطائف ضد الوهابيين ، وقذف القرية. وارسلت على الاثر سريتين صغيرتين مجهزتين بالبنادق والقنابــل اليدوية صوب القرية وجهزنـــا سريتين اخريين للاحاطة والقضاء على من فيها بالسلاح الابيض . ولم يمض ثلث ساعة حتى كانت جنودنا محتلة القرية تقذف كل من صادفته في طريقها . وشاهدنا على الاثر تلا كبيرا من العدو منهزما الى ما وراء القرية ، فأطلقنا وراءهم سريتين من الخيالة، لحقتا به ، واوقعتا فيه قتلا وجرحا . وانه لمن المؤسف حقا ان يكون مع الرتــل المنهزم كثير من نساء القرية وشيوخها أصيب منهم عدد كبير . واني خوفا مــن لحاق الخيالة الاوسترالية بنا ، جمعت القوة من جديد ، وأسرعنا الخطى نحو الكسوة . ولقد علمنا فيما بعد ان مفرزة من الجيش الشريفي كانت احتلت القرية يصحبها الكبتين الافرنسي بيزاني آمر البطارية الذي لم يتمكن من نصب مدافعه في الوقت المناسب لقذفنا ، فآثر الانسحاب قبل المفرزة الشريفية. وصلنا الكسوة صباح ٣٠ ايلول ١٩١٨ ، فعلمت ان الترك انشأوا خطا للدفاع عن دمشق ، وانه عين رضا باشا الركابي لقيادة هذه الجبهة الجديدة . ووصلني امــر من القيادة

العامة في دمشق بوجوب الاسراع اليها لتلقي التعليمات الخاصة بالدفاع عنها . وكان جمال باشا ومصطفى كمال باشا وبعض القواد الالمان قد اتخذوا من اوتيل فيكتوريا مقرا . اخذت اتجول في البلدة ، التي قطعت سنوات الحرب كل صلة بيني وبينها . وشعرت بحالتها النفسية غير الطبيعية . الناس في قلق والشوارع تعج بالجنود الذين لا يعرف احدهم شيئا عن وحدته ولا عن مصيره . والفوضى سائدة في كل مكان .

وعزمت تمضية للوقت أن اذهب الى الحمام . وفيما انا في الحمام الذي لم يكن ليحتله تلك الساعة سواي ، ثم سمعت دويا تبعته طلقات . فأسرعت الى المرجة وشاهدت أناسا يركضون يمنة ويسرة والاسواق مقفلة يسودها سكون رهيب فاتجهت صوب الفندق فلم اجد احدا من القادة فيه . وكان كل من صادفته من الضباط قد ارتدى ملابسه الملكية ، والكل يلح عليّ بوجوب ابدال ثوبي العسكري لان الخيالة الانكليز قد احتلوا الربوة ، والجيش العربي قد دخل دمشق (١ تشرين الاول ١٩١٨) . وكانت الجنود آنئذ تتجه نحو محطة القدم ، فتحتل القاطرات والشاحنات من الداخل ومن الخارج حتى اصبح منظرها كقشور البطيخ في صحراء حارة يغطيها الذباب . وشاهدت بعد هنيهة رجال الشرطة الترك تسير بانتظام نحو ساحة المرجة ، حيث تجمهر الناس حول عربة يرفرف فوقها علم غريب عنا ، ورجال فيها يخطبون في الجماهير ويعلو الهتاف حينا فحينا . ولقد علمت فيما بعد ان العلم المرتفع كان العلم العربي ، والخطباء رجال من الجيش الشريفي ومن أشراف دمشق يبشرون الناس بتقدم الجيش الشريفي صوب الشام .

وصعب عليّ أن افعل ما فعله الضباط الترك اثر انسحابهم من دمشق من تبديل ثوبي العسكري بملكي ، فاتجهت قبيل الغروب صوب الربوة بغية الالتحاق بفلول الجيش المنسحب . ولم يكن معي وقتئذ سوى آلة تصوير كان ليمان فون ساندرس اهداني اياها فآثرت الاحتفاظ بها . ووصلت مدخل الربوة مع الغروب. وما كدت اخطو بضع خطوات في احد منعطفات الربوة ، حتى لمحت حارسا يسير يمنة ويسرة ، والفيته بعد لحظات مصوبا بندقيته نحو صدري وهو يصيح توركو توركو ، ويردد معها بضع كلمات لم أفقها . وما كان مني الا ان رفعت يدي وانا اتقدم نحوه مرددا كلمات مسلمان توركو وانا ألوّح له بآلة التصوير .

وسرت نحوه متمهلا متظاهرا بالخور ، وانا اتلمس من طرف خفي مخرجا من مأزقي ذاك . وكان نهر بردى يجري عن يساري ، واشجار الحور والادغال تستر ضفتيه . فعزمت على المغامرة وتجربة حظي هذه المرة ، مستعطفا استسلامي في آخر لحظة من لحظات حرب دامت سنين اربعا ، خرجت من كل مغامراتي فيها سالما موفقا . تقدمت نحو الحارس شيئا فشيئا ، وما كدت اصل اليـه والقاه مطمئنا الى استسلامي ، حتى قفزت الى الماء ، مستترا بعد بالادغال ، حيث

خرجت بعد هنيهة الى الضفة الاخرى متنقلا بين ادغالها الكثيفة . وكان الليل قد اشتدت حلكته وقتئذ ، فلم يتمكن الحارس من رؤيتي او اللحاق بي ، لكنه شرع في قذفي بنيران بندقيته دون جدوى . وفيما انا في تنقلي وتستري ، اذا بي فجأة ارى بضعة من خيل العدو مربوطة تأكل علفها ، فأصغيت باحتراس لأتعرف مكان فرسانها ، حتى اذا اطمأننت لبعدهم عني عزمت علـى سرقة احدها . وامتطيت جوادا كان معلقا الىسرجه سيف وقراب بندقية. واتجهت صوبالطريق العام ، وانطلقت غربا. وبعد قليل اعترضت نقطة انكليزية سبيلي ، وكانت رابضة على رابية مسيطرة على الطريق . فأطلقوا نيرانهم عليّ ، وما كان مني الا ان قفزت عن صهوة الجواد ، ولفتّ ثمة راس الجواد شرقا ، ورفسته برجلي ، فأسرع في هربه . وأخذت نيران العدو تنصب على اصوات خطوات الجواد الهارب . وتسللت حالا في الوديان المحاذية للطريق العام . وخرجت بعد حين من النطاق ، حيث ظللت سائرا في ظلمة الليل حتى انبثاق الفجر . فألفيت نفسي على مقربة من قرية (مجدل عين جر) ورأيت بعد حين جموعا متكاثفة من فلول الجيش التركي ، قد اوقفها احد الضباط الالمان في مضيق مجدل عنجر يبغي من وراء ذلك منعها عن متابعة المسير اذ سدد الالمان بطارياتهم صوب العدو لصده عن التقدم نحو هـذا المضيق . ولم يسعني عند رؤيتي هذه الجموع ، وشعوري بالخطر المحدق بهم الا ان اتقدم نحو الضابط الالماني فأحدثه بما رأيته وقرب لحاق خيالة العدو بنا . والححت عليه بوجوب فتح الطريق لهؤلاء مخافة ان يحل بهم سوء ، فيكونـوا ضحية محاولتهم غير المجدية . وأبى الضابط الرضوخ الى رغبتي ، قائلا بأنه ينفذ امرا قد تلقاه . وما كدت أخرج من المضيق حتى شاهدت سبع عشرة طائرة للعدو تحوم فوق الجموع واخذت على الاثر تمطرها بوابل من قنابلها ، فمزقتهـا شر ممزق . واصبح منظر المضيق من اروع المناظر وآلمها . ووصلت بعض الفلول التي نجت من ويل الطائرات حيث كنت في كرم عنب ، وبدات الطائرات بالقاء نيران رشاشاتها على من سلم من الفلول، وامتلأ الكرم الذي كنت فيه بالجثث والجرحى، كما امتلأ مضيق مجدل عنجر . واضحيت تسمع بعد انسحاب الطائـرات انين الجرحى من كل مكان . اما من بقي حيا فقد تسلل الى رياق .

وبعد مسيري ليلا ونهارا بطولهما وصلت رياق ، فتألمت كثيرا مما شاهدت : مستودعات الجيش التركي التي تحاكي الجبال بعظمتهـا ، اضحت لقمة سائغة لاهالي القرى ، الذين اخذوا في نهبها ، وهم أشبه بجماعات النحل تغدو وتروح حاملة العتاد والاسلحة الى بيوتها . واتخذت لنفسي مقعدا فوق صندوق مـن صناديق الشمبانيا ، وشرعت استعرض حوادث الحرب التي مرت عليّ ، واتخيل احوال الامبراطورية العثمانية وما آلت اليه ، وخيل اليّ كأني جالس على احدى صخرات صرح الامبراطورية العثمانية المتهدم . كما ان العرب الذين تحملوا النكبات وانواع المظالم منذ ستماية سنة حتى الساعة اضحوا يئنـون تحت انقاض هذا البناء المتداعي . فأخذت أسائل نفسي ماذا عسى يكون مصير العـرب ؟ وماذا

عساها بريطانيا العظمى فاعلة بالوعود التي قطعتها لهم ؟ وهل الامة العربية بانقيادها الى بريطانيا تكون قد انتقلت من دور مظلم الى دور أظلم ام على العكس ؟ أمام هذه التصورات والتساؤلات وجدت يدي تمتد الى داخل الصندوق الجالس عليه ، فأخرج منه زجاجة من الشمبانيا المعتقة فأضرب رأسها بأخرى ثم أحتسي ما فيها دفعة واحدة ، طاردا ما علق بنفسي من الاوهام والتصورات . وكان لحق بي تعب شديد وما لبثت ان وجدت نفسي بعد حين أتمتم فأنشد وأغني ، ثم انتصب واقفا وأتابع المسير نحو الشمال ، حيث تنقلت تارة بالقطار وطورا على ظهور الخيل حتى وصلت مدينة حمص .

وكانت فلول الجيش متجمعة فيها ، كما أن مصطفى كمال باشا كان متمركزا في المحطة ، يصدر أوامره مانعا خروج اي كان من النطاق الذي ضربه حول المدينة. قاصدا بذلك اعادة تنظيم فلول الجيش . ولقد جئته وكان التأثر والاضطراب ظاهرين على وجهه وفي حركاته . وبعد حديث قال لي : لقد انتهى الامر وأضحت مقدراتنا بيد اعدائنا ، فعلى كل منا ان يعمل ما يستطيع لانقاذ ما يمكن انقاذه . واني اتمنى للعرب كيانا حرا يعيشون في ظله في دور جديد ، واذا سمعت يوما بحوادث تجري في الاناضول ، ولم يكن لديك واجب تقوم به في بلادك فأت الينا. ولم يستطع مصطفى كمال تحقيق ما رمى اليه من تجميع القوى في حمص وتنظيمها من جديد ، بسبب تقدم الخيالة الانكليز ، وتحليق طائراتهم فوقها . واضطرت الفلول الى الانسحاب شمالا وأخذ كل فرد يتجه نحو بلده . فاستأذنت مصطفى كمال بالسفر الى بلدتي طرابلس الشام فأذن لي .

ووصلت طرابلس في اليوم الذي سقطت فيه مدينة حمص بيد العرب والانكليز ١٦ تشرين الاول ١٩١٨ . وتابع الجيش العربي وخيالة الانكليز مسيرهم حتى وصلوا حلب واحتلوها في ٢٦ تشرين الاول . ثم تابعت مسيرها شمالا نحو طوروس حيث عقدت الهدنة بعد وصولها اليها .

الفصل الثالث

في دمشق ١٩١٨ ــ ١٩٢٠

خرجت البلاد العربية من الحرب العامة وهي لا تملك مرفقا من مرافق الحياة ؛ فلا جيش ولا معهد ولا مصنع او مؤسسة يستند عليها كيان البلاد . وكانت الامة العربية مقطعة الاوصال يرزح بعض اقطارها تحت الحكم الاجنبي ما بين مستعمرة ومتملكة ووصاية وانتداب ، والجهل عام في أنحائها يسيطر على اكثر من نصفها روح البداوة وتقاليدها . فالاتراك الذين استلموا معها مقدرات العرب الذين كان مستواهم الثقافي يفوق مستوى الاتراك بدرجات ، أساؤوا التصرف في سياسة البلاد وإدارة شئونها ، وأمعنوا في ظلم الشعوب العربية وإرهاقهم ، وقتلوا فيهم روح القومية ، وطمسوا على مؤسساتهم ومعاهدهم العلمية شيئا فشيئا ، حتى أسلموا البلاد العربية قطعة قطعة الى الاجانب ، وزجوا البلاد العربية الباقية تحت حكمهم . فعمت الجهالة بلادهم وجردوهم من مادة العلم ، حتى اذا خرج الترك من الحرب العامة لم يبق للعرب بقعة مستقلة سوى الحجاز الذي قاتل الترك ، واليمن التي لم ينقطع سيل الدماء منها زهاء ستة قرون ، ونجد التي صمدت للغزوات المتتالية . اما الترك انفسهم فقد احتفظوا بتراث الامبراطورية العثمانية من معاهد ومؤسسات وجامعات وجيش ومصانع ومعامل وكل ينابيع الدولة ، حيث استطاع مصطفى كمال على هذه الانقاض ان يبني كيان جمهوريته الحديثة .

وصلت بلدتي طرابلس الشام في ١٦ تشرين الاول ١٩١٨ . وكانت الحكومة التركية والجيش قد غادراها . ولم تكن جيوش الحلفاء دخلتها بعد . وقد تشكلت فيها ادارة وطنية لحفظ الامن والكل يتطلع الى مستقبل مجهول . وقضيت فيها

بضعة ايام ، ولم يبق من ذكريات الحرب العامة ومعاركها وويلاتها ومجازفاتها الا صور اخذت في التباعد عن مخيلتي شيئا فشيئا .

ودعيت ذات ليلة الى حفلة سمر وطرب أقامها فريق من شبـــاب البلدة . وبينما كنت مسترسلا في أفكار غريبة ومستسلما الى تخيلات غير اعتيادية عن حالتي المخالفة للحياة الحربية التي تعودتها ، اذا بي اسمع ضوضاء تتبعها اصوات أبواق السيارات فهرعت الى الشرفة لأتبينها ، فاذا برتل من السيارات الانكليزية المصفحة الملأى بالجنود تنساب نحو ميدان التل ، فتتجمع فيه . واعقبتها الخيالة الانكليز ولم يكن قد انقطع سيل الدماء الذي جرى بيننا طيلة سنوات الحـــرب الاربع . ولقد كان لهذا المشهد اعظم وقع في نفسي . شبيبة البلاد تطرب وتلهو والعدو بجيوشه ومعداته في بلدي ، فما يكون المصير يا ترى ؟ ومنذا الذي يستطيع حماية بلادي من طمع هؤلاء الفاتحين ؟

احتلت جيوش بريطانيا البلاد بأسرها ، وتقلص ظل الراية العثمانية ، تلك الراية التي خفقت على البلاد طيلة قرون امتزجت العناصر الاسلامية فيها ، فـي وقت من الاوقات ، امتزاجا تاما أضحت معه كأنها شعب واحد . غير ان الاهواء والدسائس والنزعات ما عتمت ان لعبت دورها الرهيب ، فاذا بهذا الكيان العثماني الاسلامي شعوب متنافرة متباغضة متعادية . وفعلت الحرب فعلها فيهم ، وأقام يوم الهدنة بينهم سدا حجز ما بين شعب وشعب تمهيدا لافتراسهـــا شعبا بعد شعب .

ولم يكن في الجزيرة من أقصاها الى أقصاها اية قوة تتجه آمالنا اليها ، سوى قوة الجيش العربي الفتي المرتبط حينذاك بقيادة الجنرال اللنبي . وكان هـــذا الجيش وموقفه من البلاد اضعف من ان يتحمل عبء آمال العرب فيه . ولكن لا حياة بلا أمل . فاتجهت آمالنا بعد وقوع الكارثة الى الحسين وبنيه . واصبح لزاما على كل عربي ان يضحي بكل ما لديه لمساندة هذه القوة العربية وتغذيتها .

***

واصل الجيش البريطاني سيره شمالا فاحتل مدينة حلب في ٢٦ تشرين الاول ١٩١٨ واتجه على الاثر الامير فيصل اليها على رأس قوة ، ثم عاد منها بعد ايام الى مدينة طرابلس في طريقه الى دمشق . وكان في استقباله عند وصوله طرابلس سرية من الجند الانكليزي . وحلّ ضيفا على سماحة مفتي طرابلس السيد عبـد الحميد كرامي. وتوافد أعيان البلدة للسلام عليه . ولم اكن بين الوافدين. وجاءني رسول من لدن الامير بعد ساعات يطلب مني مواجهته فذهبت اليه بصحبة صديقين، وكنا نحن الثلاثة ممن آثروا البقاء على الولاء للجيش التركي حتى نهاية الحرب .

دخلنا حيث يجلس الامير فيصل . فحييناه بالتحية العسكرية فردها بأحسن

منها . وابتدأ حديثه معنا بقوله : انني لا انتقد ولا أعتب على احد ممن آثر البقاء في الجانب التركي ، واجتهادكم هو الذي ساقكم لان تدافعوا جنبا الى جنب مع الترك بأمانة واخلاص ، وهذا من حقكم . اما الآن وقد اودعت مقدرات البلاد التي انتم ابناؤها الى أيدينا ، فاني أدعوكم الى خدمتها . وكان لكلماته وقع حسن في نفوسنا ، ولم يسعنا الا تقبّل دعوته ايانا للخدمة تحت لوائه بفرح وامتنان .

وكتب على الاثر كتابا طلب مني ان اقدمه الى رئيس مجلس الشورى الحربي وقتئذ المرحوم ياسين باشا الهاشمي في دمشق . توجهت الى دمشق حيث قابلت الهاشمي وقد عينني في الشعبة الثالثة من ديوان الشورى الحربي .

***

لاول مرة ، بعد انقضاء قرون رزحت الشام فيها تحت ظلم الترك واعتسافهم، اخذت تنمو وتزهر يظللها علم الدولة العربية المستقلة . ولم يكن ليكدر صفو المتطلع الى الحرية والاستقلال ، سوى رؤية البريطانيين يتنقلون في البلاد من منطقة الى اخرى احرارا . واخذت اقتصاديات البلاد تنتعش شيئا فشيئا بعد ان تكبدت الضيق والجوع خلال الحرب العامة .

وتكوّن الجيش السوري الحديث وانخرط فيه مختلف ضباط العرب ، ممن قاتلوا بالامس في صفوف عادى بعضها بعضا .

كان الضابط الذي قضى ايام الحرب مع الجيش التركي يعتقد انه قـــام بواجب الدفاع عن الامبراطورية العثمانية التي كانت بلاده متعلقة بها ، كما كان يعتقد ان الرتب التي نالها قانونية . بينما الفريق الآخر يرى نفسه كضابط عربي ثار لتخليص بلاده العربية من يد الترك ، وان كل من ظل من ضباط العرب فـي صفوف الترك لا يمت للعروبة بصلة ، كما ان ما ناله من الاوسمة والرتب والاموال حق صريح له خلافا لمعتقد الفريق الاول من انها غير مشروعة .

وتطورت حالة الجيش النفسية الى شكل خطر ممـــا حمل قيادة الجيش العربي على تصفية الرتب . واغتاظ الضباط الذين اعتبروا انفسهـــم فاتحين . وابتدأ النفور بين فئتي ضباط الجيش الـذي تصدع بناؤه قبل ان يتم . كـان الضابط العربي الذي ظل حتى الانقلاب مع الترك ، يعتبر الثورة العربية انما قامت بذهب الانكليز وبأسلحة الانكليز وبإرشادات الانكليز وبقيادة الانكليز ، وان نتيجتها مع ما قدم العرب فيها من ضحايا لن تكون الا في صالح الانكليز انفسهم .

واخذت شقة الخلاف تتسع بين الضباط ، كما اتسعت تشكيـلات الجيش

السوري الجديد . وتمكن الجيش مع ذلك من البروز في الميدان في مدة وجيزة.
ولقد صرفت جهود جبارة في تحويل المصطلحات والايعازات وجميع ما يتعلق بالفنون العسكرية والتدريب الى اللغة العربية بصورة تثير الاعجاب من جهة والتقدير للقائمين بهذا التنظيم من جهة ثانية . وأضحت الكتب الفنية العسكرية الموضوعة في دمشق اساسا ومرجعا للجيوش العربية التي تم تأليفها فيما بعد في العراق والتي في طريق التأليف في مصر والحجاز واليمن .

وتطور الشعب السوري فجاة للآراء السياسية المتضاربة التي بثّتها احزابه المختلفة فيه ، فأصبح المرء لا يدري اي فريق يتبع او اي طريق يسلك ، واضحى التحدث بالسياسة والتبجح بالوطنية حديث الخاص والعام من الناس ، سواء في المقاهي او في النوادي والبيوت ، وطفت موجة السياسة على كل فرد من افراد الامة وطبقاتها حتى قبائل البادية . واخذ الشعب في انتقاد الزعماء والرجال العاملين . وعانت البلاد من جراء هذه الآراء السياسية المتباينة الامرّين . لقد اهمل الرجال المسئولون تشكيلات الشعب وتنظيمه ، وهو الينبوع الذي يمد الجيش بقوته في ساعات الخطر ، اهمالا تاما .

***

حرص الانكليز اثناء غارتهم على سورية ان يجعلوا الجيش الشريفي يقاتل في جناحهم الايمن لغاية في انفسهم . حتى اذا سقطت دمشق وتأسست الدولة العربية في الشام ، بعث الامير فيصل القائد شكري باشا الايوبي الى بيروت ممثلا للحكومة العربية . غير ان سكان الساحل فوجئوا قبل ان يتم فرحهم برؤيتهم العلَم العربي ، بنزول الجيوش الفرنسية ، وإنزال العلم العربي عن سراي بيروت. واذا بالحكومة العربية محصورة في المدن الاربع الداخلية منقطعة عن الساحل .

وانكشفت نوايا الانكليز والفرنسيين عن اتفاقية سايكس بيكو وعن وعد بلفور. ولم تجدِ احتجاجات الامير فيصل وجهوده ، ولا صرخات الشعب السوري . وشعر الامير بالمشكلات وبالصعوبات التي تجابهه بها القيادة العامة الانكليزية ، التي ترمي الى تحقيق رغبة الفرنسيين في البلاد . واتضح له بانه من المتعذر جدا حمل الانكليز على البرّ بوعدهم الذي قطعوه لوالده الا بالاتصال في لندن وباريس حيث تعقد المؤتمرات التي من واجبها تقرير مصير الامم المغلوبة على امرها في الحرب العامة ، وتقرير حق الامم الغالبة من الاسلاب . غير ان الامير فيصل منذ اللحظة الاولى التي وطئت فيها قدماه ارض باريس ، شعر بأن فرنسة غير مرتاحة لقدومه، واخذت تعمل بشتى الوسائل للحيلولة بينه وبين مؤتمر الصلح . وهي ترمي من طرف خفي الى إعلامه بأن فرنسة وحدها هي التي تملك مقدرات سورية ،

التي تم الاتفاق عليها مع بريطانيا ، وان عليه اذا اراد المحافظة على مكانته في سورية ان يتفاهم مع فرنسة اولا .

وكانت مقترحات كهذه جد ثقيلة على الامير فيصل ، الذي يحمل آمال العرب وأحلامهم . الذين كان لهم قسط وافر من النصر المكتسب ، عدا عما يستند عليه فيصل من العهود والمواثيق المقطوعة لأبيه من قبل بريطانيا . وكان لزاما عليه ان يجعل لندن قبلته السياسية ، فلم يجد من الانكليز سوى المراوغة ووعود كاذبة جديدة ونصح بوجوب التفاهم مع فرنسة .

وقفل الامير فيصل راجعا الى سورية حيث حصر اهتمامه بتقوية الجيش . وما كاد غورو الذي أمّ بيروت مندوبا ساميا يشعر بنوايا فيصل ، حتى اخذ يعدّ العدة لخنق نهضة العرب في مهدها . واخذت قوات الافرنسيين في التزايد وحشرت في الثغور ، ولم يكن هذا الاستعداد من قبل الافرنسيين ليثير اهتمام رجالنا بادىء الامر . وكان للافرنسيين رجال يبثون الدعاية داخل المنطقة العربية ويؤسسون صلات مع الشعب وفي القبائل . فكانوا يسعون بالاموال لاستمالة البعض ولتفريق الكلمة . ولكن اعمالهم هذه لم تكن خافية على احد . ورمى الافرنسيون الى احتلال البقاع بحجج تذرعوا بها ، حيث يتمكنون بذلك من التقرب الى دمشق والسيطرة من ثم على الداخل .

***

كان يجري هذا وتشكيلاتنا التي يعتمد عليها في الدفاع لم تتم بعد . وقررت الحكومة السورية اثر استفحال امر الافرنسيين الخدمة العسكرية الاجبارية . غير ان الفوضى ، ويا للاسف ، كانت مرافقة لهذا المشروع الحيوي : كما ان الموجات السياسية كانت تتوالى على ضباط الجيش من مختلف ينابيع الاحزاب السياسية، حتى بت تشعر بالتفكك في هيكل الجيش الذي لم يكن تكامل بنموه بعد .

وفوجئنا صباح ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ باعتقال الانكليز للهاشمي بحيلة دنيئة؛ اذ دعاه الجنرال الانكليزي لتناول الشاي عنده ، حيث اعتقله الانكليز وبعثوا به الى مدينة الرملة . وكان لهذه الحادثة تأثير كبير في النفوس ، خاصة في نفوس ضباط الجيش ، اذ كانوا يعتبرون تدبير الانكليز ذاك اهانة موجهة الى الجيش بالدرجة الاولى ثم للحكومة فللبلاد ، ولم يقم بعمل سوى تقديم الاحتجاجات واقامة المظاهرات التي بدانا نألفها والتي سئمناها فيما بعد . أما اسباب اعتقال الهاشمي فقد شاعت عنه اشاعات اقربها الى الحقيقة كونه امدّ الثورة العراقية بالاموال والاسلحة ، مما أدى الى حنق الانكليز عليه ، فاعتقلوه .

***

كان الامير فيصل كلما ذهب الى باريس او عاد منها ازداد الهياج السياسي، وعم الطبقات . ولم تكن لتخفّ وطأته حتى بعد تتويج الملك فيصل على سورية ٨ آذار ١٩٢٠ . وكانت حوادث البوكمال والاستيلاء على دير الزور وتنظيم ثورة العراق وإمدادها بالاسلحة والاموال ، ونشاط الاعمال المسلحة في السواحل لاشغال الافرنسيين ، وتنظيم الجيش العربي ونموه ، كل ذلك جعل الفرنسيين والانكليز ينظرون الى هذه الدولة الفتية بعين القلق والارتياب ، وانهم اذا لم يقضوا عليها وهي بعد في بدء تكوينها قضت فيما بعد على نفوذها في الجزيرة ، وتم لها ما تريد من وحدة العرب الشاملة في اقرب وقت .

طلبت من القيادة العامة تعييني في احدى الوحدات. وكنت على يقين من نشوب حرب مع الافرنسيين تتوقف مقدرات سوريا عليها . وعيَّنتني القيادة آمرا في السرية الاولى من لواء الخيالة الهاشمي . وتفرغت الى تدريب السرية ، ولم تلبث ان برزت .

وكان الافرنسيون حشدوا قواهم في مدينة زحلة . واذا بخبر يقول بأن ضابط الاستخبارات الفرنسي دخل مدينة المعلقة العربية فأخرج المسجونين من سرايا الحكومة ، وجرد الدرك من اسلحتهم ، دون ان يتمكن احد من صد الفرنسيين . وانتدبني المرحوم يوسف العظمة على اثر الحادثة للتوجه الى المعلقة، معلقا آماله عليّ في تسكين الاضطراب الذي استفحل امره فيها . توجهت الى المعلقة بصحبة سريتي بصفتها سرية درك لانه كان من المتفق عليه ان لا يكون في هذه المنطقة اية قوة نظامية . وما كدت استلم مركزي حتى قمت بتدابير خاصة تحول دون دخول اي افرنسي مهما عظمت رتبته الى المنطقة العربية دون استئذاني.

وشاء ضابط الاستخبارات الفرنسي الكابتن (هاك) يوما ان يدخل المنطقة العربية كعادته ، فدهش حين باغته الجندي العربي طالبا منه الانتظار حتى يستأذن له ، حتى اذا اذنت له جاءني يحيط به جنودنا ، وهددني برفع شكواه الى وزارة حربيتنا رأسا . وكان لعملي ذاك اعظم وقع في نفوس اهل المعلقة وضواحيها.

وسطا، اثناء وجودي في المعلقة، اهالي احدى القرى المعتزة بنصرة الافرنسيين على قرية مسيحية واقعة ضمن حدودنا فلحق بهم رجال مخافرنا ، ولكنهم لم يتمكنوا من تعقيب المعتدين لدخولهم حدود المنطقة الفرنسية غير انه لم يكن ما يمنعني من تأديب اهالي تلك القرية وايقافهم عند حدودها . ارسلت فصيلا الى المخفر وأمرته بأن يلحق السرقة الى قريتهم وانطلقت بصحبة فصيلين من المعلقة رأسا على طريق اخرى الى قرية الفرزل ، دون استشارة القائمقام ، فوصلتها . وبعد مصادمة لم تدم سوى بضع دقائق ، انهزم اهل قرية الفرزل ، تاركين جرحاهم وقتلاهم في الميدان ملتجئين الى الجبال . وساقت رجالي قطعان الغنم

التي صادفناها ، وكانت تخص القريتين الناهبة والمنهوبة . فكان لعملنا هذا اثره، كما كان درسا بليغا كاد يؤدي الى مشكلة سياسية ، ولم يقع بعد هذا اي حادث من نوعه واستتب الامن في المنطقة بكاملها . وقمت بأعمال تأديبية اخرى ، اضحت السكينة مخيمة على اثرها على ربوع بعلبك مدة طويلة .

وتلقيت يوما برقية من القيادة تعلمني بعزم جماعة من دروز الجبل على التوجه الى بيروت للتطوع في الجيش الفرنسي ، وان طريقهم سوف يكون عن طريق حاصبيا وراشيا الى جبل لبنان . وأسرعت بسرية خيّالتنا نحو جسر مشغرة ليلا، وانجزت ترتيباتي ، وقسمت رجالي حيث كمن كل فريق على مقربة من الجسر ، بعد ان اخفوا خيلهم عن الانظار . ونصبت ما نحمله من الرشاشات في اماكن صالحة انتخبتها . وما كاد يلوح الفجر حتى وصل سمعنا وقع حوافر خيلهم . حتى اذا توسطوا الجسر برزت من مكمني ، وانتهرتهم طالبا الوقوف ووجوب تقدم رئيسهم نحوي . ولما شعروا بأننا من الجيش العربي ، بادرونا باطلاق النار ، فلم يسعني الا مقابلتهم بالمثل فوقع منهم ما يقارب الثمانية عشر ما بين قتيل وجريح وارتد الباقون ، وكان لهذا الحادث أثره المحمود كذلك في تأمين الامن ، وبسط نفوذ الحكومة العربية في الارجاء .

***

كان الافرنسيون في موقف حرج في الساحل ، لسوء ادارتهم ، وقسوتهم في معاملة الاهلين ، الذين لجأوا الى السلاح دفاعا عن انفسهم واعراضهم واموالهم . فكانت أرتال الجيش الافرنسي تقاتل من اقصى حدود سورية الجنوبية الى اقصاها الشمالية . ففي الحولة والشوف وتل كلخ وجبال العلويين ، وفي انطاكيا ثورات مشتعلة وحملات مسيرة ، ومع كل هذا فقد كان الافرنسيون مخذولين امام الثوار على طول الخط ، كما ان كثيرا من اسلحتهم وأسراهم وقعت في ايدي الثوار . وكانت أرتال المهاجرين من نساء المناطق وشيوخها واطفالها تسير نحو دمشق ملتجئة لتأمن شر الفظائع التي يسمعون بها فكانت مظاهر هذه الجماعات تثير الحقد والبغض للافرنسيين .

ولو ان الجيش ، والامة من ورائه تعززه ، أعد عدته ، لتمكنت سورية من حل قضيتها وصيانة حقوقها ، ولما بقي شيء يقال له لبنان الكبير ولا الصغير ، ولما تشتت اهالي البلاد، وسلبوا ، ولما جرى ما جرى فيما بعد، خصوصا والفرصة كانت سانحة لتأمين اهداف الامة عند قيام مصطفى كمال قومته باشتباكه مع الافرنسيين ، حيث مناهم بهزائم خاسرة في جميع ميادين القتال ، في كيليكيا . واضطروا معها الى ارسال نجدات عظيمة لتعزيز قواهم في كيليكيا فضعفت عندها قواتهم الموجودة في سورية .

وعم الحماس سورية خاصة دمشق . غير ان الحماس ذاك لم يستثمر ، وظل محصورا ضمن نطاق من الخطب والتظاهرات . والذي يؤسف له انه عندما استفحل امر ثورة الترك في الاناضول ، شمل البلاد السورية نوع من الخمول عوضا عن انتهازها فرصة انشغال الفرنسيين مع الترك .

***

وأعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية في ٨ آذار ١٩٢٠ بملكية الامير فيصل بن الحسين ، ونشرت الاعلام السورية في آفاق سورية ، وعم الابتهاج الجميع . كما ان الروح العربية اخذت تنمو في النفوس لدرجة ان رجال الجيش اخذوا يتطلعون الى حرب يخوضونها مع الافرنسيين دفاعا عن البلاد .

وكانت الحركات العسكرية اذ ذاك لا تزال قائمة في كيليكيا . والفرنسيون يواصلون ارسال نجداتهم اليها . وكنا معشر الضباط تثيرنا اعمال ضباط الترك، فكنا نتمنى لو أتيح لنا عمل" كعملهم . ولقد أدرك الفرنسيون عجزهم عن الايقاع بالترك فعمدوا الى المهادنة والتفاهم ، وأخذوا ثمة في سحب قواهم وحشدها في سورية ليتفرغوا الى حل القضية السورية حيث يعوضون بها عن كيليكيا التي فقدوها .

ونشط غورو الذي كان ملما بدقائق أحوال سورية الداخلية في اعداد جيشه. وكانت دمشق اذ ذاك منصرفة الى عقد قرض داخلي وتنقيح قانون التجنيد الاجباري استعدادا للطوارىء ، بالرغم من ان جل" اعتماد سورية وقتئذ متوقف على مقررات مؤتمر الحلفاء . وأخذت فكرة التقرب من الافرنسيين والتفاهم معهم في هذه الظروف التاريخية الدقيقة تسود رجال الحكم ، وكبار قواد الجيش ، الذين خالوا ان الجيش ليس في استطاعته الدفاع اكثر من بضع ساعات ، وعلى رأسهم المرحوم الهاشمي .

اما المرحوم يوسف العظمة وسائر ضباط الجيش فكانوا يرون عكس ما يراه أولئك . اذ كانوا يعتقدون ان الدفاع ممكن ، وهم المتعطشون الى مناجزة الفرنسيين . ولم تزد هذه الرغبة الاعداء الا طغيانا وغرورا لاعتقادهم بضعفنا . وكان من المعقول اما ان تتبع الحكومة سياسة التفاهم منذ البدء ، وتعمل في سبيلها ، او تعمد الى الاستعداد اذا رأت في سياسة التفاهم ضياع آمالها .

وتم لغورو التغلب على المناطق الثائرة ، حيث تفرغ بعدها للهجوم على دمشق. وفاجأ صباح ١٤ تموز ١٩٢٠ الحكومة السورية بانذاره المهين ، الذي يفرض فيه قبول الانتداب وتسريح الجيش واستلام السكك الحديدية واحتلال حلب وقبول

البنك السوري وتسليم المجرمين السياسيين . فذهلت البلاد عند هذه المفاجأة . وأخذت الحكومة تمطر العالم الاوروبي باحتجاجاتها ، وتستغيث بحليفتها بريطانيا.

وبدأ رجالات سورية بعقد الجلسات والمؤتمرات وإقامة التظاهرات ، والناس تتقاذفهم الافكار والآراء المتناقضة المتباينة . وانتشرت الفوضى بصورة مخيفة ، واضطرت الحكومة معها الى قبول انذار غورو . ولما آنس غورو ضعفا في حكومة سورية وجد الفرصة سانحة للمطالبة بشروط أشد من الاولى ، بعد أن قبلت بإنذاره الاول ، وأضحى فيصل والحكومة السورية عرضة لشغب الشعب ، فأسقط ذلك من منزلتهما واعتبارهما ، وأفقدهما ما كانا يتمتعان به من ثقة وسلطان .

وكان من أهم العوامل التي حدت ببريطانيا الى تقديم النصح لفيصل لقبول انذار غورو ، رغبتها في التخلص من الحكومة العربية الفتية في سوريا ، والقضاء على نفوذ دمشق التي أضحت معقلا لاحرار رجالات العرب، خاصة رجالات العراق، الذين أمدوا الثورة القائمة آنئذ في العراق بالاموال والرجال والاسلحة ، وأسندوها بنفوذهم السياسي والادبي ، وعجز الانكليز عن اخمادها مع كثرة ما حشدوا من قواهم وفقدوا عددا عظيما من القتلى والجرحى يزيد عن العشرة آلاف جندي ، كما فقدوا كثيرا من معداتهم التي استولى عليها الثوار ، كما أسروا كثيرا من ضباطهم وجنودهم .

ودعيت على اثر انذار غورو مع سريتي للالتحاق بالكتيبة في دمشق ، وسرت ثمة كلمة الحرب على الافواه ، وكان الجيش العربي وقتئذ في حالة يستطيع معها الدفاع والمقاومة ، لما يملكه من معدات لا بأس بها ، وحماس يملك مشاعر الشعب الراغب في الدفاع عن الاستقلال . وكان الجيش السوري قد اقام خطا للدفاع بجوار مجدل عنجر ، غير ان السياسة من جهة والدسائس من جهة اخرى لعبت أدوارها حتى بتنا لا ندري أنحن قادمون على الدفاع ام على الاستسلام . اذ ما كاد الجيش السوري يتم استعداده وتحصين خطوطه حتى فوجيء بأمر التسريح .

وسرحت الجنود من خنادقها ، كما سرحت الجنود الاحتياطية التي كانت جمعت في الثكنات والتي شرع في تدريبها . وشرع الجيش الفرنسي في تعقيب الجيش السوري خطوة خطوة ولكن الى اين ؟ الى دمشق التي أضحت الفوضى المسلحة فيها عامة . وأخذ الرصاص يدوي في أرجائها فأزهقت الانفس وأتلفت الاموال ، وتهدمت أركان الاستقلال الذي كان كحلم لذيذ مفجع .

ومن أغرب سخريات القدر ان نتلقى بعد ساعات من الامر الاول امرا جديدا بوجوب التجمع والعودة الى الدفاع بعد ان تم تسريح الجند . وأضحينا في حالة سيئة ، خير ما يتمناها لنا العدو . وأرسل الهاشمي ، الذي كان يشغل بعد عودته

من منفاه وظيفة محافظة دمشق ، يطلبني اليه . حتى اذا جئته اخبرني بأن جلالة الملك فيصل يرغب في مواجهته في قصره عند الجسر . فتوجهت اليه ، والفيته شاحب الوجه مضطربا . فتقدمت اليه فصافحني قائلا : ان الامر خطير واني منتدبك الى قيادة جموع من بدو نوري الشعلان ، واكثرها من الفرسان، وسلاحها جيد . فقم بما اتصفت به من المرونة والحنكة مقام المرشد القائد ، وخذ سريتك معك ، وسرية اخرى من الرشاشات وانطلق حيث شئت وراء الجيش الافرنسي . وان في مقدرتك أن تسطر صفحة خالدة من المجد في دفاعك عن بلادك . وان النوري قد تلقى التعليمات وهو منتظرك في داره ، فانصرف على بركات الله .

هرعت الى دار النوري تملأ نفسي الاحلام الذهبية، فألفيته جالسا بين رجاله تسيطر حركة غير اعتيادية على داره . فاجتمعت اليه وتفاهمنا على الخطة التي يجب اتباعها ، وتواعدنا على موافاتي مع رجاله الى التكنة الحميدية في البرامكة . ثم أعددت سريتي وسرية الرشاشات وجهزتهما بكل ما يلزم ، ثم خرجت بهما الى ساحة الثكنة بانتظار النوري ورجاله . واخذنا نسمع في الموعد المضروب اهازيج بدوية . ثم رأيت الشيخ نواف نجل النوري على رأس كوكبة من فرسانه الذين كان يقرب عددهم من العشرين فارسا . فسألته عن بقية الجموع المتفق عليها ، فأجابني بأنها سارت في طرق مختلفة حيث تجتمع بنا في قرية (صبورة) الواقعة في صحراء الديماس . ووصلنا القرية المذكورة ليلا . وعبثا حاولت معرفة مكان الجموع وعددها وظللنا ننتظرها بدون جدوى . وطلعت علينا شمس ٢٣ تموز وارتفعت معها اسراب الطائرات الفرنسية ، واخذنا ثمة نسمع اصوات البنادق والمدافع فاستولى علينا قلق عظيم . وتقدمت من نواف مرة اخرى طالبا منه ارسال رجاله الينا ، او الذهاب حيث ينزلون ، وإلا فاتنا الوقت . فكان نواف يماطلني ، وهو يعدني بقرب وصول رجاله اليه .

عينت مراكز لسريتي ، فتحصنت بها متخذة الترتيبات اللازمة لاتقاء طائرات العدو . وارسلت قسما من الخيل لورود الماء وقد تمكنت الطائرات من سوء الحظ من كشفها فانحدرت تستطلع اخبارنا . وكانت المراكز التي احتللناها عبارة عن مستطيل ساندت رؤوسه ومنتصف أضلاعه بالرشاشات وأمرت المكلفين بقذف الطائرات عندما تتوسط المستطيل . وقد نجحنا في هذه التعبئة اذ ما كادت طائرات العدو تحوم حولنا ، حتى قذفناها ، فأصيبت اثنتان منها . ولقد سقطت احداهما قريبا منا . غير اني لم أمهل الطيار فانطلقت بفصيل من رجالنا ، حيث سددت رشاشاتنا على الطيار ورفيقه طالبا منهما بالافرنسية وجوب التسليم . فرفعا ايديهما مستسلمين فأسرتهما ، واخذت في تدوين بعض الملاحظات ورقم الطائرة وأسماء الطيارين . ولقد وجدنا ثلاث عشرة اصابة في الطائرة . وتقدم مني قائد الطيارة الكابتن وانكلوجان طالبا ان أوقع له على ورقة بأن محرك طائرته مصاب بثلاث عشرة طلقة ، فأجبته الى طلبه . ولقد غافلني قائد الطائرة فمزق بعض

أوراق يحملها ، فأمرت بجمعها فاذا بها أوامر من القيادة ، فاحتفظت بها . وبعد استجوابهما وتهديدهما ، سجلت ما ادليا به اليّ وارسلتهما مع تقريري الى دمشق . ولما يئست من النواف ورجاله عزمت على المسير بجماعتي فقط . وعبثا حاولت الاتصال بمقر قيادتنا بإرسالي ثلاثة ضباط من سريتي ، الواحد تلو الآخر، لاعلام القيادة عن اعمال النواف، وسؤالهم عما يجب اتباعه في مثل هذه الظروف. وكان مقر القيادة وقتئذ في قرية الهامة . فلم يعد احد منهم وعلمت ان احدهم قتل .

وتقدمت برجالي صوب الجبهة ، واذا بي ارى فلول جيشنا متراجعة صوب قرية صبورة . واخذت جموع البدو تسطو على المنسحبين فتستولي على تجهيزاتهم واسلحتهم . تراجع الجيش فاقدا انتظامه على شكل هزيمة . وكان اكثر الجنود قد القوا اسلحتهم واستقل بعضهم البغال لينجو بنفسه .

وبينما انا في طريقي نحو الجبهة اذا برسول من قبل نواف يوافيني طالبا مني تسليم ما لديّ من الاسلحة والخيل ، لتوزيعها على رجاله لعدم استطاعة الجيش الدفاع على زعمه . فاستغربت من هذا الطلب واتضحت لي سوء نية نواف . فعزمت على البطش به وبرجاله قبل ان يبطشوا بنا . قلت للرسول : ارجع الى نواف ، وقل له نحن على استعداد لتسليم ما طلب ، وعليه ان يحضر الينا لاستلامها كي لا يحدث ما يكدر . حتى اذا ما ذهب الرسول امرت بالرشاشات فأنزلت ، وتمركزت ، ثم طلبت من السرية ان تتوارى عن الانظار وراء قمة قريبة، وهي على ظهور خيولها ، حتى اذا رأوا اشارتي انطلقوا وراء النواف ورجاله . وما هي الا دقائق حتى علا الغبار . وتبينا ، فاذا بجماعة النواف وهو على رأسهم غائرين صوبنا ، وكل واحد يبغي سبق الآخرين ليفوز بالسلب . وتركناهم في غارتهم حتى اضحوا على بضع خطوات منا فأشرت للرشاشات ففتحت ابواب نيرانها فوقع الهرج والمرج في الصفوف ، وانقلبوا على أعقابهم . وانطلقت سرية الخيالة بسيوفها من ورائهم . ثم امرت بتحميل الرشاشات للحال وأسرعنا الخطى في طريقنا نحو دمشق . ولقد سألت نفسي : اين كانت هذه الجموع التي ابت الظهور في ميدان الدفاع ، وجاءت مستبسلة لسلب الجيش العربي ، الذي انما جاءت على زعمها لمساندته ولنجدته .

عاد الجيش والفوضى تسوده الى دمشق . واستشهد القائد البطل يوسف العظمة في المعركة . وقد ذهب ضحية الاهواء السياسية التي لعبت دورها الرهيب في مقدرات البلاد ، والتي جرّت الجيش الى مصائب لم يكن مسؤولا عنها ، والتي قادت البلاد الى استعمار لن يزول اثره قبل عصور .

وفرّ الملك فيصل الى داريا بصحبة حاشيته . وبذا خمدت انفاس الحكومة

العربية في دمشق في لحظات معدودات قضت على الاحلام الذهبية . وسجل التاريخ ظلما ، عدم أهلية الجندي العربي للدفاع . ذلك الجندي الذي امتاز بصفاته الحربية وبذكائه وشجاعته وبسالته وتقديره الموقف . مما شهد به القادة الالمان ودوّنه القائد فون كريس باشا في مذكراته .

هكذا كان في ميسلون ، ومثل هذا سوف يقع اذا ما فقد الجندي العربي قائدا يحسن قيادته ، يخسر معها المعركة وتحل به النكبات .

دخلنا الشام ليلة الهزيمة . وكانت اصوات البنادق تدوي في كل مكان ، والكل شارد لا يلوي على شيء . وارتفعت الاعلام الفرنسية على بعض الفنادق والمباني وكأن الناس سكارى أضاعوا رشدهم . وما كدت اصل الثكنة حتى مر بي نوري باشا السعيد في سيارته ، فأوقف سيارته وطلب اليّ بلهفة ، والاضطراب بادٍ على وجهه ، ان أتوجه الى قصر الملك للمحافظة . فأسرعت الى القصر وقد امتلكتني هواجس عن مصير المملكة والملك . وصرت أسائل نفسي ما الذي حدا بالملك فيصل الى ان يعود من الجبهة في مثل هذه الساعة التي تزحف فيها جيوش فرنسة على دمشق ؟ وطلبت من جنديين أن يتقدماني الى القصر لمعرفة ما يجري حوله ، وليعرجا على منزلي لتطمين اهلي بعودتي سالما . وما كادا يطلان على القصر حتى أطلق عبيد الملك النار عليهما ، فأصيب احدهما وقتل لساعته ، وعاد الثاني اليّ فورا ينبئني بما حدث . وما كادت السرية تعلم بمصرع رفيقهم حتى عم الهرج والمرج ، وتمكنت بعد جهد من تسكين ثأرهم وتقدمت بهم الى القصر وانا محتدم غيظا .

وصلت القصر فألفيت الملك جالسا في البهو يحيط به رجال الدولة ، والكآبة تعلو وجوههم جميعا . حييت الملك وقلت له بأني اتيت خصيصا بصحبة سريتي للمحافظة على القصر . ثم ذكرت له مصرع الجندي وطلبت منه تسليمي العبد الذي قتله كيما أتمكن من تسكين ثائرة الجنود . فانتصب الملك واقفا ، قائلا : أهذا وقت القصاص يا فوزي ؟ اين حكمتك ؟ وأين درايتك ؟ اننا جميعا معرضون الى ما تعرض له جنديك . ولم يسعني الا الرضوخ لمشيئته . وكانت السرية قد وصلت القصر فوزعتها حوله وبتنا ليلتنا في الحراسة خوف فوضى تعم دمشق، فيستغلها البعض للايقاع بالملك . ولم تصل الفوضى ولله الحمد الى ابواب القصر. وجاء منتصف الليل من يطلب مني تخصيص جماعة لحماية الحي المسيحي . فسرت بنفسي على رأس فريق من جنودي ، حيث بقيت في حراسة الحي المذكور حتى الصباح وعدت بعدها الى الثكنة الحميدية لاخذ قسطا من الراحة ، لانني قضيت ليلتين ونهارين بدون راحة . فاستيقظت على اصوات جيش العدو الذي ملأ ساحة المرج الاخضر . واضحت عاصمة بني امية ، عاصمة الملك فيصل يحتلها

العدو . وكان منظر دخول الفرنسيين دمشق أرهب وأفجع من منظر دخول الانكليز والعرب اليها .

وكلفني قائد موقع دمشق الشريفي المحافظة على القلعة وما فيها . وكأنني نصبت حارسا على بقايا الجيش العربي ، لاسلمها الى العدو المغتصب . اذ بينما كنت واقفا امام باب القلعة متجها الى ساحتها اذا بيد ثقيلة تربت على كتفي ، فالتفتّ ، فاذا بي أمام الكابتن دنكلوجين ، آمر سرب الطائرات الفرنسية ، اسيري البارحة . فسألني وهو يضحك: ماذا تفعل هنا يا صديقي ؟ اجبته بأنني محافظ على القلعة . قال لم يبق لزوم الى ذلك الآن ، لقد كنت اسيرك بالامس وها انت اصبحت اسيري اليوم ، ومن في القلعة ايضا .

وكنت حقا والملك والمملكة اسرى بيد الفرنسيين . ودخل الجنرال غورو بعد حين دمشق والصلف والغرور ملء برديه . واخذ يخطب في المناسبات ويهدد دمشق التي لم تذق على حد قوله طعم قنابل المدفعية الضخمة . ولقد كانت الجموع التي وقفت على أطراف الطرق لمشاهدة غورو وهو يدخل دمشق جد عظيمة . والذي آلمني وأغضبني واحزنني وجود نواف الشعلان على رأس فرسانه — وهم الذين كانوا بالامس معي في ميسلون — من جملة المستقبلين . ولم يكن ليتبدل فيهم شيء سوى علمهم العربي بالامس الذي استبدلوه بعلم فرنسي . وأصبحت دمشق يوما وعلى كل باب من ابواب منازلها جندي سنغالي يطلب من اصحابها دفع ما عليهم من الغرامة الحربية التي فرضها غورو على دمشق ، وقدرها عشرة ملايين فرنك ذهبا .

ونزح الوطنيون عن البلاد ، وارتفعت رؤوس الأسافل في كل ناحية كما ارتفعت اصواتهم . واخذ ضباط الاستخبارات يعملون ليلا ونهارا في بث الفساد بين الناس . وشرع رجال الشرطة والدرك الذين أضحوا في قبضة الفرنسيين يتعقبون الناس ويصادرون أموالهم . كما جد الفرنسيون في تسلم الاسلحة الموجودة في المستودعات ، والتي كانت اسلحة احتياطية فيها عدا عن اسلحة الجيش التي جرد منها ، كما جدوا في تسلم الاسلحة المفروضة على الاهلين حيث قضوا في شحنها عدة أشهر . ولقد اتضح للخبراء بأن الاسلحة التي تسلمها الافرنسيون من البلاد كانت كافية لتجهيز جيش يبلغ عدده اضعاف أضعاف الجيش الذي أعد للدفاع يوم ميسلون .

وتوالت النكبات على البلاد . كما ان ينابيع الحياة التي ازهرت ايام الحكم الفيصلي اخذت تجف ، وعمّت الثورة حوران لما حلّ فيها من ارهاق . ثم كانت ثورة العلويين بقيادة الشيخ صالح العلي ودوّت مدافع الفرنسيين بعد ذلك في وديان الناعور فأتت على موارد البلاد فيها . وانتقلت العاصفة الهدامة الى جبل الزاوية

فكانت مدافع الفرنسيين تحصد الارواح حصداً وتدمر القرى . ثم اتجهت موجة الارهاق الى البادية فكانت فجائع الموالي . ودامت هذه الثورات خمس سنين حيث كانت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ بعدها . فيكون الافرنسيون ، الذين ظنوا بحادثة ميسلون البسيطة خاتمة المعارك ، قد واجهوا المعارك الحقيقية مع الشعب السوري ، وكانت ميسلون مبتدأها . وظلت مدافع الفرنسيين تدوي في سماء سورية ودماء السوريين البريئة تهرق طوال السنين المتعاقبة تحت ستار تمدين شعب متأخر وارشاده .

اما الحكومة السورية التي شكلها الافرنسيون اثر دخولهم دمشق فلم تكن لتملك من الامر شيئا . ولقد شكلوا جيشا سوريا جديدا مؤلفا من سبعة افواج وسبع سرايا وزعت على المناطق والمدن حسب الحاجة .

الفصل الرابع

الثورة السورية الكبرى

١٩٢٥ — ١٩٢٧

طرق باب داري ، الواقعة على الجسر قرب قصر الملك فيصل ، بعيد دخول الفرنسيين دمشق ، شرطي يطلب مني مواجهة الكابتن (هاك) في قصر الملك نفسه. دخلت قصر ملك الامس ، فاذا بجنود من المغاربة على بابه عوضا عن الجندي العربي . وقادني شيخ مغربي الى الطابق الاعلى ، وادخلوني غرفة مرافق الملك حيث يجلس الكابتن هاك ، ذاك الذي اهنته بالامس القريب في المعلقة فأوقفته مدة على باب غرفتي ينتظر . ما كاد يراني هذا حتى قام اليّ مصافحا باشاً . وبادرني بقوله ارايت كيف ان جيشا عربيا لا يستطيع مقابلة جيش عظيم كجيشنا ؟ تأثرت لهذه المفاجأة . غير اني جالدت فملكت أعصابي ، واجبته بقولي : انك خاطيء يا كابتن فلو ان الحظ قادكم الى قبول المعركة معنا في خط دفاعنا في مجدل عنجر لكان الوضع على عكس ما هو عليه اليوم . وشعر الكابتن بتأثري من حديثه ، ففيَّر مجرى الحديث بقوله : ثق يا عزيزي انه ليس لدينا اية نية سيئة نحو هذه البلاد ، وجل مقصدنا التعاون مع ابنائها لتأمين ازدهارها وإيصالها الى درجة الحكم الذاتي ؟! ثم قال ان القومندان ارلايوس يريدك . وكان هذا قد عين حاكما لدمشق . فدخلت عليه في غرفته التي كان يحتلها الملك فيصل نفسه بالامس . وكان القومندان جالسا على مقعد الملك ، كما ان كل ما في الغرفة ظل على حاله لم يتبدل منه شيء بعد .

وتكلم القومندان . ولم يخرج معنى حديثه عما تكلم به الكابتن هاك . وشعرت ان القومندان يبغي اقناعي بأن الفرنسيين انما يريدون التعاون مع رجالات البلاد

في ادارة البلاد . غير ان الهزيمة التي مُني بها جيشنا قد ترك في نفسي جرحا لا يلتئم . وشعوري بسوء نية الفرنسيين جعلني أفكر في الثأر ووجوب التفرغ له.

وتلقيت بعد ايام امرا بتعييني آمرا لسرية الخيالة في حماه ، فتوجهت اليها وكان الكابتن (ميك) مستشارها الاداري ممن سبق ان تعرفت عليه وعلى زوجته عندما كانا في طرابلس الشام ايام الحكم الفيصلي . وصدر امر بعد اسابيع من وصولي الى حماه بتحويل التشكيلات العسكرية آنئذ الى تشكيلات (ميليش) اي على طريقة التطوع المأجور . وتشكلت سريتي من متطوعة الاسماعيليين في سلمية ومن شراكسة حماه . وأقمت هذه القوى الميليشية مرتبطة رأسـا بمستشاري المراكز . لذا اخذت علاقتي مع الكابتن ميك بصفته مستشارا اداريا تزداد رسوخا كما اصبحت موضع ثقته .

وكانت تصرفات الكابتن ميك هذا في حماه جد قاسية . وكان اشد قسوة واعتسافا للقرويين المساكين منهم . ينظم الدسائس مع جواسيسه للايقاع بمن يكرهه من مخاتير القرى وشيوخها . وكانت جناياته لا تعد ولا تحصى . وكانت حوادثه هذه تثير من حنقي عليه وتحملني على التفكير في طريقة انقذ البلاد وأهليها من مظالم أمثال هذا المستشار ومجازره . فمن اعماله التي كشفت عن سوء نواياه والتي أدت الى اخراجه من البلاد انه تنافر مع متصرف حماه وقتئذ المرحوم نوري الكيلاني ، الذي كان حائزا ثقة الجنرال غورو ، فعزم على الايقاع به . وفاتحني (ميك) يوما بأنه اطلع على كتاب مرسل من دمشق ، جوابا على كتاب ارسله نوري الكيلاني ، يشتمّ منه رائحة التحريض على الكابتن ، ووجوب ازالته من حماة . ويحوي الكتاب ايضا على شتائم وسباب وتنديد بالحكم الفرنسي في سورية . وأنه ترك الكتاب يصل الى يد نوري الكيلاني منتظرا رد نوري عليه ، حيث يضع يده على الرد ، ويتخذ منه حجة للايقاع به . وأبت عليّ حميّتي أن أرى وجيها من وجهاء البلاد وأشرافها يتربص به الفرنسيون ويكيدون له كثـيرا . وفاتحت السيد الكيلاني بما وصل لعلمي على لسان الكابتن ميك ، وما دفعني الى تنبيهه وتحذيره . وقلت له : يجب عليك ان تجيب على الكتاب ، بشرط ان لا يكون فيه مساس بأحد ، وأن لا تكثر فيه المدح ولا الذم . وبعد ايام أتاني ميك ، قائلا : ان المتصرف انتبه ، فلم يجب بما يمكنني من ادانته به . ثم أقسـم بأنه سوف يخرجه من المدينة الى سجن دمشق موثوق اليدين .

وفي ذات يوم ، بينما كانت ثورة العلويين تنشر لواءها على أراضي حمـاة الشمال غربيّة ، والقبائل الرحل عائدة من تشريقها ، أصدر الكابتن ميك امرا يحظر فيه على القبائل تلك اجتياز غربي خط حماه ـ حمص الحديدي . وكان هـذا تدبيرا احتياطيا من الفرنسيين لمنع اتصال العرب بالثوار العلويين . ولم يك في شرقي الخط مرعى عدا المزروعات ، فإما هلاك الماشيـة او التعرض الى نقمة

الفرنسيين . أتى مشايخ العقيدات والموالي الى متصرف حمـاه السيد نوري ، وطلبوا منه الترخيص لهم باجتياز الخط الحديدي للغرب فأذن لهم . وثارت ثائرة الفرنسيين لهذا وعلى رأسهم الكابتن ميك . وأسرع اليّ يبشرني بوقوع المتصرف في الفخ . ورغب مني الاسراع الى القبائل ، لاخذ افادة الشيوخ ، وكتابة تقرير بما أسمعه منهم ، أبيّن فيه تآمر المتصرف معهم على ارتياد المراعي غربي الخـط الحديدي . وذهبت توّا الى دار المتصرف حيث جلوت له الامر . وأخذ يصرخ قائلا : كيف السبيل للخلاص من هذا الطاغية ؟ وسألته : هل وقع أمرا الى شيخ العقيدات أجابني بأنه اعطى ورقة بذلك . فأعلمته بأنني سأعمل جهدي لاسترجاع تلك الورقة .

وتوجهت في الصباح الباكر صوب منازل العقيدات ، وبصحبتـي الضابط الفرنسي ، وترجمان لبناني لا يعرف من اللهجة البدوية شيئـا . دخلت بيت الشيخ وأخذت أصيح وأزمجر على الشيخ الذي خالف أوامر الحكومـة بتجاوزه الخط الحديدي غربا . وقلت له : ان الحكومة قررت جلب المتصرف ، ولذا جئنا لنأخذ كتاب المتصرف الذي اعطي للشيخ كوثيقة تجيز صلبه . وكنت أتكلم بلهجة بدوية غامضة ، وأوميء بطرف عيني الى الشيخ، الذي لم يلبث أن أدرك مقصدي، فأنكر استلام اي امر من المتصرف . فالتفتّ الى الضابط ، وطلبت منه ان نكتب تقريرا مفصلا ، وأن يتولى هو التحقيق ، على أن أساعده ، ويقوم الترجمان على ترجمة أقوال الشيخ . فأخذ في كتابة تقريره الذي بلغت صفحاته العشر . وهو يحوي على كلام فارغ يشتمّ منه وضع المسؤولية على ضابط الدرك . فكنت انا الذي أسأل وأملي وأترجم وأجاوب . ثم التفتّ الى الضابط قائلا : ما رأيك لو أطمعت الشيخ بالدراهم فلعله يقول لنا شيئا ندين به المتصرف . وانتحيت بالشيخ ناحية ، وطلبت منه تسليمي كتاب المتصرف فأعطانيه ، ووضعته في جيبي . ثم عدت الى الضابط أعلمه بأن لا فائدة من رشو الشيخ لانه لا يملك امرا من المتصرف حقيقة . وأسرعنا الى الكابتن ميك الذي سألنا عن نتيجة مسعانا ، فكان الملازم أسبق مني في الاجابة ، وأخذ يقرأ التقرير بغيظ ، وهو يأمل ان يجد فيه ضعفا. ثم ذهبت الى دار المتصرف وسلمته كتابه ، فمزقه اربا .

وعلى أثر هذا التحقيق الموفق ، عزل ميك من مركزه ، ونقـل الى خارج سورية ، وتعين مكانه القومندان (مدريبو) ، الذي لم تمض مدة قصيرة على قدومه الى حماة ، حتى كسبت ثقته واعتماده عليّ الى حد بعيد . وصلت هدفي الاول وهو توسيع الثقة حتى تشمل اكثر رجالات الافرنسيين وأمراء الجيش ، وتم لي ذلك تدريجيا كما اردت ، وأصبحت محلّ ثقة كبار القواد والمستشارين .

وقد جرت بيني وبين كاترو في الشام مفاوضات كثيرة من اجـل تثبيت رتبتي ، وتعديل أوسمتي ، التي لا يجوز لي حملها وتبديلها بأوسمة افرنسية .

وحاول اقناعي بأنني اذا قبلت رتبة ملازم ثان في الجيش الافرنسي ، فهو يعدني بشرفه بأنه لن يدعني زيادة عن شهرين بهذه الرتبة ، حتى يرفعها الى رتبة ملازم اول ، ومن بعدها أنال رتبة كابتن ببراءة من وزارة الحربية الافرنسية ، عوضا عن رتبة الكابتن التي أحملها حاليا وهم لا يعترفون بها ، فرفضت .

وكان الفرنسيون يرسلونني برفقة كل حملة يجردونها على العرب . وكان من عادة حملاتهم ان تعيث فسادا بالقرى وبأهلها وأموالها . وكثيرا ما كانوا يقتلون القرويين دون ان يعرف لذلك سبب ، بمجرد تهمة او شبهة ، او لجهلهم بما يجيبهم به القروي الساذج . وكم من مظالم حلت بأهالي القرى عند خروج أمثال هذه الحملات . فكنت بعد ان تمكن نفوذي بين الافرنسيين وقويت ثقة قوادهم ومستشاريهم بي ، أحول دون وقوع أمثال هذه الاعمال . وكسبت بذلك حب القرويين وصداقتهم وثقتهم الى اقصى حدودها . ولما رفضت مقترح الكولونيل كاترو ، واصررت على المحافظة على رتبتي وأوسمتي التي رات ثلاث دول في الكفاءة لحملها قرر الافرنسيون تكوين سرية أقودها، المقصود منها اختبار معلوماتي العسكرية ومقدرتي . ولقد سميت بسرية فوزي ، على ان تكون التجربة ستة اشهر . وربطت بالجيش الفرنسي العامل . ولم تمض الستة اشهر حتى رفع الافرنسيون تقارير عن مقدرتي وأهليتي ، انتهت بمنحي رتبة كابتن من وزارة الحربية الفرنسية ، وبتعييني على رأس سرية خيالة من القوة السورية (اللجون سيري) وعينت علاوة على وظيفتي العسكرية معاونا للمستشار الفرنسي بحماة . وهكذا اتسع نطاق نفوذي .

وحضر ذات يوم الكولونيل روبير آمر لواء الخيالة فيسورية ليشاهد مناورات لوائه الذي جمعه في حماة . وكان على كل سرية واجبات استكشافية تقوم بها مستقلة ، تقطع خلالها مسافات بعيدة ، تنتهي بفوز احدى السرايا على الأخرى لتعلن كأفضل سرية ، ولقد انتهت المناورات والتمارين بفوز سريتي حيث اعلن فوزها .

ولقد كان لهذا النجاح صدى عظيم بين وحدات الجيش ، فكنت موضع استغراب وتقدير في وقت واحد . وكانت الدهشة تسود نفوس الضباط الفرنسيين من تفوق ضابط سوري مع سرية سورية على سراياهم .

وتلقيت ذات يوم ، وانا مأذون في طرابلس ، برقية من مستشار حماه يدعوني للعودة على جناح السرعة . واخبرني بمقتل مصطفى بك العظم في قرية الهبيط من قرى حماه ، وان البعض قد سقطوا عليه فقتلوه . وان حماه هاجت وان الاهلين جمعوا جموعهم لتأديب القتلة . وقد وجدت المستشار مقتنعا بوجوب السماح للأهلين بتعقب القتلة ، كما انه أقنع بدوره كاترو الذي استحصل على

موافقة المندوب السامي . اخبرني المستشار بما وقع ، وطلب الي بذات الوقت مرافقة هذه الحملة ، فاعترضت ، لعلمي ان في الامر ما فيه من سوء نية تؤدي الى اسالة دماء ابناء الوطن الواحد، وبذر التفرقة والفساد ، حيث يسبب اشتباك الاهلين بعضهم مع بعض قلاقل تستلزم تدخل الجيش الفرنسي لقمع الاضطراب . فسألني رايي في الامر ، فأبديت له ملاحظاتي ، بأنه اذا أذن للأهلين بالاقتصاص بأنفسهم ، فما هو واجب الجيش اذن ؟ وابنت له ما ينتج عن ذلك من محاذير متوخيا صرفهم عما عزموا عليه . وورد على المستشار جواب من كاترو فيه تأنيب لانقياده الى فكرة الاهلين ، وتحسين رايهم لدى المراجع العليا . ولقد طلب اليه اتباع رايي القائل بأن على رجال الدرك القيام بواجب التحقيق في الحادث . فصدع المستشار بالامر ونلت بهذا ثقة المستشارين من جهة ، وبعض آل العظم من جهة ثانية . وبذا تمكنت من التصرف بأفكار المفوض السامي والمندوب الممتاز في دمشق ومستشار حماة كما اردت لصالح البلاد .

وكانت الحكومة الفرنسية لا تزال ترهب جانب البدو ، كما ان البدو كانوا يخشونها . وكنت أسعى دوما لتجسيم الوهم في نفوس الفرنسيين للتخوف من البدو . وكانت قد نشبت خلافات بين عشائر الموالي والعقيدات ادت الى اقتتال بينهم . فأرسلت الحكومة اولا الدرك ، ثم عززته بوحدات من الجيش لتفريقهم. فلم تفلح هذه القوة في تفريقهم ، ونشبت معارك بين القبائل والجند انهزم على اثرها الجنود بخسائر فادحة . وتفرقت القبائل على الاثر خشية ارسال الافرنسيين حملات عليهم . فأثر هذا الحادث في نفس القيادة العامة الافرنسية، وقررت تجريد حملة قوية جدا . واعتبرت الحادثة فرصة للتأديب ونزع سلاح هذه القبائل . وقررت القيادة ضرب كل عشيرة وحدها . فاستهدفت اولا الموالي الذين انسحبوا لقضاء المعرة . وطلب الجنرال حضور المشايخ الى حلب ، فلم تلب مشايخ الموالي هذه الدعوة . وكانت المفاجأة بمعركة تعتبر من اشد المعارك هولا في سورية . وكانت تلك الصفحة الرائعة لبطولة وبسالة وخبرة في فن القتال بهرت الفرنسيين .

وما ان ظهرت هذه القوات بمصفحاتها وفرسانها وطائراتها في المضارب حتى هرعت أبطال هذه القبيلة لملاقاة العدو ، بينما كانت النساء يحملن بيوت الشعر وأثقالها على ظهور الأباقر ونشبت المعركة على طول دائرة تحيط بالقبيلة . وبرز في هذه المعركة وجه البطولة العربية الحقيقي ، والخصائص الحربية التقليدية . ولم تمض بضع ساعات ، حتى توقف هجوم الافرنسيين ، وتحت ضغط العرب ومهارتهم بدا الارتداد ، ثم الهزيمة الشنعاء . وكان وقع هذه المعركة في نفس القيادة والجنود على أسوأ ما يمكن . فأراد الافرنسيون استعادة هيبتهم ومعنوياتهم . فجمعوا حملة أخرى مثلها ، واخذوا ينشدون النصر والثأر هذه المرة من قبائل العقيدات ، لاعتقادهم انهم أضعف من الموالي . ولكن العقيدات ، الذين

كانوا يتوقعون مثل هذه المفاجأة كانوا على استعداد. فنشبت المعركة، وكانت هزيمة الافرنسيين في هذه المرة أشنع وأبشع منها في المرة الاولى . كان لهذه المظاهر من البطولة النادرة ونتائجها تأثير كبير في القيادة الافرنسية ، التي اخذت تحسب الحساب لها ، وفي نفس الوقت أخذت أكتشف منابع جديدة من القوة العربية في عناصر عربية جديدة بالنسبة اليّ .

وجاء موسم جباية ضريبة الجمال من القبائل البدوية . فدفع الخوف الافرنسيين الى اعداد حملة كبرى يسيرونها لارهاب البدو من جهة ، ولجباية الضريبة من جهة ثانية. وجاءني الكولونيل كاترو يرغب مني مرافقة الحملات العسكرية ، قائلا : بأنه جلب قوة من دمشق ، وأخرى من حمص وتدمر . وستتجمع معا في قرية الحمراء ، حيث تسير منها نحو منازل البدو . قلت له: ان جباية الضريبة على هذه الصورة قد يسبب اشتباكا مع البدو نحن في غنى عنه الآن . ويجرنا الى استخدام معظم الجيش وربما انهزم . الامر الذي يدعو الى التفكير في طريقة أخرى لحل هذه المشكلة ، لذا أقترح ارسالي مع سريتي ، لاقوم بهذه المهمة . فرحب الكولونيل كاترو بهذه الفكرة ، وتحركت بصحبة سريتي ، التي كان من ضمنها ضابطان فرنسيان وكانت هذه اول حادثة من نوعها في الجيش الفرنسي : كون ضابط فرنسي يعمل تحت امرة ضابط سوري . وسرت الى قرية الحمراء ، ومنها الى مضارب قبائل السبعة حيث اجتمعت ببرجس بن هديب شيخ مشايخ السبعة فأسررت له بوجوب الامتناع عن دفع الضريبة ، على ان يطلب من الفرنسيين مساواته معابن مهيد وابن شعلان، حتى اذا دفعوا الضريبة دفع هو . وطلبت منه عدم تفريق عشائره ، وتجميعها في منطقة واحدة . فاذا ما ضايقناه فليرحل ناحية الشرق قليلا . ثم التفت الى الضابطين الفرنسيين أوهمهما ان الضغط على هذه القبائل يؤدي الى خطر وخيم العاقبة ، لذلك يجب ان نأخذهم بالملاينة والسياسة ، فاقتنعا برأيي . وعدت الى قرية الحمراء ومنها الى حماة .

وطرق باب داري ذات ليلة العبد نحراف ، وهو عبد لبرجس ، يعلمني بأن الضابطين الفرنسيين اخذا يضايقان برجس ، فصرخت بالعبد قائلا : على برجس أن يعمل حسب اشارتي له . فاذا ضيقوا عليه رحل الى الشرق . غير ان العبد رجاني كتابة كلمة الى سيده بهذا المعنى ، وعاد العبد برسالتي . وكان برجس ، على اثر مضايقة الضابطين له ، طلب منهما امهاله حتى يجتمع مع رؤساء القبائل للمشاورة . وكان يقصد من وراء ذلك انتظار جوابي . فلما وصل العبد اليه وقرأ كتابي صارحهم بقسوة انه لن يدفع شيئا . فبهتا لهذا الانقلاب . ولما سألاه عن سبب تمنعه ، قال : هذا ما أمرني به فوزي بك . وكانت فرصة سانحة لهذين الضابطين للايقاع بي . فعمدا الى استدراجه ، فقالا له: اذا كان ما قلت هو الذي أوصى به فوزي بك ، فنحن طوع لأمره . فأبرز لهما كتابي . ونسخا صورة

بالعربية بواسطة الترجمان . ثم ترجماه الى الفرنسية . ثم كتبا تقريرا ضافيا أبانا فيه خيانتي ، وأيدا تقاريرهما التي ذكرا فيها سوء نيتي وقيامي بمؤامرات ضد سلاح الجيش .

وجئت صباح يوم العيد المستشار . فاذا بي أراه غاضبا عليّ . سألني : ما هذا الكتاب ؟ فشعرت للحال بأن كتابي الى برجس قد وقع في يده . فالتفتّ سائلا : أي كتاب تعني ؟ قال : الكتاب الذي أرسلته الى برجس . قلت :نعم ، اني بعثت به الى برجس آخذا المسؤولية على عاتقي ، لاني بعملي ذاك قد انقذتك اولا ، وأنقذت الجيش من معارك دامية ، وأنقذت حياة الضابطين الفرنسيين اللذين كانا في الحمراء . والدماء التي سالت من الجيش الافرنسي في معاركهم مع الموالي لم تجف بعد وقد كان سببها حماقة ضباط استخبارات ، وتقاريرهم غير الصحيحة . فسألني : وكيف كان ذلك ؟ قلت : ان الضابطين ذهبا الى برجس يهددانه بأنه اذا لم يدفع لهما الضريبة بظرف اربع وعشرين ساعة فسوف يسوقان عليه الجند لتنكل به وبعشائره . ولم يسع برجس عند سماعه تهديدهم الا أن يجمع عشائره بغية القضاء على السرية ومن فيها من الضباط الافرنسيين ، والهرب مع رجاله الى حدود العراق . وان الاقدار هي التي دفعته الى استشارتي ، فأرسل عبده اليّ ، فأقنعته بالعدول عن هذه الفكرة ، وطلبت منه الابتعاد برجاله عن الحمراء الى حين حضوري . وأنت ترى حالة البلاد من الفوضى، والجيش يكاد يكون منهمكا بجمع قواه في اخضاع العصيانات والثورات التي تتوالى كل يوم ، وفي كل بقعة من البلاد ؛ وحالة المدن ليست بأحسن من حالة من هم خارجها . وهذا ما دفعني لاتحمل المسؤولية . ولولا عملي لكان الجيش الفرنسي الآن يخوض المعارك مع القبائل المرتبط بعضها مع بعض من شمالي سورية الى اراضي نجد . فأثرت كلماتي فيه أيما تأثير ، ثم سألني ولِمَ لم تخبرني عما حدث في حينه ؟ قلت : ان الامر جد خطير وكان يتطلب السرعة درءا للخطر ، وإني لم آت اليك الآن الا لاخبرك بما حدث . وكنت أتوقع منك الشكر والتقدير. فنهض المستشار مصافحا . ثم أخذت أنهال على الضابطين باللوم لشططهما وطيشهما . ثم أثبتّ له عدم تمكني من العمل مع أمثال هؤلاء الذين لا بد وأن يسببوا للبلاد وللجيش كارثة تقع على أيديهم . واذا بي أراه يرفع تقارير الضابطين ، ويمزقها. ولم تمض ايام حتى كان هذان الضابطان في طريقهما الى بيروت ، حيث تلقيا امرا بوجوب العودة الى فرنسة ، على ألا يعودا الى سورية مرة ثانية . ولقد عظمت في عين المستشار قوة البدو وخطرهم، وضرورة مداراتهم في اخذ الضريبة. وبذا انقذت موقفي وتخلصت من غطرسة الضابطين ودسائسهما وخلصت القبائل البدوية من اعتساف الفرنسيين وفتكهم .

وكانت البلاد التي جزئت الى دويلات ، والتي اضحت في أيدي حكامها الفرنسيين ومستشاريها قد وصلت الى درجة من الضعف ظاهرة . وحالة البلاد

الاقتصادية تنبيء عن افلاس ؛ فالذهب الذي ازدادت كميته أثناء الحكومة الشريفية تسرب معظمه الى فرنسة ، وحلت الورقة السورية محله . وافتقرت البلاد الى الرجال العاملين المخلصين ، اللهم الا القليل الذين لا يستطيعون المجاهرة بآرائهم ، او القيام بعمل وطني نافع . ولم يبق في الميدان الا الشعب ، وهو الجوهر ولكن لا قيادة له ولا تنظيم . بينما كان الافرنسيون يفرضون الضرائب والغرامات . والبلاد بما حل فيها من نكبات جسام صائرة الى خراب واستعباد لا محالة . وكانت تجري في هذه الفترة حركات في جبال الزاوية ، يتزعمها المرحوم ابراهيم هنانو . وكان لها علاقة بالحركات التركية التي تجري في جنوب الاناضول . الجيش الفرنسي منهمك في حركات يائسة في كيليكيا في الاناضول وموقفهم يتطلب دوما ارسال نجدات متوالية . وخفت المعارك في جبل الزاوية ثم هدأت تماما . وهذا الهدوء سبب اختلافات ما لبثت ان توسعت واكتسبت طابعا خطرا وهدد ابراهيم هنانو بالقتل وترك الجبل على الاثر . وفي هذه الفترة يطلبني المستشار على عجل ، ويطلعني على برقية وردت من كاترو ، يعلمه فيها ان ابراهيم هنانو ترك الجبل وتوجه نحو الجنوب . وانه الآن في جوار جبل بلعاس شرقي حماة ، وانه ارسل هجانة تدمر وقوة من حمص وأخرى من دمشق لتقطع عليه الطريق وتقبض عليه ، وانه يعلق اهمية كبرى على اعتقاله شخصيا . لذلك يطلب اليه ان يرسلني مع سريتي وقوة مصفحة من حماة لتعقبه، والتعاون مع بقية القوة المحتشدة للقبض عليه . فكان موقفي حرجا جدا ، فأصغيت للأوامر ، وأفهمته أن لا حاجة لقوات مصفحة ، وانني سأصطحب معي قسما من القبائل . فقبِل . وأخذت أفكر بطريقة انقاذه شخصيا ، وفتح الطريق امامه للوصول الى حدود الاردن . فانطلقت حالا نحو الشرق وطلبت من الشيخ صالح المسرب مع بعض رجاله ان يوافيني الى قرية عقربات . فتركت السرية نحو عقربات بقيادة ضباط ، وانطلقت بسيارة مع بعض رجالي الذين أثق بهم، والتقيت بالشيخ صالح الذي وصل اليها في نفس الوقت . وكانت تنقلات ابراهيم هنانو تأتينا أخبارها من عملاء الافرنسيين والمخافر . والتقيت بالشيخ صالح الحرب في القرية وأطلعته على قصدي من انقاذ ابراهيم هنانو . وكتبت له كتابا موجها الى ابراهيم هنانو بتوقيعي وطلبت منه ايصاله اليه ، وهو يبعد عنا مسافة ١٠ كم تقريبا . والكتاب يتلخص بعزمي على انقاذه شخصيا ، وعن ترتيبات الافرنسيين في طريقه ، والتي لا يمكن التملص منها في مثل هذه الايام من القيظ الشديد ، ولا يوجد في طريقهم اي مورد للماء . لذلك اقترحت عليه أن يأخذ بعض العناصر المهمة ، ويترك الذي لا شأن لهم به . وتمثل معركة صورية مع هؤلاء ، وأُعين القيادة في القضاء على جماعة هنانو ، فتنسحب القوات الافرنسية من الطريق ، بينما هو يتابع طريقه نحو شرقي خمير الى الصفا فالاردن . وأفهمت الشيخ صالح أن يوضح له الموضوع تماما بعد تسليمه كتابي . وجاوبني المقدم خالد مردم بك الذي كان معهم ، وهو ضابط عربي ووطني ، فشكرني ، وأبدى رغبة في قبول الخطة تماما . وفي المساء ترك هنانو مركزه ، وكانوا على قسمين اكثرهم في

المؤخرة . وكانت السرية قد وصلت ، فوجهت نصفها بقيادة الضابط الافرنسي للشرق ، وانطلقت أنا على اثرهم . وهكذا أبعدت الضابط عن حضور تمثيلية المعركة فكانت المعركة مع المؤخرة . ويظهر انهم لم يعطوا التعليمات اللازمة لهذه المؤخرة فكان الاشتباك جديا . والمهم انه اثناء القتال فسحنا المجال امام ابراهيم وجماعته . واستسلمت هذه المؤخرة وكان فيها خالد بك وكثير من الجنود الالمان وبعض العرب . وكان مجموعهم حوالي السبعين مقاتلا وقع منهم في أيدينا اكثر من النصف والباقي تمكن من الإفلات . وأعلمت القيادة بالقضاء على قوة ابراهيم هنانو . وانسحبت القوات . وهكذا أنقذت ابراهيم هنانو من كارثة محتمة .

وكانت سياسة الانكليز في سورية مبنية على التقارير التي تقول ان فرنسا ، على الرغم من السنوات السبع التي احتكت فيها بطبقات الشعب ، لم تتمكن من فهم حقيقته وميوله وأخلاقه وصفاته . لذلك بقيت تتخبط في ظلام دامس وتجرد الحملات لتخمد الثورات بغية استقرار سياستها . ولكنها لم تفلح ، مكبدة البلاد لهذه الاخطاء النكبات . فساءت حالة البلاد ، وضعفت مرافقها . وكانت ثورة مصطفى كمال في الاناضول وصلت الى أشد ساعاتها خطرا . وتأكد لدينا نجاح الترك وانتصارهم في النهاية ، بعد ان كانت حركات مصطفى كمال في نظرنا عبارة عن اعمال عصابة مدفعية لا تلبث ان تقضي عليها جيوش الحلفاء المنتصرين في الحرب الكبرى . ولقد أمن الاتراك لانفسهم بانتصارهم ذاك حرية واستقلالا . وكان لانتصاراتهم أثر عظيم في نفسي ، وفي نفوس الكثيرين . وأخذنا ننظر الى حالة العرب ، فتوهمنا في البداية اننا فقدنا مزايانا الحربية التاريخية .

وبينما كانت نفوسنا ثائرة بتأثير نضال الترك في الاناضول ، اذا بأخبار الريف العربي لا تقلّ روعة عن أخبار الترك . فزادت في حماسنا اتقادا واتجهت مشاعرنا كلها الى أعمال ابناء جلدتنا العرب ، وعلى رأسهم البطل عبد الكريم في المغرب ، الذي كان يقاتل أعداءه بشروط لا تقبل قياسا . وأظهر من البطولة في قتالهم ما جعلنا نعتقد ان الخصائص العربية لا تزال موجودة ، فاشتعل حب التضحية في نفوسنا وجعلنا نتتبع خطاه . وكان اهتمامي بما يقع في المغرب عظيما ، فأخذت في طلب خرائط ميادين النضال في الريف ، وأخذت أتتبع كل ما تكتبه الصحف الفرنسية وغيرها عن طراز القتال وتطوراته . وأصبحت بعد حين محيطا بدقائق الموقف من الوجهة العسكرية والسياسية في الريف المراكشي .

ولما علمت باستعراض المارشال ليوتي لقوات فرنسة في مراكش ، وجمعه الوحدات من أطراف الجزائر ، تأكد عندي نشوب حرب بين فرنسة وعبد الكريم. وكان هذا طبيعيا ، لانه لا يمكن للافرنسيين ان يرضوا بوجود مقاطعة عربية في افريقية ، خشية سريانها الى افريقيا العربية بكاملها . فكان لزاما على فرنسة ازالة عبد الكريم ، الذي كان خطره أشد وطأة على الفرنسيين من الاسبانيين .

واخذت أسائل نفسي : أليست الفرصة سانحة لنا لنقوم بدورنا بتضحية في سبيل انقاذ سورية ؟ وقد اصبحت لديّ الخبرة التامة بمزايا شعبنا ومؤهلاته الحربية وأساليب القتال عند الافرنسيين . وقد امتلأت نفوس القواد والضباط بما أصابوا من غنائم ثمينة ، اصبح الحفاظ عليها يهمهم اكثر من الحفاظ على سورية . وقد ملّ اكثرهم كثرة القتال والضحايا . وشرعت في البحث عما اذا كانت فكرة كهذه يعتنقها بعض رجالات البلاد او الاحزاب . وبعد بحث لم اقع لها على اثر ، فعزمت ان اكون انا بطلها .

وفاتحت ذات ليلة بعض الخلص من اخواني ، المطلعين على افكاري بوجوب القيام بثورة ، وترتيب ما يلزم لها فوافقوا وتعاهدنا . وكانوا في بداية الامر قليلين جدا ، هم السادة : سعيد ترمانيني وعبد السلام الفرجي ومحمد علي الداغستاني والمرحوم عبد القادر مليسر وطاهر الداغستاني ، وبعض ضباط سريتي . وعزمنا اولا على تأسيس حزب ديني لجذب العلماء صوبنا ، والنفوذ منهم الى الشعب ، الذي هو كنز القوة . واسمينا حزبنا بحزب الله . وبادرت في ارخاء لحيتي وصرت أتعمم ليلا ، واظهر بشكلي الجديد في معظم مساجد البلدة، حيث احضر صلوات المغرب والعشاء والصبح . ولم يكن لتفوتني صلاة في وقتها اما نهارا فكنت ارتدي ملابس الضابط الافرنسي وعلى رأسي البرنيطة . وتطورت العلاقات بيني وبين العلماء الى صداقة ، واخذت أوعز لهم بوجوب توحيد دروسهم وخطبهم في المساجد ، وانتقاء الآيات القرآنية الحاضة على الجهاد ، وتفسيرها وشرح معانيها للعامة . وزيادة في الحيطة ولستر اعمالي ، عمدت الى اعلام المستشار بانتسابي الى الاحزاب الدينية ، مبينا له ان القوم ، لانتسابي الى الجيش الفرنسي ، اخذوا ينعتونني بالكفر ، فلا بد لي من الظهور بقيافة دينية والانتماء الى احد الاحزاب . فدهش المستشار وسألني عن الاحزاب الدينية تلك. فذكرت له الطرق القادرية والرفاعية والنقشبندية وغيرها . وقلت ان هذه جميعها سخافة ولكن لا مانع من مماشاة رجالاتها . فشجعني على عملي ، وقطعت لهذه الوسيلة الطريق على كل من توسوس له نفسه بإيصال اخبار حزبي الى الفرنسيين .

ومددت يدي ، بعد ان امنت لنفسي مركزا محترما ، الى طبقة الشعب ، وفيها الكنز الذي لا ينضب معينه ، فتعاهدت مع فريق من المخلصين من اصحاب النفوذ. وطلبت من كل واحد منهم اختيار عشرة اشخاص من اصدقائه ومعتمديه. ثم مددت يدي الى الوجهاء الذين كانت الشائعات قد سبقتني الى آذانهم ، فتعاهدت مع فريق منهم فارضا على كل واحد منهم ما يستطيع اعداده من مال ورجال مسلحين . وتوسع من ثم حزب الله ، وانتسب اليه كثيرون . وكنت اشعر بإخلاص كل من انتمى اليه . وبعد ان تم لي النفوذ على جميع طبقات الشعب ، عزمت على مفاتحة رجالات الدين . وفاتحت المرحوم الدكتور صالح قنباز ، فلم

يحبذ الثورة ؛ اعتقادا منه ان ليس في البلاد قوة تستطيع مجابهة الفرنسيين .

وزرت نجيب آغا البرازي في قصره ، وبادرته بما يجول في نفسي ، فدهش استغرابا . واخذ يسألني عن التشكيلات ، وعن طرق العمل . فأوضحت له لحد ما . غير انه رغب بتأجيل العمل مدة لإنجاز الحصاد ، وجمع المحاصيل . فطلبت منه عهدا ، وفرضت عليه ما يمكنه القيام به من المعونة ، وبتأمين سفر مندوبنا الى المدن على نفقة البلدية ، التي هو رئيسها ، وتقديم مساعدات مالية . وتمكنت بواسطة دخول نجيب اغا في حزبنا من الاتصال بكثير من وجهاء حماة ، الذين اتوسم فيهم الخير . ونفذت الى خارج حماة ، فشملت التشكيلات مدن حمص وبعلبك وطرابلس والمعرة ودير الزور . وشرعت اخيرا بمفاتحة ضباط الجيش السوري بعد ان ادخلت في الحزب كثيرا من عرفائه ونوابه. وكان كثير من الضباط يترددون في قبول دعوتي .

واخذت اخبار الشائعات تصل الى أسماع المستشار عن بعض ما قمت به من التشكيلات . فكان المستشار لا يأبه لها ، ويردها بإزدراء ، لتأكده من اخلاصي ، وان ما تحدث به الناس لا يتجاوز ما ذكرته له من انتسابي الى تشكيلات الاحزاب الدينية . ومن ثم ادخال معظم عرفاء الجيش السوري الموجودين في حماة الى حزبنا . واخذت بالتجوال في المراكز العسكرية خارج حماة واتصلت فيها بالضباط والعرفاء بعد ان مهدت السبل الى ذلك برسل بعثتهم قبل اتصالي بهم . وكنت للتأكد من درجة معرفة المستشارين في حمص وحماة بأعمالي ، أذكر لهم بانني اسمع شائعات كثيرة هذه الايام عن وجود تشكيلات ثورية في البلاد . وكنت من جهة اخرى اتصل برجال التحري ، واطلب منهم الانتباه لما يحدث في البلاد ، كما اني كنت الفت نظر اخواني بوجوب الاحتراز من رجال التحري .

فكنت ادير بهذه الصورة المستشارين ورجال التحري ورجال حزبي والوجهاء بحكمة ولباقة وبشكل لا يمكن ان يفضح تشكيلاتنا ، ويخلق لنا الصعوبات قبل الأوان . فكانت أمورنا تسير سيرا حسنا . وعُرض يوما على مستشار حماة ، الكولونيل موريبو ، منصب حاكم جبل الدروز . فاستشارني في الامر . فقلت له : قم بجولة في جبل الدروز قبل قبولك المنصب او رفضه ، تدرس فيها احوال الجبل ، وذهبنا معا الى جبل الدروز ، وسنحت لي الفرصة للاتصال ببعض رجالات الجبل اثناء تجولنا في مدنه . وعبثا حاولت العثور على من يوافق على فكرتي . ولم اكن أدري هل كان ذلك ناتجا عن عدم ثقة من فاتحتهم بي ، ام لا ؟ وعدنا الى دمشق ، واتصلت بالأخ توفيق الشريف ، واطلعته على بعض نواياي ، وسألته اذا كان له اية صلة برجالات جبل الدروز . فقال لي : ان نسيب بك الاطرش ، معتمد جبل الدروز في دمشق ، صديقي المخلص . وهو وطني يعتمد عليه . فذهبت توا بصحبة الاخ توفيق الى منزله ، واخذت أشرح له بعض ما تم

من التشكيلات ، وما نأمله من نتائج باهرة في ثورتنا . فتعاهدنا على ان يبث فكرة الثورة بدوره في الجبل ، ونجعل منه معقلا وقاعدة للثورة .

وتشكل في دمشق حزب الشعب برخصة رسمية . وادخلت من رجالنا في هذا الحزب ، كيما يطلعوا على نوايا القائمين عليه ، وهل ثمة فكرة ثورية عندهم. وبعثت الاخوين سعيد ترمانيني وعثمان حوراني الى مركز الحزب في دمشق ، وكانا موضع ثقة حزب الله وحزب الشعب . فاتصلا برئيس الحزب الدكتور شهبندر ، ففاتحاه بالامر ، واطلعاه على ما نوي القيام به ، وذكرا له اننا معتزمون على الثورة ، ومن المستحسن ان تضم جهود حزب الشعب الى جهودنا ، فاذا كان لديهم شيء من التشكيلات الثورية تفاهمنا من اجل توحيدها . فأجابهما الدكتور شهبندر سلبا . وقال لهما ان فكرة الثورة الآن خطرة ومضرة جدا لمصلحة البلاد. واتممنا تشكيلاتنا قبل ثورة الجبل . وكانت اعمال البطل عبد الكريم حقا هي الموحية الينا بثورتنا .

وكان المستشار موريبو قد ذهب مأذونا الى فرنسة ، وحل الكومندان كوستيلير مكانه . فتقربت اليه ، وسلكت معه الطريقة نفسها التي سلكتها مع زملائه السابقين . وكان الفرنسيون قد اتوا في جبل الدروز من اعمال الظلم والارهاق وسوء الادارة والسياسة والاستهتار برجالات الجبل ، وبتقاليده وعاداته، وإهانة رجال العلم والازدراء بهم ، ما لا يطاق . كما ان سورية كانت تئن من اعمالهم . فرفع رجالات الجبل ظلاماتهم الى المندوب السامي والى مستشاريه ، ولكن احدا منهم لم يسمع شكاية ، وكان الكابتن كاربيه حاكم الجبل يمثل الحاكم بأمره المستبد المطلق التصرف . وكان له من رجال المفوضية الفرنسية جماعة يناصرونه . ولما تعين الجنرال سراي مندوبا ساميا لسورية انجذب الى هذه الجماعة . وبالرغم من الشكايات التي أبداها رجالات الجبل ، لم يبال برغبات الشاكين ، بل عمد الى تحقير الوفد الذي جاءه شاكيا ، وامر باعتقال رجاله ، ونفيهم. وطلب في ذات الوقت من سلطان باشا الاطرش ان يأتيه ليواجهه ، وهو ينوي من وراء ذلك نفيه مع بقية الزعماء . غير ان سلطانا لم تنطل عليه الحيلة ، فرفض دعوة المندوب السامي . من اجل ذلك بعث الفرنسيون بسريتين الى القرية ، حيث يقيم سلطان باشا للقبض عليه . وكان سلطان متوقعا مفاجأة كهذه فوصلت الاخبار الى الفرنسيين قبل وصول الحملة الى القرية ، بأن سلطانا على استعداد لمجابهتهم فيما اذا أصر الفرنسيون على دخول القرية . فعدل قائد الحملة ، ورجع الى قرية الكفر ، حيث عسكر فيها . واخذ يراسل سلطانا ، ويطلب منه الحضور اليه . وتطورت الحالة في الجبل الى ثورة نفسية ، ولما علموا باعتقال زعماء الجبل زحف سلطان بجماعته على قرية الكفر ، واشتبك مع الافرنسيين بمعركة حامية قصيرة الامد قضوا على السريتين بكاملهما .

وحضر الجنرال سوليه بتاريخ ٢٠ تموز سنة ١٩٢٥ ، وهو مفتش الخيالة،

ليفتش وحدتنا ، اطلعني على ما يجري في جبل الدروز من حوادث . وكانت معركة الكفر التي سلف ذكرها قد انتهت بخسارة الافرنسيين . واخذ الجيش في تجميع بعض الوحدات ، للقيام بأعمال واسعة في جبل الدروز ، وكان اكثر هذه الوحدات من شمال سورية . وتقدمت من الجنرال سوليه بملاحظاتي عن وجوب ادخار كثير من الاسلحة والعتاد والقنابل اليدوية في الثكنة ، لان انسحاب قوى الشمال الى جبل الدروز مما يؤثر على منطقتنا حتما . وطلبت منه اعطائي الصلاحية الواسعة لاستعمال هذه الاسلحة عند حدوث ما يكدر ، لإيقاف الخطر عند حده ، خوف استفحال الامر . ومما قلته للجنرال سوليه: ان فكرة المستشار الاداري القائلة بوجوب اخذ الامور بالسياسة والادارة لا يفسر في نظر الشعب الا بالضعف والخوف . فاقتنع الجنرال بنظريتي ، واذن لي باستعمال الصلاحية التامة في شؤوني العسكرية .

وما ان غادرنا الجنرال سوليه حتى جئت الكومندان كوستيلر، بصفتي معاونا له ، أعلمه بأن الجنرال يرى لزوم البطش والايقاع بالناس . وقد يوقعنا تهوره في ورطة . وطلبت منه حمايتي من الجنرال ، وإعطائي الصلاحية الواسعة لاخذ الشعب ورجال البادية بالهوادة والحلم والكياسة . فغضب كوستيلر بدوره على الجنرال ووافقني على ما طلبته منه ، وبهذه الصورة حظيت على السلطة الواسعة عسكريا وإداريا . وضاعفت ثمة جهودي ، وشرعت في مباحثة ضباطنا في الشرطة والدرك، وأخذت منهم العهد . وكنت أعلق اهمية كبرى على هجانة تدمر. وكان منهم فصيلان في القريتين ، وفاتحت عرفاءهما ، فوافقوا . وجعلت احدهم رئيسا لهم ، وعينت رسلا للاتصال بيني وبينهم وزودتهم بخبرة خاصة . واخذ كلّ يعمل في دائرة اختصاصه . وتم لي بذلك الحصول على عناصر قوية اعتمد عليها في ثورتي المقبلة .

ثم شرعت في وضع برامج التشكيلات الادارية لداخل حماة وخارجها. وكان من المقرر جعل نجيب اغا البرازي حاكما لحماة .

والتفتّ الى تنظيم البادية ، فاتصلت برؤساء العشائر ، وتعاقدت معهم ، عما يجب عليهم تقديمه من الرجال المسلحين من خيالة ومشاة . وما يجب علي تقديمه للشيخ ورجاله من رواتب . وكان بطل هذه التشكيلات البدوية الشيخ صالح الحرب. وهكذا شملت التشكيلات اكثر قبائل البادية وأمنعها . وكان والدي قد سمع بما اقوم به من تشكيلات ، فزارني متسائلا ، ولم أخف عنه شيئا من امري، فساورته المخاوف لاحتمال نقض من عاهدني ، ورجاني الانسحاب لو كان باستطاعتي ترك هذا الامر . فأجبته : لقد عزمت ، وتوكلت على الله فيما انا مقدم عليه ، وقضي الامر الآن ولا يمكنني الانسحاب . قال اذن توكل على الله . وكانت زيارته تلك آخر عهدي به ، رحمه الله . اذ توفي الى رحمة الله اثناء اقامتي في

كركوك . وودعني والداي ودعوا لي بالتوفيق ، وقفلا راجعين الى طرابلس الشام .

وكانت الفرصة سانحة لإعلان الثورة ، والظروف جد ملائمة . وكنت كلما عينت موعد الشروع بالثورة كان نجيب اغا البرازي وآخرون من اخواني يطلبون مني التأجيل ، فكنت أوافقهم مضطرا . واستفحل امر حوادث الجبل ، وكانت معركة المزرعة اغسطس ١٩٢٥ ، التي اندحر فيها الافرنسيون . ثم كانت معركة المسيفرة ١٧ سبتمبر ١٩٢٥ . وعلى الاثر أخلى الافرنسيون القسم الشمالي من سورية من قواهم الاساسية ، لحشدها في حملة عامة على جبل الدروز . فكانت الفرصة سانحة . وكانوا يعتمدون عليّ في هذا القسم .

وجاءني المرحوم مظهر السباعي ، وهو من اعضاء هذه التشكيلات في حمص ، فأطلعته على آخر ما وصلت اليه التشكيلات ، والفكرة في تنفيذها ، والوقت الذي يجب البدء به . ولقد انتدبته للتوجه نحو سلطان باشا الاطرش قائد الثورة العام ، مستصحبا معه بعض الشبان الوطنيين الذين يعتمد عليهم . فذكر لي اسم الاخ الوطني منير الريّس فوافقت وتوجها. وقد كلفته : اولا : اطلاع سلطان باشا على ما اعددناه من ترتيبات . ثانيا : ان يقوم سلطان ببعض الحركات اوائل تشرين الاول ، لاستجلاب ما بقي من القوات الفرنسية في دمشق وازرع نحوه ، حيث يفسح لنا المجال للعمل . ثالثا : تعيين نقطة الاتصال ، واعتماد احد رجاله ليكون صلة وصل بينه وبين رسولي الذي ابعثه اليه . رابعا : اعلامي اذا كان لديه اي اقتراح . وكانت هذه التعليمات شفوية لم يخط منها حرف واحد .

ذهب المرحوم مظهر السباعي بتعليماتي الشفوية فحملها الى سلطان باشا الاطرش . ولقد اطلع عليها الدكتور شهبندر . وحدث يوما ان كنت في نادي الضباط وترتيباتنا كاملة وثورتنا على وشك الانفجار . ودار الحديث حول حوادث الجبل الخطرة . فقلت اننا الآن في خطر ، وتحت رحمة اية ثورة يقوم بها اي رجل في شمال البلاد ، فماذا نستطيع عمله . وضربت بنفسي مثلا : قلت ولنفرض ان قام فوزي القاوقجي ، وأعد ثورة ، وأعلنها في هذه الآونة ، وفي هذا المكان ، فماذا عساكم تفعلون لاتقاء شر هذه الثورة ، والمعروف ان الجيش بكامله منشغل في معارك جبل الدروز ؟ فعلَت القهقهات من كل جانب . وأجابني احد الضباط الافرنسيين بقوله : ما علينا اذا حدثت ثورة الا ان نعد حقائبنا ، ونسرع الى ترك حماه . قلت : وانا معكم ؟ وقد اردت بهذه المداعبة الخطرة دس النبض لمعرفة نفسية أولئك الضباط .

وكانت جيوش فرنسا قد اشتبكت في القتال مع قبائل الريف بقيادة عبد الكريم . وأخذت أخبار انتصاراته تصلنا . كما كانت تصلنا أخبار نجدات فرنسة

المرسلة الى مراكش . وهذا ما شجعنا على المضي بما عزمنا عليه ، حيث كنت متأكدا من عدم استطاعة فرنسا ارسال نجدات الى سورية في وضعها الحاضر. وكانت ترتيباتي قد تمت ، ولم يبق عليّ الا التنفيذ . وتوجهت الى المستشار مقترحا عليه لزوم خروجي الى البادية لمراقبة قبائل العمارات الآتية من العراق، وترحيلها عن المعمورة الى الشرق ، كي لا يكون نزوحها الى أطرافها سببا في وقوع ما يكدر . وخرجت من لدنه فأعددت من جنود السرية الذين عاهدوني ، فريقا ، وعلى راسهم السرجان ميشال نحاس ، ومراسليّ احمد الفركلي وعلي المغربي الذين قاموا بضروب البطولة في كافة حركات الثورة . حيث بقوا مخلصين وصابرين معي حتى نهاية الثورة السورية . وكنت اتفقت مع الاخوان على جعل ليلة المولد ليلة الثورة . وكان المقصد من خرجتي المبكرة توثيق العهود مع رجالات القبائل خشية انتقاضهم ، ولإعلامهم بميعاد ثورتنا . فاتضح لي ان كل شيء يجري على ما يرام. ثم طلبت من اخواني في حماة ان يتصلوا بحمص وليبعثوا وفدا من رجال حزبنا ليشاهدوا ما نقوم به في حماة ، ولينطلقوا ليلتئذ الى حمص لمباشرة اعمالهم . وطلبت من حماة ارسال سيارات الى قرية مدريك ، حيث أودعنا خيولنا ، لنعود الى حماة . حتى اذا وصلنا عدنا الى المدينة . وذهبت توا الى دار احد رجالنا حيث دعوت رجال مفارزنا واستفهمت منهم عن استعدادهم . فأجابوا بالايجاب . فأعددت مفارز لقطع خطوط التلفون داخل البلدة وخارجها ، ومفارز أخرى لمحاصرة منزل المستشار ودور الضباط الفرنسيين والقاء القبض عليهم احياء ، لنتخذ منهم أسرى ولنفتدي بهم رجالنا الذين قد يقعون بيد الفرنسيين فيما بعد . ثم اتصلت بنفسي بقوات موقع الشرطة وأخذت منهم كلمة السر المعطاة تلك الليلة. ثم شرعت في التجول مع فريق من رجالنا الجنود كدورية لحفظ الامن . كما اتصلت بسائر الثكنات ، فأرسلت من تسلق جدرانها ، وأيقظ الجنود من نومهم ، فلبسوا ثيابهم استعدادا . وكان المقرر ان لا يقوموا بحركة قبل اصدار امري . وكان عليّ ان اجمع مفارز الاهلين التي كنت أعول عليها بالدرجة الاولى كي لا توصم الثورة بعصيان قسم من الجيش ضد قسمه الآخر ، بل لتكون لها صبغة وطنية باشتراك الشعب فيها .

وتوجهت الى دار احد اخواني البرازيين ، التي تقرر اجتماع الرؤساء فيها، لتلقي آخر الاوامر للشروع . غير ان الدقائق مرت وتلتها الساعات دون ان يصلنا احد . فكم كانت دهشتي لتخلف اخواني عن المجيء اليّ والساعة الآن تشير الى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ! فأيقنت بفشل خطتنا تلك الليلة . ولم أر بدا من الحزم والصبر . وبعثت أوامري للحال الى المفارز كلها بوجوب تأجيل الشروع الى إشعار آخر . وكان سبق لمفارز قطع الاسلاك ان اتمت مهمتها . وعدت بالمفرزة الى مدريك حيث وضعنا خيولنا ، وبعثت بتقرير الى المستشار أعلمه فيه عن تمكني من ابعاد قبائل العمارات ، وبقية القبائل عن المعمورة دون اي حادث مع ضمان عدم وقوع ما يكدر صفو الامن . وكان تقريري ذاك الصادر عن مدريك التي

تبعد سبع ساعات عن حماة مع الصباح عند المستشار . كما وصلت بقية التقارير عني اليه في الوقت نفسه ، وانني كنت الليلة البارحة في حماة . وامتلأت البلدة بالشائعات . وكان المستشار بين مصدق ومكذب ، غير انه لم يجد بدا من التريث لتعرّف احوالي .

وبلغتني تطورات حوادث جبل الدروز ؛ اذ تمكن الفرنسيون من حشد قوى كبيرة في ازرع تحت قيادة الجنرال غاملان ، الذي سار بها باتجاه السويداء وتمكن بعد معارك حاسمة من احتلالها في ٢٣ سبتمبر ١٩٢٥ ، وانقاذ حاميتها من الأسر، وفك اسر الجنود الذين وقعوا في أيدي الدروز في معركة المزرعة . وقد انسحب سلطان باشا على اثرها جنوبا ، وتفرق كثير ممن كان معه من اخواننا السوريين ونزح بعضهم الى حيفا والقدس ، كما وصل البعض الآخر الى القاهرة . وفي ٤ اكتوبر دخل الجنرال غاملان قرية عرى واستسلم الامير حمد للفرنسيين . وأيقن الافرنسيون بأنه قد انتهى امر الثورة عند هذا الحد واخذت الاسلاك تنقل البشارات الى أنحاء فرنسا كلها . لم اجد امامي الا الاسراع في الانقضاض على حامية حماة بما يمكنني جمعه من المجاهدين ومهما كلفني الامر على ان اضع الجميع هذه المرة امام امر واقع لا يمكن اجتنابه . وقررت ان تكون ليلة ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ موعدا للشروع . وكان على مغامرتي يتوقف مصير الثورة وانقاذ الجبل ، وسحب القوات الفرنسية منه الى حماة . وبمغامرتي وحدها نتمكن من إحياء الثورة .

وقمت صباح يوم الجمعة في ٣ تشرين الاول ١٩٢٥ بجولة بين القبائل ، معينا لهم يوم الاحد المقبل ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ موعدا للشروع في الثورة. وبعثت رسلا الى حماة لدعوة هيئة اخرى للاجتماع عصر يوم السبت في ٤ تشرين الاول في قرية معرشعور على بعد كيلومترات من حماة . وكان سائق سيارتي الذي وضعه المستشار تحت تصرفي ، يسألني بين آونة وأخرى عن سبب تجوالي الغريب . فكنت اجيبه بأنني أفتش عن فرس منهوبة لأعيدها الى صاحبها . وكان السائق ممن لهم صلة بالمستشار . حتى اذا وصلت القرية ، وكان الاجتماع ، بعثت السيارة مع جنود على راسهم ميشال وأحمد الى فصائل السرية المتمركزة في جعلين ومحردة حيث امرتهم بالقاء القبض على الضباط الفرنسيين ، وسوقهم اليّ موثوقي الايدي ، وتسليم قيادة الفصائل الى عرفائنا ، حيث يسيرون باتجاه حماة حسب التعليمات المعطاة . حضر اخواني من حماة ، وحضر كذلك بعض مشايخ البادية . وبينما نحن في احاديثنا عن وقائع الجبل اذا بالسيارة تعود الينا حاملة الضباط الافرنسيين موثوقي الايدي . فأدخلوا الى المجلس ، حيث اعلنت للاخوان بأن الثورة قد بدات فعلا ، وان الضباط الآن تعرفوا على كل فرد من اعضاء مجلسنا ، وليس ثمة من سبيل لتجنب وقوعها . وكانت مباغتة لم يجد اخواني معها بدا من مواجهة الامر الواقع . كما بهت الفرنسيون لوجودهم وجها

لوجه مع هؤلاء ، وأنا بينهم . وهم لا يدرون سبب القاء القبض عليهم ، ولا ما سيحل بهم. وطلبت حالا من كل فرد ان يسجل ما امليه عليه من الاوامر لتنفيذها. وكلفت احد اخواننا ، ممدوح ، المتكفل بتجنيد مفرزة من رجال قراه أن يسرع الى وادي الساروت ، لقطع الطريق على الجنود الثلاثة المرسلين من الفصيل الذي اسرنا ضباطه ، وهم يحملون بريدا الى حماة . طالبا منه عدم تمكينهم من الوصول الى حماة ، اما بقتل العريف الارمني وجنديه ، واما بأسرهم . فتظاهر بالانصياع الى أوامري ، ولكنه عوضا عن التوجه الى وادي الساروت للقبض على الرسل الثلاثة ، ذهب توا الى مقابلة مستشار حماة ، يخبره عن اعلاني للثورة . وأخذ المستشار التلفون ، وعبثا حاول الاتصال بالفصائل في مراكزها . وعندها أبرق المستشار للحال الى بيروت ودمشق وحمص وحلب معلنا ثورتي . واتخذ كل ما استطاع اتخاذه من التدابير للدفاع عن المدينة ؛ سد ابواب الثكنات بالحجارة ، واقام المتاريس على سطوح الثكنات ببالات الحشيش المضغوط ، وعزز حامية السراي بسرية جلبها من حصن الشوفة ، غير ان هذه الترتيبات والحيطة والحذر جاءت متأخرة . وكانت ثورة حماة وزن الثقل الذي رجح كفتنا في النصر . فأنقذت ثمة الجبل ، وادت الى اخلائه من جيوش العدو وهزيمته ، والتزم خطة الدفاع بعد ان كان مهاجما . وفتحت امامنا ابواب ميادين سورية للثورة . وبهذه الترتيبات والاعمال التي قمنا بها تحت ظل رجال الجيش ورجال الامن الافرنسيين، خلال اربعة اشهر ، انخذل الذكاء والدهاء الفرنسيين امام ذكاء العرب ودهائهم.

وطلبت مشايخ القبائل الذين تعاقدت معهم للحضور لمواجهتي . ولما حضروا، اعلمتهم ان الثورة أعلنت ، وان الهجوم سيبدأ هذه الليلة على حماة ، وطلبت منهم جمع رجالهم في مكان ، وإرسال مراقبين منهم على التلال المشرفة على حماة . والوعد بيني وبينهم لهيب النار الذي سيشاهدونه مندلعا في حماة . عندئذ يحضرون ويتلقون التعليمات بشأن واجباتهم مساء ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ مع صوت المؤذن عشاء «الله اكبر» . وحلت الليلة الرهيبة ، ودخلت حماة مع غياب الشمس، لدار السيد الكيلاني ، المقرر اجتماعنا فيها . حتى اذا تم اجتماع الاخوان ، قمت فخلعت عني قيافة الجندية الفرنسية ، ورفعت القبعة التي على رأسي بكل احترام لأنها ، وثوبي العسكري ، كانا خير درع ، تمكنت به من إعداد الثورة ، ولولاهما لكانت ثورة حماة ، وما نتجت عنه امرا مستحيلا .

كانت تنحصر خطة مشروعنا بما يلي : الاستيلاء على مخافر الدرك والشرطة والاستيلاء على اسلحتهم وعتادهم . تخصيص مفرزة بقيادة سعيد ترمانيني لحماية حي المسيحيين من اي تعدّ . الهجوم على السراي واطلاق سراح المسجونين ، والاستيلاء على ما فيها من اسلحة وعتاد . ثم كان علينا بعد انجاز الصفحة الاولى من الخطة ، الهجوم على الثكنات في اليوم التالي واحتلالها .

اخذت المفارز مكانها المقرر . وجعلت بدء الشروع اذان المؤذن وقت العشاء .

فكان خير وسيلة يتوسل بها لابلاغ جميع المفارز الامر بالشروع في لحظة واحدة . وما كادت كلمة التكبير تدوي في سماء حماة ، عِشاء الليلة ، حتى دوّت معهـــا اصوات البنادق في جميع أطرافها . وما هي الا سويعات حتى تم الاستيلاء على المخافر كلها . فتجمعت قوى الفرنسيين داخل السراي التي هاجمناها في نفس الوقت . وبعد قتال عنيف دام حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، تمكنا من اقتحام البهو الرئيسي ، والاستيلاء عليه ، وإخلاء سبيل المساجين ، والاستيلاء على ما وصلت اليه أيدينا من البنادق والعتاد والسيوف وتمكن من بقي حيا من رجال الحامية من الافلات من ايدينا ، بفتح ثغرة في جدار السراي الخلفي المطل على اسطبلات آل العظم . ولقد كانت خسارتنا في الانفس جد عظيمة ؛ اذ كنا ، ونحن المهاجمين ، مكشوفين تحت ضوء القمر ، بينما المدافعون كانـوا يقاتلوننا وهم في ظلمة حالكة . وتمكن الثوار من إشعال السراي بما فيها، كما أشعلوا دائرة اخرى واقعة على الجسر . وتعالت النيران وشاهدها المترقبون من البدو . تمت هذه الصفحة الاولى من اعمالنا بنجاح عظيم .

تمكنت من جمع قوة من رجال الشعب المجتمعين في مختلف انحاء المدينة ، وبعثت رسلا الى القبائل بوجوب اللحاق بنا في اليوم التالي . وقد أوفى رجال البدو بما عاهدوني عليه ، فجاءني فريق كبير منهم في الصباح . فجمعت قوانا في محلة الحاضر ، ثم شرعت في توزيعها على منطقة الجسر ، وعلى الدور المشرفة على حماة ، وفريق في المآذن المسيطرة على ثكنات الجيش . ولقد حاول الفرنسيون الخروج بخيالتهم من الثكنة ، ولكنهم ما كادوا يصلون الجسر حتى قابلهم رجالنا بنيران مؤثرة ، ردوهم على أعقابهم . وظلوا قابعين في ثكناتهم طوال مكوثي في حماة .

وما أوفت الساعة السابعة صباحا ، حتى ظهرت طائرة مقاتلة في سماء حماة، حلقت فوق محلة الحاضر ، حيث قذفت قنابل ثقيلة . ولقد تمكنـا من إصابتها فاضطرت الى الانسحاب والسقوط خارج المدينة . وأتت بعد وقت قصير طائرة أخرى ، واخذت تقذف قنابلها على الحاضر ، وعلى أحياء المدينة . ولم تلبث ان ولّت بعد ان أصيبت . واشتد وطيس المعركة . ولقد استطعنا الصمود امام جنود ثكنة المرابط ، والحقنا بمن فيها خسائر فادحة . ولقد أرسلت مفرزة من خيرة رجالنا لمحاصرة دار المستشار ، الذي سبق ان أحاط داره بالجنـود ، ونصب مدفعا رشاشا ، اخذ يمطرنا بمقذوفاته . واندلعت ألسنة النيران في أطراف حماة، خصوصا في سوقها الكبير . وتمكن رجال الثكنة الملاصقة لسوق السمانة مـن الدفاع ضد هجومنا بقنابلهم اليدوية . ولقد اظهر رجالنا من البطولة ما يعجز عن وصفه القلم ؛ اذ انهم كانوا يتلقفون ما يقذفهم به رجال الثكنة من القنابل اليدوية قبل انفجارها فيسرعون الى قذفها على الجنود ، حيث تنفجر .

وفي اللحظة التي اشتد فيها ضغطنا على حامية حماة ، والتـــي ايقن فيها الافرنسيون انه لا مناص لهم من الوقوع بأيدينا لقمة سائغة ، ارتفع علم ابيض فوق دار المستشار ، فتعالت أصوات رفقائي ، وأكثرهم من الجنود والسجناء . ولم نر بدّا من ايقاف قذف دار المستشار . وظهر في هذه اللحظة من خارج حماة ، خارج الدور ، نجيب آغا البرازي ، في عربة ، وحوله فرسانه الذين لم يشترك احد منهم معنا ، متجها نحو دار المستشار . فأسرع الثوار الى رميهم فأمرت بعدم الرمي ، لانني كنت معتقدا أن نجيبا انما جاء لاستلام المستشار . اذ كنت حاولت الاتصال بنجيب آغا الليلة البارحة وصباح اليوم ، طالبا منه ارسال ما تعهد به البرازيون من رجال وفرسان ، فلم اتمكن . وعلمت انهم متجمهرون بأسلحتهم في دورهم داخل المدينة . فداخلني الشك من موقفهم الشاذ ، وعدم قيامهم بما تعهدوا لي به . وعند رؤيتي نجيب آغا ، ومن معه ، استبشرت وأيقنت انه انما قدم ليشترك معنا . دخل نجيب آغا دار المستشار . ولقد علمت فيما بعد بأنه انما جاء للاتصال بالمستشار والتفاهم معه ضدنا . ومراد نجيب آغا ان يفهم المستشار بأن هذه الثورة التي اعلنها فوزي القاوقجي ، لا علاقة للأهلين بها ، وانما هـــي عبارة عن عصابة من الجنود قاموا ضد فريق آخر من الجنود انفسهم . واستقبل المستشار نجيب آغا بغضب شديد ، مهددا . ومما قاله له : ان فرنسة التـــي قهرت المانيا لن تعجز عن إخماد الثورة وان اهالي حماة مسؤولون . ولا يمكـــن لنجيب آغا ولا للأهلين تبرير موقفهم من الثورة ، الا اذا نادوا بسقوط تشكيلات فوزي ، وإجبار فوزي ورجاله على ترك المدينة . وبدون هذا لن يتمكنوا من تجنب المسؤولية التي سوف تقع على رؤوسهم . وظل العلم الابيض مرتفعـــا على دار المستشار حيث خدعنا به . ولو أنزله لتيقنا من خيانة نجيب آغا في تلك الساعة، ولتابعنا ضغطنا على دار المستشار من جهة ، وهاجمنا البرازي ورجاله من جهة اخرى . حتى نتمكن من القبض على الجهتين .

وخرج نجيب آغا من لدن المستشار ، وبدلا من أن يأتي صوبنا لإخبارنا بما جرى بينه وبين المستشار على الاقل ، اتجه صوب دور الوجهاء مرسلا جماعة من رجاله للاتصال بالمجاهدين ، طالبا من الجميع الكف عن قتال الافرنسيين ، مهددا بورود نجدات عظيمة منهم . ولم يتورع عن التنديد بأعمالي ، وانني كنت المسبب في خراب حماة . وان على الحمويين ، اذا ارادوا دفع الكارثة ، ان يجبروني على ترك المدينة ، والخروج بمن معي . وبذا تمكن نجيب آغا ورجاله من التأثير على الاهلين ، وعلى الاخص على المجاهدين ، فأخذوا ينفضّون من حولنا ، ومع كل ذلك لم يتمكن الفرنسيون من الظهور أمامنا . ومر في هذه الاثناء قطار الجنوب، متجها الى حلب . فأرسلت حالا مفرزة كي ترميه بعض الطلقات ، تنشر الرعب في ركابه فيحملون معهم اخبار الثورة الى حلب . وتعمدت ذات الوقت اطـلاق النيران الكثيرة ، فأسرع القطار في سيره وهو لا يلوي على شيء .

كنا قطعنا الاتصال بين الشرفة وبقية الثكنات . حيث انعزلت تماما . وكانت ثكنة المرابط والموقف قد خمدت نيرانها ، وضعفت حاميتها لدرجة عدم استطاعتها متابعة الدفاع . واستحالتا الى مستشفى من كثرة الاصابات التي وقعت في الجنود ، حيث امتلأت بالقتلى والجرحى . ولم يعد يسمع صوت طلقة . فكان الثوار هذه اللحظة منتصرين على المراكز العسكرية كافة . ولم يبق الا حصار تحكيمات الشرفة ، وقطع الخطوط الحديدية شمالا وجنوبا عن المدينة . ولكن ويا للاسف ، قد أثمرت جهود البرازي ، فلم نفعل .

وجاء في اللحظة من أخبرني باجتماع يعقده وجهاء المدينة في دار الكيلاني وكان نجيب آغا قد عقده لاقناعهم بالتخلي عني . فأسرعت اليها فاذا بي امام علماء البلدة ووجوهها ، وكان معظمهم ممن عاهدني عهد الله وميثاقه على جهاد الافرنسيين . فوقفت فيهم خطيبا حيث أعلمتهم ما نحن عليه من التفوق والفوز في هذه اللحظة . فرد السيد فريد الكيلاني ، قائلا : انك يا فوزي عاهدت الله ، ووفيت . اما نحن ، فلا نشعر بقوة تدفعنا لتحمل هذه المصيبة دقيقة واحدة . وان لك الوجه الابيض . فأجبته بأنني لم أعاهد لخوض معركة واحدة ، وإنّا سادة الموقف الآن ، منتصرون على الفرنسيين القابعين في ثكناتهم ، وانهم لن يستطيعوا الخروج لمقابلتنا ما دام سلاحنا في أيدينا . فهبّوا للوفاء بعهودكم . فاذا لم تفعلوا وخرجت من بلدتكم ، فوالله ستحل عليكم المصائب ، فادفعوا الوهم عن رؤوسكم، واستعينوا بالله وثقوا بنصر يأتيكم من لدنه .

ولم يكن جوابهم على خطبتي الا البكاء والنحيب . وعبثا حاولت اقناعهم . وافرنقع عني كل من قاتل معي الا مراسلي الامين الجندي علي المغربي. فاتجهت بعد أن وصلت ثورة حماة الى هذا الموقف ، شطر القبائل ، لإثارتها ، ونشر الثورة في ربوع البادية . خرجت من حماة تحت ستر الظلام ميمما شطر منازل الموالي ، الذين سبق لهم ان عاهدوني . حتى اذا وصلت بيت الشيخ فارس العطور ، سألته منفعلا : اين العهد الذي عاهدتنيه ؟ أجابني : انني في انتظار امرك . قلت : ارسل حالا بضعة فرسان من رجالك الى محطة كوكبان لحرقها . فلم يتأخر الشيخ . ثم طلبت منه فريقا من الفرسان للهجوم على حامية المعرة . فأعد لي ما طلبت . ويمّمت المعرة حتى اذا جنّ الليل كمنت في أحد وديانها حتى الظهر . حين بعثت حامية المعرة خيلها لبئر واقعة خارج الثكنة لسقيها . وكانت الحامية نصبت الرشاشات على أسطحة الثكنة ، وأعدت لمفاجأة اي طارق عدتها .

خرج الفصيل الاول للورود . حتى اذا رجع الى الثكنة ، وخرج فصيل آخر، انطلق رجالنا مغيرين كالعاصفة . وتمكنا من الوصول الى قلب الخيل ، قبل ان تتمكن جنود الرشاشات من طلقة واحدة . فقُتل احد الضباط وعدد من الجند. وغنمنا ما يقارب الثلاثين فرسا وعددا من بنادق الجنود وعدنا الى مخيم الشيخ

غانمين ، دون اية خسارة تقع فينا . وعم المنطقة فوضى ، بعثت السلطة على أثرها طائراتها ، وقطارا مصفحا لتأديب قبائل الموالي . وبذا نجحت الصفحة الثانية من الثورة ، وهي نشر الثورة خارج حماة . وبقيت عشيرة الموالي في اشتباكات مستمرة مع الافرنسيين .

وتركت قبيلة الموالي ، وتوجهت انا ومراسلي المغربي ونجدة من عشيرة العبادات يرأسها احمد الكردوش ، صوب منازل السبعة معاهديّ ايضا . وطلبت من الشيخ افراز جماعة من قومه لمشاركتنا في الهجوم على قرية الحمراء، المتمركز فيها فوج الجيش للاستيلاء على اسلحته . فبعث معي عددا كبيرا من رجاله . وتبعنا كذلك رجال كثيرون وأباعر لتحمل المنهوب . وسرنا بآخر الليل . وخفت من كثرة الجمع الذين يصطحبهم كثير من غير المحاربين ، من فوضى تحصل خلال المعركة ، فنتعرض لخسائر كبيرة دون فائدة . فعمدت الى حيلة قد تنطلي على الفوج الفرنسي وهم منقطعون عن بقية الجيش ، ومعنوياتهم لا بد ان تكون متحطمة . لذلك اخترت رسولا أرسلته اليهم يعلمهم بقدومنا على رأس عدد عظيم من الثوار كامل العدد . وطلبت من الرسول ان يبالغ في وصف قوانا ، وأن معي جموعا عظيمة من رجال القبائل وأن يطلب منهم أجرا على خبريته . وطلبت اليه في الوقت نفسه ان يتجسس لنا عن ترتيباتهم على ان يوافينا بالاخبار قبل الوصول الى أطراف القرية . وأقبل رسولنا مع الصباح نحونا يبشرنا بأن الجيش انهزم من القرية ، تاركا فيها بعض معداته وأرزاقه . وانتشر الخبر بين رجال البدو . وعبثا حاولت توجيه جموعهم لقطع الطريق على الجيش المنهزم ، والاستيلاء على اسلحته . فقد آثروا الهجوم على القرية والاستيلاء على متروكات الجيش . وفي لمحة كانت المنهوبات محملة على ظهور الخيل والإبل ، حتى ظهور رجالنا أنفسهم. ومع ذلك تمكنت من اصطحاب قسم لا بأس به من الفرسان ، وانطلقنا وراءهم . وما نشبت المعركة حتى هرع اهالي القرى الموجودة في جوار الطريق ، واشتركوا في القتال . ولقد مُني الفوج الافرنسي المنهزم في طريقه الى حماة بخسارات فادحة ، اذ لحقت به بقية اهالي القرى التي مر بها ، وتمكن اخيرا من الوصول الى مدينة حماة ، ولكن بحالة يرثى لها، وبكثير من الخسائر في معداته وأرواحه.

وجرت مخابرات على اثر استفحال امر ثورة حماة بين الجنرال غاملان والجنرال سراي اذ أصرّ هذا على وجوب ترك ثلث القوى الفرنسية في الجبل وسوق الثلثين الى حماة ، لاخماد ثورتها . فاعترض الجنرال غاملان لاعتقاده بعدم استطاعة هذا الثلث الصمود امام قوى الدروز في الجبل . وألح بوجوب سوق جميع القوى الى دمشق وحماة . فنزل سراي على رأي زميله ، وأخلى الجبل من الجند وأبقى حامية قوية في ازرع . ولقد اعترف رون دوكيه في احد تقاريره ، كما أقر بذلك الجنرال سراي ، بأنه لولا ثورة حماة التي قام بها احد الضباط السوريين ، الحائز لثقة القواد الفرنسيين الاداريين والعسكريين منهم ،

لقضي على ثورة الجبل بدخول الجنرال غاملان السويداء . ولكن ثورة حماة اضطرتنا الى سحب قواتنا من الجبل ، وسوقها الى سورية ، التي عمت الثورة أرجاءها ، وجعلتنا نشعر بأننا نعسكر في بلد معاد . وكان من اهم نتائج ثورة حماة حقا انقاذ الجبل ، وفتح ابواب الغوطة وإقليم البلان والقلمون وسائر الميادين امام الثوار . وهكذا تحولت الثورة الدرزية الموضعية الى ثورة سورية شاملة ، دامت ما يقارب السنتين .

قضي الامر ، وعمت ثورة حماة جميع القبائل القاطنة ما بين حماة وحمص والدير ، وشعر الفرنسيون بخطورة الموقف في شمال سورية الخالية من الجند. ولم يبق أمامي بعد اثارة تلك القبائل الا ادخال محجم بن مهيد زعيم قبائل الفدعان في عداد الثوار . وكان علينا لاستدراجه أن نثير نخوته القبائلية ، وأن نؤكد له عدم مقدرة الفرنسيين على البقاء في البلاد ، وأن لا نضيع هذه الفرصة لانها لا تتكرر . وكتبت اليه بهذا المعنى . وتمكنت اخيرا من اقناعه بأن يرسل فريقا من رجال قبائله الينا لمهمة قطع الطريق بين الفرات وحلب . فقبل وأرسل بعض من ينتمون الى عشيرته . وانقطعت الطرق في شمالي الجزيرة وعمت الفوضى . وكان سبب تخلفه هو تخوفه من قبائل العقيدات التي يعتقد بموالاتهم للافرنسيين. وكانوا يقطنون أطراف دير الزور وعلى ضفاف الفرات . ولقد اشترط وجوب اشراك قبائل العقيدات المذكورة لانضمامه الينا . فكان لا بد لي من الاتصال بمشايخ العقيدات . فسرت مع رفيقي الشيخ أحمد بن كردوش شيخ العبادات الى مشايخ العقيدات ، لاقناعهم . فأقسموا لي بعدم الاتيان بأية معركة ضد قبائل ابن مهيد، فيما اذا اشترك معنا في الثورة ، بالرغم من تخوفهم من الشيخ نجرس العقود شيخ قبائل الدليم . على اني اذا جئتهم بعهد من نجرس بعدم التعدي عليهم ، ثاروا معي . وكانت قبائل الدليم تنزل ضفاف الفرات ، ضمن الحدود العراقية . وعدت بذاكرتي الى سنواتي الاولى في الموصل ، يوم انقذت الشيخ نجرس نفسه من المشنقة . وتركت منازل العقيدات ، واتجهت صوب تدمر ، وشاهدت سيارة تقترب من مخيمنا ، فأشرت على سائقها بالوقوف . فاذا بها جماعة من تجار الاغنام في حلب . ورغبت منهم اعطائي سيارتهم لشدة حاجتي اليها ، على ان أعيدها اليهم بعد ايام . فأبوا . فاضطررت الى اخذها . وكان سائقها مصريا . وأخذت لمرافقتي الحاج مصطفى الديب احد ثوار حماة وطلبت دليلا شمريا ، عالما بمسالك طرق العراق جيدا . وسارت السيارة بنا في البراري والهضاب حتى وصلنا حدود العراق . وسلكنا في بعض الاودية ، وخرج علينا جنود عراقيون وبأيديهم اسلحتهم ، وتقدموا صوبنا ، واضطررنا الى النزول في هذه النقطة العسكرية التي أسست جديدا على الحدود ، اثر حوادث الثورة السورية .

أدخلنا الجنود الى احدى الخيام ، وقام رئيسهم بسؤالي عن هويتي ومقصدي من سفري . أجبته بأني تاجر أغنام حلبي ، وان رعاة غنمي من قبائل عنزة ، واني

آت الى اول مدينة عراقية لمشترى بعض الملابس والفراء لهم . قال عليك اذن الذهاب الى الرمادي ، حيث تعرض على متصرفها امرك . وكان في هذا القضاء المبرم على حركتي . ودام الأخذ والرد بيننا مدة . وفيما نحن في جدالنا عرفني احد جنود المخيم ، وكان سابقا هجانا في الجيش التركي ، وفي الجيش الافرنسي فيما بعد . فتحايل صارخا في وجهي وهو يجرني اليه ، متباعدا بي عن رئيسه. وسألني : ألست فوزي ؟ قلت : نعم ، انا هو . قال : اعلم انك والله هالك اذا لم تخرج حالا من هذه النقطة . لان لدينا تعليمات بعد اعلان الثورة السورية بوجوب القاء القبض على اي شخص يجتاز حدودنا ، وارساله الى الرمادي . وعما قليل يأتي الضابط الانكليزي ، وعندها يمسي الامر مشكلا . ثم قال اسمح لي أن اختلق موضوعا لشتمك وطردك ، على ان لا تجابهني . وبادرني الجندي بسبابه وطردنا شر طردة . ولما ابتعدنا عن المخفر سردت على رفاقي ما وقع بيني وبين الجندي ، وما اتفقنا عليه . وحين اصبحنا على بعد ساعات من عانة ، وهي أقرب بلدة عراقية منا ، نفد بنزين السيارة ، واضطررنا الى دفعها بأيدينا مسافة ما ، لمداراتها في احد الاودية . وبعثت الدليل وأحد الرفاق الى عانة لمشترى ما نحتاجه من البنزين والطعام . ثم اتجهت بنا السيارة نحو (هيت) حيث ينزل نجرس العقود . وكانت قضية الموصل وقتئذ قائمة بين الترك والانكليز . وقد سبق للاتراك ان أرسلوا دعاتهم وجواسيسهم الى أطراف العراق ، فكان لزاما على السلطة ان تتخذ الحيطة والحذر . لذا كان الوصول الى هيت دون لفت نظر المخافر من الصعوبة بمكان . فأمرت السائق بتجنب الطريق والاتجاه نحو القبيسة . حتى اذا ظهرت علينا بساتينها ترجلنا ، وبعثنا بالسيارة الى الرمادي لانتظارنا فيها . سرنا في بساتين القبيسة ، حتى اذا حاذينا كوخا على ضفاف الفرات التقينا اصحابه الذين خالونا أتراكا ودعوا لنا بالنصر . وتدرجت في حديثي معهم الى ذكر نجرس العقود ومكان نزوله . فأشار احدهم بيده نحو القصر الواقع قبالتنا وبعثت أخبره بأنني صديق حميم له من الموصل . وبعد هنيهة جاءني فعرّفته بنفسي ، فرحب بي ، وقال انه على أتم استعداد لطرد الحكومة العربية من البلاد . وهو يخالني ضابطا مرسلا من قبل الترك . وكان قد سبق ان عاهدني على الاخلاص لهم ، ليبرهن لي انه لم ينس العهد الذي قطعه . ولكني طمنته بقولي : اني لم آتيك لهذا . ثم اخذت في سرد ما وقع لي منذ أن فارقته والغرض الذي من اجله أتيته . واظهر استعداده للموت معنا . فشكرته . ثم ذكرت له خطورة موقفي من حكومة العراق ، واني أخشى ان تعلم بأمري . وان الامر الذي من اجله قصدته الحصول على عهد خطي منه بعدم تعدي قبائله على قبائل العقيدات . فنادى (الملا) ، وأملى عليه عهدا بتأمين قبائل العقيدات على أنفسها وأموالها . ثم كتبت كتابا الى صاحب الجلالة الملك فيصل ، وآخر للمرحوم احمد مريود أعلمهما بتفاصيل ثورة حماة وما تبعها من الاعمال .

وشاعت الاخبار بوجود رجل غريب ، قد يكون جاسوسا تركيا عند نجرس

العقود ، فأخذت السلطة تتحرى الامر . ودخلت كوكبة من الفرسان باحة القصر. وكنت وقتئذ متنكرا بلباس عربي ، لا يستطيع اقرب المقربين الى معرفتي فيه . وكنت أتقن اللهجة البدوية ، فشرعت اباحث بعض من كان في المجلس عن المراعي الخصيبة التي جذبتنا للنزول فيها . ثم التفت الى نجرس قائلا : انني منصرف الساعة الى منازلنا على الضفة الغربية . وخرجت من قصره ، حيث تواريت عن الانظار . حتى اذا خرجت الدورية من القصر خرجت من مخبئي وعدت الى نجرس ، حيث طلبت منه إعداد وسيلة لحملي الى الغوطة التي استفحل امر الثورة فيها . فأعدّ لنا جملا ودليلا شمريا وزادا وقربتي ماء . حتى اذا خيم الظلام عبرنا النهر غربا متجهين نحو الشام . وكانت المسافة ما بين قصر نجرس ودمشق لا تقل عن الستماية كيلومتر . فكنا نسير ليلا ونهارا ، يتخلل مسيرنا في الاربع والعشرين ساعة اربع ساعات ما بين نوم وراحة واكل ورعي البعير . وكان وقت قدومي الى العراق شتاء، وكانت عودتي من رحلتي الىنجرس في – مربعانية الشتاء – . والوسيلة الوحيدة التي لدينا للوقاية من البرد في السير فقط . لذلك أضحت أقدامنا من تأثير السير كخف البعير غلظة .

وعند وصولنا أطراف (القعرة) ، وهي مراعي تجتمع فيها القبائل السورية في فصل الشتاء على الاغلب ، وجدت فريقا من قبائل العقيدات . فطلبت منهم رسولا يرافقني الى الشيخ . فقال لي احدهم : لا فائدة من ذلك الآن لان المستشار الافرنسي كوستيلير سبقني الى ابن مهيد ، واقنعه بلزوم البقاء على الحياد مغدقا عليه الاعطية وشتى المواعيد . وقد اثر موقفه ذاك على سائر قبائل العقيدات ، واضحى من الصعوبة بمكان إثارتهم . ولم تجدِ محاولتي نفعا ، واضاعت عليّ الوقت الثمين الذي كبدني مشاق ومتاعب كنت في غنى عنها .

وبعد سير خمسة عشر يوما بدات تطلع علينا منازل القبائل السورية . وكنا نصادف احيانا بعضا من رجال القبائل الذين اشتركوا في الثورة ، حتى اذا سألناهم اخبارها ، أخذوا يقصون علينا اخبارا غريبة . ولولا بعض الحكايات المختلقة عني ، لأيقنت بصدق ما يخبرونني . وكنا حينذاك على مقربة من قرية (ضمير) . فنكون اذن قد قطعنا الصحراء الممتدة من ضفة الفرات الغربية الى هذه القرية التي هي على ابواب دمشق بأربعين يوما .

وكنت جد متشوق لاستطلاع الحالة العامة للثورة . فكان الهدوء عند وصولي الى (ضمير) شاملا جبل الدروز . ولم يكن للافرنسيين فيه اثر . وقد سبب هذا الهدوء غير المألوف اختلافا في الآراء بين زعماء الجبل . فكان سبق ان ارسلت بعض المفارز الدرزية الى اقليم البلان وحاصبيا وراشيا للقيام ببعض الحركات فيها. اما الغوطة فكان فيها معارك موضعية استكشافية بين حين وآخر، وكان بطلها حينذاك المرحوم حسن الخراط ، الذي احرز انتصارات عديدة على الفرنسيين . اما منطقتي جيرود وجبل قلمون فكان السيد نسيب البكري يقوم

فيهما بعمل اداري اكثر منه حربي ، كما كان يغذي الغوطة بنجدات من متطوعي تلك المنطقة . ولم يكن اثر للنظام في مناطق الثورة . واتصلت اخيرا بالسيد نسيب البكري ، وكنت لا ازال محتفظا بقيافتي البدوية القذرة ، فتلقاني وصحبه، ومن بينهم المجاهد توفيق هولو حيدر بالترحاب ، واخذت أسألهم عن وضع الثورة . فوجدت ان نفوسهم غير مطمئنة للحالة ، وآمالهم بالنصر ضعيفة . عندها قررت التوجه الى الجبل لمقابلة سلطان ، وللاطلاع عن كثب على حالة الجبل ، ولاطلب منه قوة درزية انحدر بها الى الغوطة وجبال قلمون ، أستعين بها على تنظيم مناطق الثورة وتأمين مواردها ، وتنظيم مجاهدي القرى على شكل نضمن به الاستمرار في الاعمال .

وكان الاستياء عاما جميع قرى الغوطة لكثرة ما يطلب منها من التكاليف ومواد الاعاشة ، خاصة من معاملة بعض مجاهدي الدروز . ولما عرضت فكرتي على نسيب البكري ، حبذ رايي ، وكان يميل لمقابلة سلطان ، فسرنا معا . حتى اذا وصلنا حيث سلطان باشا ، انزلنا ضيوفا عليه . وزارني الامير عادل اذ ذاك ، وكان له نفوذ عظيم في الجبل ، وهو يتحلى بصفات الشجاعة والتضحية والاخلاص. كما زارني الدكتور شهبندر وكان غادر الجبلالى فلسطين اثر تقدم الجنرال غاملان الى السويداء ، ثم عاد اليها بعد انسحاب الافرنسيين ، وانتشار الثورة ثمة في سورية . وللدكتور صفات نادرة من الذكاء والمقدرة في الخطابة والدهاء والتأثير على مخاطبه .

واتصلت بمعظم الزعماء السوريين . وبعد درس وتمحيص وجدت ان حالة الجبل أسوأ مما كنت اتصور؛ اذ ان الاختلاف بين الزعماء ، امثال نسيب البكري والامير عادل والدكتور شهبندر من جهة، وسلطان باشا وبعض زعماء الدروز من جهة اخرى . وكان لكل حزب من يعضده ويشجعه . اما السبب في توسع شقة الخلاف فيرجع الى طرق توزيع اموال الثورة على المجاهدين . كان قسم من التبرعات يرسل رأسا باسم سلطان باشا ، كما ان قسما يأتي باسم الامير عادل وقسما آخر باسم الدكتور شهبندر . وكان كل من الاحزاب الثلاثة في عمان والقدس والقاهرة يسعى لتأمين نفوذ رجاله الموجودين في الثورة ، حيث يبعث بما يصل الى يده من الاموال والتجهيزات الى حزبه لتقوية نفوذه والسيطرة على رجال الثورة . وكل حزب يرمي الى اظهار نفسه بمظهر المسيطر على سياسة الثورة كيما تنحصر المفاوضات معه دون سواه . فكانت اللجنة التنفيذية في القاهرة والتي يراسها ميشيل لطف الله تتمتع بأكبر نفوذ سياسي . وكان للامير ميشيل وقتئذ مطامع في سورية يأمل الوصول اليها عن طريق الثورة . وكان اكثر اعضاء هذه اللجنة تؤيد الدكتور شهبندر ، ومنهم رئيسها وحسن الحكيم وتوفيق اليازجي . اما الشيخ رشيد رضا وأسعد داغر فكانا يريدان حزب الاستقلال ، الذي يهيمن عليه السيد عادل العظمة في عمان ، كما أن رجال حزب الاستقلال ،

ولجنة القدس كانوا يسندون الامير عادل من جهة ، وسلطان والمرحوم رشيد طليع من جهة اخرى .

وسعى الدكتور شهبندر الى استمالة بعض زعماء الدروز وبعض زعماء الغوطة الى صوبه . اما الامير عادل فأسس مقرا له في السويداء . وكان يبذل ما يصل ليده في مشترى الاسلحة والعتاد خصوصا الرشاشات . وكان لديه أفضل مجموعة مجهزة . وكان السيد نبيه العظمة في قصر الامير عادل .

اما سلطان فكان يتمتع بأكبر نفوذ بين ثوار الدروز ، وكان مركزه الاجتماعي وانتصاراته خير معين له لضم الاكثرية الى جانبه . وكانت الفرصة سانحة للمستشار كوستيلير ، المقيم حينذاك في درعا ، لاستثمار الخلاف الواقع بين المجاهدين . وكان يرمي من وراء ذلك عزل الجبل عن الغوطة وسائر مناطق الثورة ، بإغداقه الاموال علّه يصل الى هدفه عن طريق المال بعدما فشل عن طريق الجيش .

وجدّ الافرنسيون من جهة في تحصين مراكزهم المتعددة ، وجمع ما يمكنهم جمعه من قواتهم فيها ، بقصد مفاجأة منطقة من مناطق الثورة والقضاء عليها . وبث دعاتهم داخل مناطق الثورة وخارجها لبذر الفساد بين الصفوف من جهة ثانية .

هذه مجمل الحالة عندما وصلت الى الجبل ...

***

شمل الهدوء الغوطة الا بعض حركات العدو الاستكشافية ، وطائراته الاستطلاعية . فعزمت على الذهاب الى القلمون لايقاظ روح الكفاح فيه . وبينما انا في قرية الرحيبة مع نفر من اصحابي ، وصلتني رسالة من نسيب البكري يطلب مني فيها الالتحاق به بسرعة في (عسال الورد) ، لأن الافرنسيين استطاعوا التأثير على بعض اهالي القرى وشكلوا منهم جمعا يحارب تحت لوائهم ضد ثوار الغوطة لحماية جبل قلمون . ولما وصلت اليها لم أجده هناك بل كان في قرية مجاورة . وما كدنا نستقر حتى هاجمتنا طائرتان ثم ظهرت خيالة العدو، فاتخذنا لانفسنا مواقع دفاعية . لكن جماعتنا انسحبوا وشردوا ، فأخذت انادي الى أن عادوا ثانية الى خط الدفاع . ثم تركت الخط بقيادة الاخ عادل الحامدي وذهبت مع من معي من الخيالة لأغامر بمهاجمة مؤخرة العدو وجناحه الأيمن . وطلعنا على العدو ومن معه من العرب الذين ضمهم الى جانبه من الأودية علىشكل دائرة كبيرة، ففوجىء بنا وأسرع جنده الى جيادهم ، فتتبعناهم وأصليناهم نارا حامية الى أن

هزمناهم الى قرية جبعدين فدخلناها اثرهم فسقط منهم الكثيرون . ثم احرقنا القرية بما فيها من أرزاق وأثاث حتى نلقن كل من تسول له نفسه التعاون مع الافرنسيين درسا قاسيا . ولم ندع للافرنسيين مجالا للتحصن في جبال يبرود، وطاردناهم الى جهة النبك . فاحتللنا القمم المجاورة ليبرود . ودخل بعض رجالنا القرية فلم يجدوا مقاومة . وملأ الذعر قلوب الاهالي فتركوا القرية والاسواق . وشغلت المجاهدين بأعمال الاستعداد لما قد يصل من النجدات الفرنسية من النبك. ووزعت القوى على الهضاب المجاورة . ووضعنا مدفعا من عيار ٣٧ مم غنمناه من الافرنسيين على قمة مشرفة ، وكان بدون (سيبة) . وكان رجالنا يخافون من اطلاقه اكثر من خوفهم من مدافع العدو . وطلبت رئيس البلدية ووجوه القرية ولمتهم على اشتراك بعض رجالهم مع الافرنسيين وهددتهم . ووصلت بعد الظهر طلائع العدو تتقدم بسرعة صوب يبرود ، فاشتبكنا معها في قتال عنيف . ولم يستطع العدو اختراق صفوفنا لاستعدادنا الكافي . ثم قمت بمن جمعته حولي من الخيالة بهجوم على جناح العدو الايسر . فارتد من عنف المفاجأة وانسحب . وتتبعناه ، وانقلب الانسحاب هزيمة نكراء . وكان نصيب الجيش الافرنسي في هذه المعركة أسوأ مما أصابه في معركة الصباح ، وتمكن من الافلات الى النبك . وكان من نتائج هذه المعركة استعادة نفوذنا على جبال قلمون كافة . ولكن الافرنسيين نظموا بعد ايام حملة جديدة كبيرة لطردنا من القلمون ، وأخذت أخبار تجمعاتهم في النبك ترد الينا . ووردت أخبار حملة قادمة من دمشق عن طريق وادي منين . فأصبح موقفنا حرجا ، لذلك اتخذت مركزا متوسطا ، وأرسلت من يرصد حركات جيش العدو .

خرجت علينا القوتان في وقت واحد . ورغم محاولاتي إشغال قوة النبك ، او تأخير مسيرة قوة دمشق ، فان قوة العدو كانت متفوقة ، ولم نتمكن من المقاومة طويلا لقلة عتادنا ، ولنفاده . وأخذنا نتراجع نحو الهضاب الشرقية لقرية برزة . وانتهت المعركة بانسحابنا الى الغوطة وبعودة جيش الفرنسيين الى دمشق. وكانت خسارتنا مهمة ، كما ان العدو تكبد خسائر فادحة .

كانت الغوطة لا تزال على ما كانت عليه قبل معارك القلمون من الاختلاف والانقسام . لكن ظهر لي اخيرا أن هناك رغبة عند الكثيرين في التنظيم والتوحيد. وفاتحت نسيب البكري بالفكرة واتفقنا على محادثة الزعماء والرؤساء . وصدف أن حضر الدكتور شهبندر ، فشرحت له الحالة ، واقترحت عليه الاستفادة من هذه الفرصة المؤاتية ، لتنظيم الثورة في الغوطة . فوافقني . لكني اكتشفت فيما بعد ان الدكتور كان يحاول القضاء على نفوذ البكري وغيره في الغوطة ، وإقامة زعامة له ، ولاسيما أن مركزه في الجبل قد ضعف أمام نفوذ الامير عادل . وأخذ يوزع الاموال على بعض المجاهدين ، ويسعى ما أمكن لابعاد البكري عن رئاسة اي اجتماع . وأخذ البكري بدوره يسعى لاستمالة فريق آخر . فازداد الموقف

حراجة وتوسعت شقة الخلاف ، وعمت الفوضى في الغوطة . ولما تأكدت أن لا فائدة البتة من اي مسعى عزمت أن اترك ميدان الغوطة ، وأن أتخذ من جبال قلمون منطقة للثورة أقوم على تنظيمها وإدارتها لتكون نموذجا ومثالا يحتذى . وأنا أعلم ما يتطلب ذلك من جهود ومغامرات .

انتخبت من اخواني المخلصين فئة ، وتوجهت الى قرية ضمير . وكانت اعمالي في جبل قلمون قد زادت من ثقة الناس بي . والفت للحال محكمة برئاسة عادل الحامدي وعضوية مشايخ ومخاتير القرية . وفرضت على القرية عددا من الرجال احتياطيين يعدّونهم لتبديل من معي من المجاهدين كل خمسة عشر يوما ، ويؤمنون إعاشتهم ووسائط نقلهم . واصبحت لنا قوة ورهبة خاصة بعد تنفيذ حكم الاعدام في احد الجواسيس . ثم رحلت عن القرية تاركا المحكمة فيها الى قرية الرحيبة ، وقمت فيها بما قمت في قرية الضمير بنجاح باهر . وقد راق هذا لاهل القرى ، اذ خفت عنهم الاعباء ، وأمّن ذلك دوام الثورة طويلا . حين لم اكلف القرية الا بإعاشة رجالها . ثم قسمت الجبل الى مناطق وقيادات . وشكلت دركا وطنيا من اهل القرى لتأمين الامن . فوحد لنا هذا العمل جبل القلمون ، واصبحت هناك حكومة وطنية تقوم بالاعمال ، ولم يشغل الاهلون عن أعمالهم الزراعية .

لم يرتح الافرنسيون لهذه الاعمال والاخبار ، فقرروا تحشيد قوات كبيرة في حمص والنبك . فتوجهت مع من معي بقصد احتلال النبك قبل أن يبدأ الفرنسيون بتحشيداتهم . تقدمت الى يبرود حيث كمنت بالقرب منها طيلة النهار ، ثم تابعت المسير الى النبك . فقسمت القوة ووزعتها لنقوم بهجوم على محيط البلدة فنخترق الى المركز للاستيلاء عليه . وتم الاستيلاء على النبك ما عدا المركز الاساسي المحض وبعض المراكز القريبة منه . وبدأت خسارتنا تتزايد . ولما ايقنت ان لا فائدة سحبت القوى وتراجعنا باتجاه يبرود ، وطلبت القسم الثاني الاحتياطي من المجاهدين ، واخذت أقيم خطا دفاعيا وأحفر الخنادق استعدادا للقاء الفرنسيين بالقرب من يبرود .

زحفت الجيوش الفرنسية الى يبرود ، واحتلت هضابها الجنوبية ، واخذت ترسل المصفحات للاستطلاع . ثم زحفت في صباح اليوم التالي برتلين قويين بينهما الخيالة . وبدأت سلسلة من المعارك شديدة للغاية ، وعلى نظام لم تعهده ميادين الثورة . وكنا نتراجع من موضع الى آخر ، والفرنسيون يتكبدون خسائر فادحة . وقد تضايقت من قلة العتاد ، واخذت أستصرخ الغوطة ، التي تم فيها تشكيل مجلس وطني برأسه نسيب البكري . اما الامور العسكرية فكان يستلمها مصطفى وصفي . ولكن ذهبت نداءاتي بلا فائدة ، في الوقت الذي كان في الغوطة آلاف مسلحة عاطلة عن العمل بسبب عدم خروج الافرنسيين للقتال فيها . وقد اثر ما وصل الى الغوطة من أخبار تنظيمنا ، ومعاركنا في نفوس رجالها ، فبدأوا

يثورون على الوضع عندهم . واضطررنا بعد معارك لامعة خالدة الى اخلاء الجبل ، وانسحبنا الى الغوطة لنفاد العتاد ، ولتفوق العدو بعدَده وعدده بصورة هائلة .

وما كدت أستقر فترة ، حتى حدث في الغوطة ما يشبه الثورة . وتهددت حياة بعض القادة والزعماء . وكان بطلا هذا الانقلاب الشهيد المرحوم شوكت العائدي والدكتور امين رويحة . اذ ختما المضابط وأتياني طالبين مني استلام القيادة في الغوطة . وعلى الاثر حضر نسيب البكري يرجوني التمهل الى أن يعقد المجلس الوطني جلسة يقرر فيها ما طلبه الثوار من إسناد القيادة اليّ ، فيكون الامر قد تم برضى الجميع . وتم ذلك وقرر المجلس في جلسة فوق العادة إسناد قيادة الغوطة وشمال سورية اليّ مع اعطائي صلاحية المجلس نفسه ، وتعطيل المجلس السابق مؤقتا ، وإخبار سلطان باشا بالامر وطلب الموافقة منه .

عقدت على اثر قرارهم جلسة حضرها اكثر الزعماء، واشترطت لقبول القيادة امرا واحدا هو الطاعة ، ما دمت عاملا للمصلحة ، وفي سبيل إنجاح الثورة . وانتهت الجلسة بمظاهرة حماسية . وهكذا اصبح هذا الجندي البسيط ، الذي بدأ جهاده ، ولم يكن يملك سلاحا ولا نفوذا ، قائد ثورة الغوطة المطاع عن رضى وثقة .

كان اول عمل قمت به بعد استلامي القيادة ، اقامة خط دفاعي مقابل خط الافرنسيين الدفاعي ، ثم قسمت الغوطة الى مناطق ، وفي كل منطقة قوة وقائد . والفت هيئات ادارية مستقلة عن الاعمال العسكرية تقوم بجمع الضرائب والاعاشة التي تؤخذ من القرى كلّ حسب طاقتها ، ثم توضع في مستودعات حريزة خلف الجبهة . والفت هيئة لجمع الأعشار ، وجباية الرسوم على كل ما يصدر من الغوطة او يردها من دمشق . وجعلت من المرج الذي قسمته الى منطقتين منابع احتياطية . فتحسنت الحالة ، وزادت الموارد . وأخذ الفرنسيون ينظرون الى ما يصلهم عنا من اخبار بقلق عظيم . وكان قد وصل الكونت «جوفنيل» الذي اراد اولا التفاهم ثم أعلن كلمته المشهورة (الحرب لمن اراد الحرب والسلم لمن اراد السلم) . وقد قال هذه الكلمة لما اخذت الفرق الفرنسية تأتي الى سورية ، بعد ان لاح للفرنسيين النصر في الريف المغربي . ويظهر تقرير نشرته (المجلة الفرنسية للمشاة) أن الوحدات التي جلبوها الى سورية يتجاوز عددها العشرين الفا . ساقوها الى المراكز المخصصة لها بشكل سري دون أن تمر بالمدن ، في الوقت الذي كان رجالهم الاداريون يتظاهرون برغبتهم في السلم والتفاهم معنا .

حشد الافرنسيون قواهم في مراكز تحيط بجانبي الغوطة لعزلها . فاتخذنا الترتيبات اللازمة ، وبعثنا المفارز الى الاطراف البعيدة حتى لا نفاجأ . وكانت

حاجتنا الماسة الى ضباط مدربين يتقنون أعمال الرصد هذه . وبرغم وجود الكثيرين في دمشق الا ان قلة اشتركوا معنا، ومنهم ، وهم لا يتجاوزون العشرة، سعيد العاص وشوكت العائدي ، وفؤاد سليم وعبد القادر مليشو وزكي الحلبي (وجميعهم استشهدوا) وصادق الداغستاني وصبحي العمري ، وزكي الدروبي وغيرهم . وكانت كلما ازدادت أخبار تحشدات الفرنسيين ، ينسلّ بعض الثوار من الغوطة الى جبل الدروز بحجج مختلفة . فضعفت قواتنا في الغوطة كثيرا . ولم أكن متشائما ، وأخذت التقارير ترد عليّ من كل الانحاء عن تنقلات الجيش الفرنسي ونشاطه . وشعرت أن مركز الثقل واقع على جناحنا الايمن . فضاعفت الجهود لمجابهة الخطر المقبل . وأرسلت مفرزة قوية مجهزة بالرشاشات بقيادة ممدوح العظم الى الهضاب القريبة من القطيفة في الشمال ، والى الطرق الآتية من جهة ازرع . أكملنا استعدادنا ، وكنت اتوقع الهجوم على شكل احاطة واسعة تفصل المرج عن الغوطة . وكنت مؤمنا بأن الصدمة لا تواجه الا بعد ان تكون وطأتها قد خفت ، فنتحرّى النقاط الضعيفة في صفوف العدو لننقضّ عليها .

وفي صباح ١٦ تموز ١٩٢٦ كنت في دوما قلقا افكر ، واذا بأحد المجاهدين يصل صارخا : ها ان الفرنسيين في بساتين دوما . فقفزت لايقاف الخطر ، اذ لم يكن لدينا متسع من الوقت ، وهرعت مع فريق من اخواني وجماعة من دوما لصد العدو . ولحسن حظنا وصلنا البساتين التي تفصل المنطقة المكشوفة من المنطقة المشجرة قبل الفرنسيين . وكانت معركة حامية سريعة قضينا فيها على الفصائل المتقدمة ، التي ولّت الادبار . واضطر الفرنسيون الى التراجع وإقامة خط دفاعي يبعد عنا كيلومترا واحدا . وزحف بعضهم نحو القرية التي فيها جرحانا ، وعبثا حاولنا افهامهم أن فيها مستشفى ، اذ رفعنا الاعلام وشارات الهلال الاحمر . وشرع من في المستشفى ، وعلى راسهم الدكتور امين رويحة ، بالدفاع زهاء ساعة الى ان تمكنّا من رد الفرنسيين . وقد اصبت بجرح في خاصرتي ، واصيب الحاج مصطفى ديب في ركبته وهو يحاول سحبي الى الخلف. وهدأت المعركة وقت الظهر . وقد أبدى الدكتور رويحة بطولة وشجاعة نادرتين في علاج جرحانا وفي قتال الافرنسيين على السواء . وكانت حاجتنا ماسة الى الاطباء ، وهم كثيرون قابعون في دمشق .

وتمكن شوكت العائدي والامير عز الدين الجزائري من صد الافرنسيين في الجبهة الجنوبية ايضا . كذلك نجحت مفرزتنا في جبهة برزة في تعطيل قوة الجيش في مضيق منين وتأخيره . وقد ظهر من اوراق الافرنسيين ، التي حصلنا عليها من أسراهم وقتلاهم ، انهم كانوا يهدفون اولا الى الاستيلاء على الخط الذي يمر من برزه ــ دوما ــ كفربطنا ــ حبرين ، حيث مقر القيادة العامة للثوار . فيحصرون الثوار داخل هلال يستند رأساه على تحكيمات دمشق من الشمال والجنوب . أما المدفعية فتمركزت في دمشق ، تقصف بسهولة مواقع الثوار .

كذلك كانت الطائرات تسهل مهمة الجيش وتستكشف ، وتلقي بقنابلها ايضا .

كانت خسارتنا في هذا اليوم جسيمة ، لكنها لم تكن كما كنا نتوقع . وهدف الجيش الفرنسي الى التقدم الى خط : القابون ــ جوبر ــ عين ترما ــ ببيلا ــ القدم ــ الاقصر ، فيحصر الثوار ويساقون الى أفواه حصون دمشق ، ولا يبقى لهم الا الموت او الاستسلام . وبرغم توقيفنا للفرنسيين خارج الغوطة ، فإننا اصبحنا الآن داخل هذا النطاق المضروب ، الذي سيستحيل اضيق غدا . ولم يكن أمامنا الا القيام بمغامرة للافلات من هذا النطاق الليلة . وبعد الاستطلاع تبين لي ان افضل نقطة للاجتياز من بيت نايم حيث توجد فيها قوة من المراكشة . وفعلا تمكنّا من الإفلات بعد مناوشة بسيطة عن طريق اقنية الماء المجاورة للقرية . ثم وصلنا العتيبة وصرنا مُحاصِرين بعد ان كنا محاصَرين . وقررت مهاجمة مؤخرة الجيش . وفي الصباح اخذت الطائرات والمدفعية تقصف مشكّلة سدا ناريا يتقدم خلفه الجيش ببطء، وتحولت الغوطة الى ساحة لمعركة رهيبة . ووصلوا الى هدفهم بدون مقاومة . وظنوا أن الثوار قضي عليهم بالمدفعية والطائرات . وصلنا مع غروب الشمس أطراف الغوطة قريبا من حبرين . فوجدنا جموعا من الفرنسيين بأحمالهم وآلياتهم يستريحون ، فداهمناهم ، فذهلوا ، وسرت الفوضى فيهم ، وتعقبنا فلولهم، وسقط منهم الكثيرون ، ومن بينهم الكومندان (ونك) قائد الخيالة، وهو صديق لي قديم . ذعر الجيش الفرنسي ، واشتد حماس الثوار ، فارتموا على الجيش من كل جانب . وحاصرنا كفربطنا ودخلناها بعد اشعال الحرائق وانفجار العتاد . وكانت مجزرة لم تدر في خلد الفرنسيين . وما ان بزغت الشمس حتى اخذت الطائرات تلقي قنابلها بدون وعي ، وعلى غير هدى .

وبدأت النجدات القوية تصل لانقاذ الفرنسيين ، فتقدمت وشوكت العائدي لنحول دون تقدمها . وظلت المعركة حتى عصر اليوم ، حيث تمكن الفرنسيون من انقاذ من نجا من سيوفنا من محصوري كفربطنا ، ثم تراجعوا الى دمشق ، التي كان مقررا ان يدخلوها منتصرين ، ولكن الاقدار أبت الا ان يدخلوها مدحورين . وبهذا فشل (هجوم تطهير الغوطة) بعد معارك دامية استمرت ثلاثة ايام ، هي في الحقيقة اكبر معارك الثورة . ظل الثوار بعدها يحتلون الغوطة ، ويصدون حملات الفرنسيين اكثر من شهرين .

واعاد الفرنسيون الكرة ، ونظموا حملات جديدة ، تتبع اسلوبا جديدا ، وتمشط منطقة الغوطة وتأسر او تقتل من يقع في طريقها . واثرت هذه الحملات في الثوار ، فقابلناها بطرق قتال جديدة ، تعتمد على الكمائن التي ننصبها في الاطراف بعيدا عن مركز الغوطة. ونفعت هذه الخطة ، وتوقفت حملات الفرنسيين. وكانت المشكلة الخطيرة ، التي تهدد الثورة ، وتفوق خطر العدو هي مشكلة العتاد المتناقص . وقد دفعنا هذا الى تجنب خوض المعارك الكثيرة . واخذنا نسعى لتلافي

هذا النقص ما أمكن . وإني أذكر باحترام أسماء الابطال الذين ثبتوا نفوسهم ، وهم الشهداء شوكت العائدي ، والامير عز الدين، والابطال الدكتور امين رويحة وعادل الحامدي ، ومن زعماء الثورة المخلصين أبو عجاج الشيخ وأبو محي الدين شعبان. وأعدنا تنظيم أنفسنا ما أمكن ، وأخذت محكمتنا تنشط في محاكمة الجواسيس، وكنا لا نضنّ بالاعدام .

وقد اخذت جرائد الفرنسيين ودعاياتهم تنشر أخبار القضاء التام على الثورة بدليل الهدوء المخيم على ميادينها . فأردنا تكذيبها بوقائع مدوية . اتخذنا خطا دفاعيا موازيا لطريق دوما ـ دمشق . وأرسلنا كتابا مع ركاب سيارة الى المستشار نتحدى فيها قواته . انتظرناها من الصباح الى ما بعد الظهر ، ثم قررنا الانسحاب . لكن قوات الفرنسيين فاجأتنا ، ونحن منسحبون . وحاولت أن امنع اتصال القوات الفرنسية الخارجة من دوما وحرستا ودمشق . وسرت مع من بقي معي وعددهم تسعة نحو (مديرة) . وفاجأتنا القوات الفرنسية المتحصنة في مقبرة البلدة . ودارت معركة ، تكاثرت فيها القوات من ثلاث جهات ، ولم ينقذنا اخيرا الا شوكت العائدي وعادل الحامدي ومفرزتهما. اتصلنا بمجاهدينا المنسحبين وجمعنا قواتنا وارتددنا بهجوم على رتلين للعدو ، وانقلبت الآية الى صالحنا بأعظم مما كنا نتوقعه . وكبدنا العدو خسائر كبيرة ، ونجونا من موت محقق . وكان لهذه المعركة اثر كبير في اضرام نار الحماسة في المجاهدين وأهل القرى ، وأثبتت أن الثورة لم تنته .

حاول الفرنسيون بعد ذلك تأمين الهدوء في الغوطة بوسيلة اخرى . فأرسلوا الينا رسولا يعلمنا بأن القائد الفرنسي يطلب مفاوضتنا . فحددنا قرية (مسرابا) مكانا للاجتماع . وبثثت رجال استخباراتنا في أطراف القرية وعلى الطرق المؤدية اليها . ولما تأكدت من وصول الوفد الفرنسي برئاسة الليوتنان (الكسندر) ذهبت بصحبة الدكتور رويحة وعادل وشوكت العائدي . وأخذ الوفد يعرض علينا رغبة الجنرال (غوامه) في الاجتماع بنا في دوما مع كتاب بخطه يؤمننا فيه على حياتنا وعودتنا سالمين . وعرفت من اعضاء الوفد ، أن تعليمات اتت من (بوانكريه) نفسه، بأنه يود التفاهم مع المجاهدين الشجعان لا مع اصحاب الاقلام المشاغبين ، وأن الحكومة الفرنسية مستعدة لاقامة مجلس تأسيسي في سورية يسنّ دستور البلاد . وانها تعفو عن المجاهدين . أما عني وعن سلطان باشا الاطرش فلا بد لنا من القاء السلاح والاستسلام الى السلطة ريثما تتم الاجراءات الجديدة . فرفضت ذلك وقلت : ان ليس بوسع من حمل بندقية طيلة سنتين أن يرميها ويستسلم لرحمة من قاتلهم ، ومع ذلك فلا بد من الرجوع الى رأي سلطان باشا الاطرش وهو القائد العام للثورة . وأعلمتهم ان هذا امر سهل سريع اذا هيأوا لنا سيارتين وبنزينا كافيا . وكنت في الحقيقة أخدعهم وأطمعهم بأسرنا والقضاء علينا ، لانني كنت محتاجا حقا الى الاتصال بسلطان باشا لاستطلع حالة الجبل ، وأطلب قسما

من المجاهدين بسرعة . وطلب مني المستشار الكسندر ، جمع جثث قتلى المعارك السابقة في كفربطنا . وقد أرسل فعلا سيارة واحدة الى (المحمدية) مساء اليوم نفسه ، فأخليت القرية وكمنت في البساتين المجاورة ، وجعلت مفرزة في قرية قريبة . ودعوت مفرزة اخرى الى ملاقاتنا الليلة في المحمدية . وقررت الانتظار حتى الثانية عشرة . وإلا فأنا في حلّ من وعدي ، وسأقوم بهجوم على دمشق لأثبت قوة الثوار ، وتحديهم السلطة .

ولكن الافرنسيين قرروا الغدر ومباغتتنا في المحمدية . فأخرجوا حملة خفيفة دخلت القرية . وكانت المفرزتان اللتان أعددناها او دعونا قد حضرتا ودخلتا القرية من جهتين ، وكنا نحن من الجهة الجنوبية ، فجعلت الصدف الفرنسيين في وضع لا يُحسدون عليه ونحن نحيط بهم من جهات ثلاث ، وبدأ اطلاق النار، وتأكد الفرنسيون انهم محاصَرون ، قد وقعوا في كمين متقن ، فانسحبوا بسرعة الى دوما تاركين بعض أحمال العتاد ، وانسحبنا نحن من المنطقة كلها بدون خسائر. وأرسلت الى المستشار كتابا مؤثرا أؤنبه فيه على غدره . وبعد ايام أتانا رسوله يؤكد أسفه لحادثة المحمدية ، وأن هذا حدث بدون اذنه ، وأنه قد أعفى قائد موقع دوما واستبدله بآخر . وأظهر ثانية رغبته في التفاهم ، فتظاهرت بتصديق كلامه وباستعدادنا للمفاوضة ، وعينت له قرية (مسرابا) مكانا للاجتماع . وكنت أقصد من هذه المفاوضات كسب الوقت وإراحة المجاهدين وإكمال النواقص . وكنت كعادتي بثثت الجواسيس من الاطفال والنساء حول القرية وعلى الطرق المؤدية اليها. وفي الوقت المعين سرت مع شوكت العائدي والدكتور امين رويحة وما يقرب من العشرين خيالا . وكنا مسترسلين بأحاديثنا ، لما وصلنا مفترق الطرق المؤدية احداها الى مسرابا ، فألهانا الحديث ، وسرنا في طريق أخرى . وكانت هذه الصدفة مشيئة القدر لانقاذنا مرة أخرى من فخ نصبه الافرنسيون لنا بحشود كثيرة طوقت مسرابا في الساعة العاشرة فلم تجدنا . فأرسلت رسالة شديدة الى قيادتهم . وكانت هذه آخر محاولات غدرهم .

كان الخريف قد جاء ببرده ، وخلت الغوطة من سكانها الذين نزحوا الى دمشق ، ونضبت الموارد التي كنا نعتاش منها ، وبدأ عدد المجاهدين يتناقص من العناء ، ومرض (الدوسنطاريا) . وفي هذه الاثناء وردت كتب من جبل الزاوية يدعوني اهله اليهم لاجعله قاعدة أجدد فيها حياة الثورة . راقت لي الفكرة ، فقررت الجلاء عن الغوطة والذهاب الى جبل الدروز لاعداد الحملة . ولما تركنا الغوطة بعد ثلاثة أشهر من هجوم التطويق ، كان عددنا لا يتجاوز الستة عشر مجاهدا .

أقمنا في أطراف وعرة (اللجا) . وكان كثير من المجاهدين قد نزح الى الاردن. وكتبت تقارير عما يجب عمله ، وما نطلبه . وتمكنت في عشرين يوما من جمع قوة

لا بأس بها ضممت اليها مفرزة نظامية من الجنود المغاربة . وكان الاخوان المرحوم شوكت العائدي والامير عز الدين ، وعبد القادر مليشو ومظهر السباعي من ابرز المجاهدين في هذه الحملة . وتركنا في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٦ الى الغوطة ثانية. فوصلنا قرية (زغبر) جنوبي الكسوة . فوجئنا هناك بطيارتين ، ثم بمفرزة من الخيالة . فأسرعنا بالكمون ، ثم أصليناهم نارا حامية مباغتة ، فولـوا تاركين قتلاهم . ثم مر قطار من جهة الجبل الى دمشق ، فأطلقنا عليه الرصاص ، لينقل الركاب خبرنا الى الشام . وما كنا نعلم ساعتها أن القطار يحمل المندوب السامي، وأن الطائرتين والخيالة لحراسته .

انتقلنا الى بساتين داريا ، ومنها الى كفرسوسة . وقررنا أن نداعب دمشق بعد طول غياب ، فهاجمنا في ٢٢ تشرين الاول ١٩٢٦ القطار الخارج ليلا من دمشق الى بيروت عند عقبة المزة ، حيث لا يمكن اجتيازها بسرعة ، فتحول القطار الى مستشفى سيار يحمل الجرحى والقتلى . وما كنا ندري ايضا بوجود المندوب السامي فيه . وأفلت منا بأعجوبة هذه المرة ايضا . وفي الوقت نفسه هاجمت مفرزة أخرى الثكنة الحميدية . ثم انسحبنا نحو حي الميدان ، ونزلنا في بستان باكير الملاصق للحي ، وأمضينا ليلة ٢٣ـ١٠ـ١٩٢٦ بهدوء . وكنا كامنين بينما كان الافرنسيون يفتشون في كل انحاء الغوطة البعيدة . واتخذنا كل أسباب الحيطة ليلا ونهارا . ثم تابعنا سيرنا ليلة ٢٤ـ١٠ الى (عين ترما) في قلب الغوطة . ورتبنا أمورنا في بساتينها كلّ في موضع دفاعه استعدادا لاي طارىء . وطلع الصباح ولم يحدث شيء . فأخذت أبحث في تأمين اعاشة المجاهدين . وكان هذا الامر صعبا لان نفوذ الفرنسيين كان قد امتد على انحاء الغوطة ، التي خلت الا من القليل من اهلها .

ورأى بعض خفرائنا قبل الظهر حميرا محملة بالخبز يسوقها الاهلون ووراءهم جنود السنغال ، فأطلقوا النار ، وبدأت معركة اشتعل معها خط النار من جهات معسكراتنا الثلاثة ، فانسحبنا الى الوراء تاركين أحمالنا وبعض أمتعتنا . وكانت معركة رهيبة . فالقوى غير متكافئة ، والمسافات قريبة ، والشجاعة التي أبداها مجاهدونا لا توصف ، كذلك أظهر الجنود المغاربة المنضمون الينا شجاعة فائقة . وقد نتج عن المعركة خسائر فادحة في الفرنسيين وفينا ، وتركنا شهداءنا في ارض المعركة، وكان من بينهم عدد من خيرةرجالنا منهم مظهر السباعي وعبد القادر مليشو وكثير من المغاربة . وقتل من الفرنسيين خمسة قواد بينهم عثمان شركس الذي غدر بالمرحوم احمد مريود ، وكان قد وعد اهالي ضمير وجبل القلمون الذين يحبونني بأن يوزع اعضاء من جسمي عليهم . وكان عدد من بقي حيا من الثوار الذين قاتلوا قتال الابطال ثلاثة غيري هم شوكت العائدي وعبد الرحمن الصالحاني، ومحي الدين ابو شعبان .

هدّت معركة عين ترما قوانا ؛ وخف عددنا ، اذ فقدنا قسما من اخواننا في

المعركة ، كما انسحب قسم آخر الى دمشق . ولم يبق لدينا من العتاد الا القليل. فعزمت على الانسحاب من الغوطة الى ملجأ نأوي اليه ، ونعيد تنظيم انفسنا . واخترت وعرة زاكية ، ووصلناها صباح ٢٥ـ١٠ـ٢٦ بمشقة . واتخذنا من حدودها المشرفة على السهل خطا للدفاع . وبعد منتصف النهار ظهرت الطائرات، ثم تبعتها المصفحات ، وبعد قليل وصلت كتائب الخيالة. ولما اقتربت فتحنا نيراننا المؤثرة فأسقطنا الكثير من الخيالة ، وتراجع الآخرون . لكن الكتائب ظلت تتوارد، ترافقها السيارات المسلحة . وبدأت قوات آتية من قطنة والقنيطـرة تحاول تطويقنا ، فقابلتها مفرزة بقيادة صادق المغربي . ووردتني انباء نفاد ذخيرة بعض اقسام الجبهة ، فقررت الانسحاب ، وبدأت مفارزنا تنسحب واحدة اثر الاخرى. ولما أدرك العدو ذلك ، بدأ يطاردنا بعنف وقوة . واصيب صادق المغربي في فخذه، فساعدته على السير ، وأردفته وراء مجاهد على فرسه . وبقيت وحدي، فأسرعت للحاق برفاقي . لكن المطاردين لحقوا بي . وغفلوا عني لانني كنت أرتدي ملابس عسكرية ، وظنوني من جنودهم المتقدمين . واخذت الطائرات تفعـل فعلها ، بشظايا قنابلها ، وبشظايا الحجارة ، فأصيب عدد كبير من جنودنا .

ووصلنا اخيرا الى طرف الوعرة الجنوبي ، حيث يبدأ السهل . وكـان المجاهدون قد توسطوا السهل في طريقهم الى تل أبي عيابة . فأخذت الطائرات تطاردهم . واسرعت مع جماعة من الخيالة لإشغال التلال المحاذية ، لنحمي تراجع جنودنا . وظل القتال ملتهبا حتى غابت الشمس . وأخذ السكون يشمل المنطقة تدريجيا. وكان شوكت العائدي قد وصل التل معجماعة لا يزيد عددهم عنسبعة، ومعهم صادق المغربي . وبعد أن استراحوا واطمأنوا قليلا فاجأهم هجوم جديد ، فاستشهدوا جميعا ، بعد أن فتكوا بالعدو . واصبح التل قبرا لمن كان عليه .

وانطوت بذلك آخر صفحة من صفحات ميدان الغوطة المجيد ، وتم جـلاء المجاهدين عنها نهائيا . وانسحبنا باتجاه جبل الدروز ، ونفوسنا يحزّها الالم .

***

وصلنا اللجا ٢٧ـ١٠ـ٢٦ ، وقد مضت علينا ايام خمسة بلا نوم ولا غذاء . وجابهنا حملة الفرنسيين الخارجة من الشهباء ، ودام القتال يومين ، ولم يستطع العدو دخول (لاهثه) ، واسقطنا له طائرة في (الخالدية) ، فارتد على أعقابه . وقد انسانا نصرنا في هذين اليومين شيئا من الحزن ، وملأ نفوسنا ارتياحا . كانت السويداء والشهباء وصلخد قد سقطت في ايدي الافرنسيين ، وانتشر نفوذهم في الجبل كله . ولم يبق الا الاستيلاء على اللجا حتى يتم لهم انهاء الثورة . وكـان كثير من اهل القرى ، الذين اصابتهم الثورة بكثير من النكبات والآلام ، قد مالوا الى السلم ، ونزح كثير من مجاهدي الدروز الى الاردن وعلى رأسهم قائد الثورة سلطان باشا الاطرش والامير عادل .

ولما تأكدت انه لا يمكن القيام بعمل في الجبل ، قررت الذهاب الى الاردن لاتصل باللجان ، وأستعين بأموالها في جمع المجاهدين الذين يملأون الاردن . وصلت الاردن في ٢-١١-٢٦ ، وذهبت الى عمان متخفيا ثم الى القدس ، وعدت ثانية الى عمان في ١٢-١١-٢٦ . كان الازرق يعج بمخيمات الثوار ، وأكثرهم من الجبل . وكانت عمان مركزا آخر يغص بمجاهدي الغوطة ودمشق ، والزعماء مثل نسيب البكري وسعيد العاص وزكي الدروبي . وكان كلّ من المركزين يطالب بالمال لتجهيز المجاهدين ، والكل يشكو وغير راضٍ . وانقسم المجاهدون الى أحزاب وجماعات متخالفة . وتطور الخلاف الى نفور ، فعداء . وبدأت فكرة الثورة تضعف وتتقلص ، وأصبح من المتعذر اقناع المجاهدين بالعودة الى ساحة القتال بدون رواتب تؤمن حاجاتهم . وفي رأيي ان المجاهد الثائر اذا حارب براتب وأجر، فقد الصفات التي يتفوق بها على الجندي العدو . وتزايدت أخطار الفوضى كل يوم . ولما عجزت اللجان عن تأمين اعاشة المجاهدين ، بدأ بعضهم يبيع سلاحه وتجهيزاته ليؤمن معيشته . ومع كل سلاح يخرج من يد الثائر تنهار دعامة من دعائم الثورة .

ورأيت ان الواجب يدعوني الى العمل ثانية في ميادين الثورة مهما كلف الامر . وعبثا حاولت أن أقنع اللجان بألا يعتبروا الثائر الا من كان ضمن حدود الثورة السورية ، فلا ينفقوا على احد خارجها . ولما لم أفلح اتفقت مع خمسين فارسا للعودة الى الجهاد . وقد كلفني تجهيزهم مبالغ طائلة . تحركت من الاردن في ٣٠ تشرين ، وكانت الامطار الغزيرة تتساقط . فأعاقت مسيرنا وتأمين الإعاشة وعلف الدواب . واتجهنا على الرغم من هذا الى الصفاء لاجعل منه قاعدة جديدة ، بمساعدة صديقي الشيخ خلف النعير . والصفاء ارض بركانية صعبة المسالك بمحاذاة جبل الدروز من الشرق ، تتصل جنوبا بالاردن وشمالا بجبل قلمون ، وتحدها الصحراء شرقا . فهي أفضل ملجأ ومعقل . ولم يتحمل الفرسان صعوبة الطريق ، فرجعوا قبل ان نصل ، ولم يبق معي سوى ثمانية خيالة منهم الدكتور امين رويحة ، وأولاد النبواني من أشراف عائلات دروز الجبل ، ومراسليّ المخلصين .

وصلنا الصفاء ونزلنا في ضيافة الشيخ خلف النعير . ولم يكن معنا مال نؤثر به على عربان النعير ، فأخذت أعده بالمواعيد الذهبية وأحاول دفعه الى التأثير على بعض عربانه لتأمين فريق منهم يشترك معنا . ولما تيقنت افلاسنا من هذه المنطقة، أخذت أفكر فيما آلت اليه الثورة التي كلفتنا آلاف الشهداء ، والاموال الكثيرة ، والدمار .... فعزمت أن أغامر بمباغتة مراكز دمشق نفسها ، مصمما على ألا أعود من هذه المغامرة . وحبب الى نفسي الاستشهاد على ابواب دمشق الشرقية . ففاتحت اخواني الثمانية بما يجول بخاطري . فوافقوني ، وأكبرت فيهم هذه الروح العظيمة . ويممنا دمشق مع غروب الشمس . ولما وصلنا أطراف المرج الى

خربة الدير شرقي (عتيبة) ، ترجلنا ودفنا أوراقنا هناك ، وتواعدنا على أن من يعود حيا منا يأخذ الاوراق ، ويوصلها الى أهلنا ، ومما كتبته في دفتر مذكراتي موصيا بتاريخ ٢١-١٢-١٩٢٦ : «... فنحن الآن سائرون الى هذه الطريق التي توصلنا الى ذروة الشرف ، وفيها آخر المفاداة ، ونهاية التضحية . فلتحيَ بلادي ، ولتحيَ أمتي ، وليعش مجدي (ابني) مجيدا من بعدي» .

كانت الامطار الكثيرة قد أحالت المرج الى بحيرة . أما الافرنسيون فقد اطمأنوا لاستتباب الامر لهم ، وأقاموا في قرى الغوطة حرسا مسلحا من اهلها ، وأوصلوا أسلاك البرق الى كل المراكز . فلجأنا الى الحيلة بعد عبورنا المرج بسلام ، فرتبت جماعتي ترتيب دورية افرنسية ، وأخذت أكلم كل من أمرّ به بالفرنسية بفظاظة، وكان الدكتور رويحة ترجمانا لي . وانطلت الحيلة على الجميع الى أن وصلنا (جوبر) ومنها الى (القابون) حيث تركنا خيلنا ، وتقدمنا الى مركز (جسر تورا) ، وكانت الليلة ليلة عيد ميلاد ، والافرنسيون في مرح ونشوة . ثم أطلقنا نيرانا حامية ، فأذهلت المفاجأة من في المركز ، فاندفعوا يطلقون النار على غير هدى . وانطلقت بعدها النيران من بقية المراكز ، واستولى الذعر على دمشق ، واشتعلت الغوطة من جديد .

انسحبنا على الاثر ، وامتطينا جيادنا متجهين نحو جوبر ، وقمنا بالحيلة السابقة نفسها . ووصلنا اخيرا الى قرية (عربين) ، فطلبت رئيس الحرس وأمرته بجمع عناصره . وأخذت أوبخهم وأشتمهم . وكان في نيتي أن أجردهم من سلاحهم ، لكن وصول المصفحات حال دون ذلك . فانسللنا من عربين الى غيرها من القرى نفعل ما فعلناه فيها . ثم خضنا سهل المرج ، ومنه الى (الدير) ، فأرحنا خيولنا ، واسترجعنا أوراقنا . وكانت الطائرات تملأ سماء الغوطة بحثا عن معكري السكون . وكان لهذا الحادث دوي كبير ، ولما وصلنا خلف النعير ، كانت الاشاعات المضخمة قد سبقتنا ، فاستقبلنا بفرح وترحاب ، ووجدت في رجاله رغبة صادقة في العمل معنا .

ارسلت رسولي هزاع الى حمص وحلب وجبل الزاوية استطلع الحالة فيها. وأعطيته كتابا ختمته بسبعة أختام زورت فيه رسالة من مصطفى كمال يعلن فيه استعداده لمساعدتنا وأنه بدأ يشحن الاسلحة ، ويعلمنا فيه ان الدول السبع قررت محاكمة فرنسة في الربيع المقبل . وطلبت من هزاع عند رجوعه ان يطلق عيارات نارية اعلانا لفرحته بما يحمل من البشارة العظيمة لنا . وقد أتاني رسول من هزاع يعلمني باستعداد الشمال استعدادا تاما . ويعلمني بأنه اتصل بزعماء جبل الزاوية النازحين الى تركيا ، وأنهم مستعدون . وأنه ليس لي الا أن أحدد الزمان والمكان . فأرسلت لهم حالا أن موعدنا صباح عيد الفطر في ٤ نيسان ١٩٢٧ ، منتظرا نهاية الشتاء . وأخذت أعمل على تكوين مفرزة كبيرة من خيالة عرب النعير

لغزوة الشمال ، مستفيدا مما أثارته الغنائم السابقة ، ومن الكتاب المزور الذي جاء به هزاع بعد ايام .

تركت الصفاء، بعد أن أمنت من رجالها مفرزة قوية برئاسة خلف النعير نفسه، واتجهت الى الازرق لتأمين عدد من المجاهدين وتجهيزاتهم . فوصلنا الازرق ثم عمان . وكانت الاحوال هناك تزداد سوءا . فالاموال قليلة ، وأكثر المجاهدين باعوا اسلحتهم ، ولم يعد احد يفكر بالثورة . ولم يكن لديّ متسع من الوقت ، فعليّ أن أقطع مسافة ٥٠٠ كم الى أن أصل جبل الزاوية في الوقت المحدد . لذلك ذهبت بنفسي الى القرى متنكرا ، أحاول جمع التجهيزات ، ثم عدت الى عمان واجتمعت مع الدكتور الشهبندر وعدد من الزعماء ، وكان موضوع الاجتماع يدور حول المحافظة على حقوق ثوار الغوطة ودمشق . ولما صارحت المجتمعين بعزمي على الذهاب الى جبل الزاوية سخروا مني ، وتحدوني ، في مثل هذه الظروف التي سيطر فيها الافرنسيون على البلاد ، وخلت من الثوار ، تحدوني أن أصل الى النبك . ورأوا في مغامرتي ضربا من الجنون . لكني بقيت مصرا . وتمكنت من جمع خمسة وأربعين مجاهدا ، دسّوا بينهم ثلاثة أقسموا اليمين على اغتيالي اذا بدأت بالمغامرة ، لان فيها خروجا على المجموع ، ومجازفة بأرواح دون فائدة .

سرنا الازرق مساء ٩ آذار ١٩٢٧ الى الصفاء ، يودعنا خوف وقلق بعض اخواننا وسخرية بعضهم الآخر وحقدهم . وكنا جميعا عالمين بالاخطار والمهالك . وكنت آمل ان أضيف الى قوتنا القليلة فريقا من عرب النعير . وقد كانت ميادين سورية قد هدأت كلها ، عدا منطقة اللجا المنيعة ، التي اخذ الفرنسيون يحاصرونها بجد ، وحشدوا لها جيشا ضخما ، لا يشغله شيء عن هدفه . وفرضت السلطة على أهالي مناطق الثورة تقديم الاسلحة والاموال ، ووكل امر جبايتها الى الوحدات الشركسية . سرنا نحو الشمال والموقف العام على ما ذكرت ، وليس معنا من العتاد الا ما نحمله ، ومن الاعاشة الا ما سنحصل عليه ، ولا شيء من المال . وكنت أقصد من مغامرتي هذه ان أستفز نفوس الآلاف من المجاهدين المحتشدين في الاردن ، للعمل . فإما أن نعيد الحياة للثورة ، وإما أن يقضى علينا فنلحق بمن سبقنا من الشهداء .

وصلنا بعد اربعة ايام منازل خلف النعير ، لكننا وجدناه للاسف قد خضع للفرنسيين . وتفاهموا معه وأطمعوه بالوعود ، بعد أن أوقعت الطائرات في بدوه الرعب والخسارة . وقد أحسن خلف وفادتنا . وأمليت عليه كتابا الى المستشار الافرنسي في الضمير (تيريه) : ان فوزي القاوقجي اتى ومعه ٥٠٠ خيال ومدفعان وعشرة رشاشات ... وأنه توجه الى الغوطة ليخرب سكة حديد دمشق ـ درعا ثم دمشق ـ بيروت . واتجهنا بعد ذلك الى الشمال في الحادي والعشرين من شهر آذار . والتقينا شمال شرق جيرود بجماعة من حمص على رأسهم نظير

النشواتي ، كانت متجهة الى الاردن ، فأقنعناهم بمرافقتنا ، فأصبح عددنا ٧٤ مقاتلا منهم ٢٧ فارسا . وكنا نسير ليلا ، ونكمن طول النهار . وكان الفرنسيون يفتشون عنا باتجاه الجنوب والغوطة .

اضطررنا بسبب قلة الاعاشة الى دخول قرية الغنطر ، وباغتنا أهلها ، وجردنا الدرك من اسلحتهم وخيلهم ، وكمنّا فيها الى الصباح حيث قدمت خيالة درك مع الجابي ، فاستولينا على اسلحتهم وجيادهم . ووصل الخبر الى حمص ، فقامت القيامة وأخذت الطائرات تجول وتبحث . وكنت أوهمت سكان القرية اني متجه الى القريتين جنوبا ، ثم سرت شمالا . وصلنا صباح ٢٦ـ٣ جبل بلعاس ، وكان يغص بقبائل حمص وحماه ، وكلهم يعرفني ، ولم أستطع الاختفاء ، فقررت الظهور ، واستقبلني العربان بالترحيب . ولكنهم للاسف كانوا قد خضعوا للسلطة الفرنسية ، فكان طبيعيا أن يخبروها عن قدومي . فأعلنت ، لتضليلهم ، انني سائر الى السلمية لتأديب اهلها الذين انضم كثير منهم الى الافرنسيين . ثم اتجهت في ٢٨ آذار نحو الشمال تاركا القوات الفرنسية تتحشد في حماة والسلمية .

كان الجو لا يزال باردا ، وقد أنهكت قوى المجاهدين ، وتقطعت أحذيتهم من المسير المتواصل بمعدل ٤٠ كم كل يوم . ولم يكن لديهم الا الصبر والايمان . وكنا الآن في ارض منبسطة تملأها منازل عشيرة الحديدية الموالية للافرنسيين . ومن الصعب اجتياز هذه البقعة ليلا دون أن يحسّوا بنا . فقررنا السير نهارا وتنكرت في زي ضابط افرنسي ، ومثلت مع من معي دور سرية متطوعة في الجيش الفرنسي . ونزلت في منازل القبيلة . ولم يشك احد بأمرنا . وعلمت منهم أن هناك قوة تنحدر من حلب وتتحشد في المعرة وجوارها . ولما أمسى المساء طلبت دليلا لإيصالي الى محل التجمع . وسرنا الى أن قطعنا السكة الحديدية شمال الحمدانية . وبقيت لنا حتى سفوح جبل الزاوية الشرقية ارض منبسطة بمسافة ٢٥ كم . وأعملنا الحيلة ، وأخذنا نجتاز القرية تلو القرية والمعسكر تلو المعسكر ، والجميع يظننا جزءا من القوة الفرنسية المحتشدة . ثم نزلنا خربة تبعد ٧ كم عن المعرة . وأرسلت هزاعا الى دار حكمة الحراكي في المعرة ، وهو احد من راسلني طالبا قدومي الى الشمال . فصعق لخبر وصولي في هذا الوقت الذي تغص فيه المعرة بالجند . وأمّن لنا بعض الاحذية والإعاشة . كذلك أمن لنا الامير شايش امير الموالي بعض الذبائح .

تركنا الخربة بعد الغياب ، وسرنا الليل بطوله نحو الجبل . ووصلنا صباح عيد الفطر ٣ نيسان ١٩٢٧ الى قرية جدار . واتخذت قرية حاسة مركزا لي . وأرسلت رسلي ليعلموا من طلبني بحضوري ، وليستنفروا الناس . ولكن كانت اول طلقة أطلقت علينا من قرية (كفرنبه) التي ذهبنا نأتي منها بالإعاشة . فتأكدت

ان الامر صعب ، وأننا مقبلون على أحداث جسام. وصلت أخبارنا الى الافرنسيين، فبدأت الطائرات تحوم فوق رؤوسنا . فشعرنا هناك بالضياع والغربة ، وأن الاعداء يحيطون بنا من كل جانب ؛ ولم يكن أمامنا الا أن نستمد المعونة من مناعة الارض ، فاتجهت شمالا نحو الجبل الوسطاني ، واتخذت من الجبال المجاورة لبالس موضعا للدفاع . وزاد وقع الامر سوءا في نفسي لما عاد مراسلي هزّاع ليخبرني أن الاهلين لن يقدموا المساعدة او يشهروا الثورة ما لم يأت الزعماء الموجودون في تركيا . فأيقنت ألا مفر لي الا الصبر والاستبسال ، خاصة في المعركة الاولى حتى أخيف العدو اولا ، وندفع الاهالي الى احترامنا والاشتراك معنا ثانيا .

جمع العدو قواته من حلب والمعرة وإدلب وحارم وغيرها ، وزحف على مواقعنا صباح ٥ نيسان . وحاول الإحاطة بنا . ونشبت المعركة ، واحتدمت . وتمكن العدو من التقدم ، وضغط على جناحنا الايمن المنيع فأفرزت قوة لمساعدته وتمكن من دحر القوة المهاجمة ، كذلك فعلنا في جناحنا الايسر. وعبثا حاول الفرنسيون. ولما مالت الشمس الى المغيب ، وأيقن الفرنسيون ان لا طاقة لهم علينا ، انقلبوا مدافعين . واستمرت المناوشات المحدودة حتى ما بعد العِشاء . ثم انسحب آخر جندي . وقد كان اثر هذه المعركة عظيما . اذ تأكد الاهالِي من قوتنا وصدقنا ، وامتلأت نفوسهم اعجابا بنا واحتراما لنا . وقد سقط في هذه المعركة اولاد النبواني ، وأصيب كذلك الدكتور رويحة . وقد جرت هذه المعركة تحت المطر الغزير والبرد الشديد ، ونحن لم نرتح بعد ، وما كنا نملك الكساء او الغذاء الكافيين .

أخذ العدو ، بعد هذه المعركة يحسب لوجودنا ألف حساب ، ويخشى من نشر الثورة في هذه الانحاء الخطرة . لذلك أسرع الى جلب الوحدات من كل انحاء سورية ، ولاسيما منطقة اللجا ، التي انقلب فيها مدافعا ، وتمكنًا بذلك من انقاذها . قررت الانسحاب الى الجنوب ، وترك الجبل بعد ان تأكدت من عدم امكان الحصول على المساعدة من أهله . وكان علينا أن نفكر في طريقة سليمة للانسحاب، نضلل بها الفرنسيين . لان المنطقة بعد جبل الزاوية سهلة منبسطة . وتظاهرنا بالاتجاه الى أريحا لاحتلالها . حتى أجعل الفرنسيين يحشدون قواتهم هناك ، وفي نيتنا أن ننحرف بسرعة نحو الجنوب . وسرنا في جو قارص البرودة ، وماطر . بعد أن أودعنا جرحانا عند اهل قرية (بالس) . ووصلنا سفوح جبل أريحا مع شروق الشمس ، ففوجئنا بحملات العدو المرابطة في سفحه الشمالي . حاولت اجتناب المعركة ، لقلة العتاد ، والتعب والمرض الذي أصاب رجالنا ، ولكن اضطررت الى دخول المعركة . وصلت أولا فرسان العدو ، فرددناها ، ثم وصلت المشاة تتقدم بحماية المدفعية . ولم يستطع العدو الاقتراب منا ، وجاء الليل ، وتوقفت المعركة ، وكانت خسارتنا ثلاثة جرحى .

تابعنا الانسحاب الى جوار قرية (كفرسنجة) ومنها الى الجنوب . ثم انعطفنا فجأة في الليل نحو الغرب مقابل جبل (شخشيبو) ، فأضاع العدو أثرنا . وكنا قد وصلنا المنطقة السهلية ، أي سهول حماة وحمص . وجمعت اخواني وقلت لهم ان من الاسلم لنا أن ننقسم هنا قسمين ، المشاة ومعهم الدليل هزاع ، وأنا مع الخيالة نتحرش بالعدو ، ونلفت نظره الينا فينجو المشاة . وكان المطر الشديد والضباب الستار الوحيد لنا ، يحجبنا عن أعين العدو ، الذي عاد الى الشمال باتجاه جبل شخشيبو . فاجتزنا سهل حماة جنوبا باتجاه قرية الطيبة ، ثم تابعنا السير الى حماة . ولما اقتربنا من المستشفى الاهلي ، ألهاني حديثي مع الدكتور رويحة عن ذكريات ثورة حماة ، فلم أسمع الا صوت جندي فرنسي ينذرنا ، ثم يطلق النار ، وتبعه في اطلاق النار مخفر الحاضر الشرقي . فحنَّت نفسي لمداعبة حماة ، فأطلقنا الرصاص على المخافر والمستشفى وفي سماء البلدة تحية للبلدة ، ثم أسرعنا بالسير جنوبا الى ان وصلنا مشارف حمص ، فدخلنا احد منازلها المتطرفة ليلا . وبعد استراحة قصيرة تابعنا مسيرنا ، حتى جبال (حسية) . وما كدنا نشرع في تناول فطورنا حتى كان الجند على مقربة كيلومترين منا . فتسلقنا المرتفعات ، ثم سرنا حتى العصر باتجاه الجنوب نحو قرية (الحميرة) . لكنها كانت خالية من اهلها . وهنا لم تعد قوتنا المنهكة قادرة على مواصلة السير . واستولى عليّ النوم . ثم تابعنا السير وأشرفنا على سهل جيرود من الجبل الشرقي . وكان طريق تدمر ــ القريتين ــ دمشق يمر بهذا السهل . ورأينا حملة فرنسية تهبط الى السهل ، ولو كان العتاد معنا كافيا لما نجا واحد منهم .

ظللنا في أماكننا نرقب الى ان تحركت قوات العدو نحو جيرود فانحدرنا اثرها . وكانت حاجتنا الى الماء شديدة . ولما وصلنا اول الصفاء اخذنا نفتش عن منازل الأعراب او عن قطرة ماء ، فلم نجدها الا في العِشاء . وكانت بركة ماء آسن مليء بالديدان . فمرضنا جميعا . ثم تابعنا المسير ووصلنا منازل الأعراب في ١٤ نيسان . وكان الى جوارها منازل الدروز الذين نزحوا من اللجا . فاستقبلونا وأطعمونا لاول مرة منذ اربعة ايام عشناها بلا طعام ، وبعد مسير ثمان وعشرين ليلة مضنية مخيفة . وحدثني النازحون عن أخبار معارك اللجا ، وكيف كان لحركتنا في جبل الزاوية فضل تخفيف الضغط عن المدافعين ، بعد أن كاد عتادهم ينفد . حتى ان السلطة الفرنسية أصدرت بلاغا بينت فيه أن حركة جبل الزاوية قد تمت بعد اتفاق بيني وبين سلطان باشا الاطرش .

كان في الصفاء عدد عظيم من الثوار . فوجدت الفرصة سانحة لاتخذ من هذا المعقل قاعدة نعاود منها الاعمال في مختلف الميادين . فأرسلت تقريرا مع الدكتور رويحة وعادل الحامدي ، الى اللجان في الاردن أشرح فيه ما تم معي ، وأقترح عليهم ارسال المجاهدين الموجودين في الازرق وعمان . وكنت أخشى أيضا أن يتدخل الانكليز فيضغطوا على الثوار في شرق الاردن بعد أن يروا الثورة قد ماتت

واثبت لهم ان الثورة الان تلفظ انفاسها ، لكن هناك امكانية للعمل في الصفاء وفي الشمال . وعليهم تأمين اسلحة لثلاثمائة او اربعمائة ثائر من الذين نزحوا الى الحدود التركية ، اما برضاء الحكومة التركية او سرا عنها . فالحكومة التركية كانت تستغل هؤلاء على شكل عصابات من اجل مصالحها الخاصة . وقلت لهم اني على استعداد ان اكون على رأس القسم الشمالي . وبذلك نجعل سورية ميدانا لثورة جديدة، توزع قوى الفرنسيين، ويكون جبل الزاوية ومنطقة الصفاء قاعدتين لهذه الاعمال .

وصلت في هذه الاثناء مشاتنا مع هزاع بحالة احسن منا ، ووصل معهم جرحانا . وانتعشت احوالنا قليلا في الصفاء بما يقدمه لنا خلف النصير وقومه. لكن الافرنسيين بدأوا يهتمون من جديد بالمنطقة ، ويرسلون الطائرات لقصفنا . وفي اول ايار ١٩٢٧ باغتتنا طائرات العدو العديدة قبل طلوع الشمس . ثم ظهرت في الافق الغربي قوات العدو ، فاشتبكنا معهم في ملحمة دامت حتى الظهر ، حيث ارتدوا صوب جبل الدروز تاركين كثيرا من الخيل والقتلى ، وسقطت ثلاث طائرات . وكانت هذه المعركة آخر معركة خضتها في الثورة السورية ، اذ ورد في كتاب من الدكتور رويحة يعلمني فيه طلب الاخوان حضوري للمداولة بأسرع ما يمكن ، فتركت الصفاء في السادس من ايار . وقد استوقفني وانا على حدود الصفاء شعور غريب وتمثلت ارواح الشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل حياة سورية ومجدها وقد انتصبت اعمدة من نور . وتساءلت : اتذهب هذه الضحايا سدى وبدون ثمن ؟ واجبت نفسي : كلا ، ان هذه الارواح ستوحي الى شبيبة الاجيال المقبلة روح الثورة والتضحية .

وتابعت المسير نحو عمان في التاسع من شهر ايار . والتقيت في الطريق بالامير عادل وسلطان باشا الاطرش ومعهما سرية من الفرسان المجهزين . فاقترحت عليهما اتخاذ الصفاء قاعدة للتمركز ، فرفضا اقتراحي بعد تداولهما مع بقية زعماء الدروز . وكان هذان الزعيمان قد رحلا عن الازرق لان الانكليز ما عادوا يرضون بوجود الثوار اكراما لفرنسا ، وبعد ان كادت الثورة تخمد انفاسها . حتى انهم استضعفوا امرهم ومنعوهم ورود ماء الازرق وهم عطشى .

اما ثوار الغوطة ودمشق ، فقد اثرت في نفوسهم أعمالنا في جبل الزاوية ، فاندفعوا يؤلفون حملة بقيادة الامير عز الدين وسعيد العاص . وتوجهوا الى الغوطة . لكنهم مع الاسف لم يتخذوا الحيطة الكافية ، فقد اصطدموا عند دخولهم الغوطة مع قوات العدو في معركة عنيفة استبسلوا فيها وجرح سعيد العاص ، واسر بعض المجاهدين لاول مرة في تاريخ الثورة . وانسحب الامير عز الدين مع عدد قليل من جماعته الى وادي منين ، حيث لاحقتهم القوات الفرنسية ، وسقطوا جميعا شهداء ، وكانوا آخر شهداء الثورة السورية .

دخلت عمان متنكرا في مساء العاشر من ايار . وكان كثير من الزعماء والثوار قد نزح عنها الى القدس ومصر . والتجأ عدد منهم الى قرايا الملح التابعة لابن سعود . ففدت هذه معقلا لهم . وقد أودع هناك السلاح الذي ابتاعته الثورة أمانة ، على أمل استلامه عند اللزوم . وقد فرض عليهم ابن سعود شروطا قاسية للاقامة ، وحاول تجريدهم من السلاح لولا تدخل الوطنيين في الامر . اجتمعت مع الاخوان ، فأخبروني بأن التدابير قد اتخذت لسفري الى تركيا ، لاقناعها بمساعدتنا ، ولنجعل حدودها ملجأ نلتجىء اليه عند الحاجة . واذا لم نحصل على معونة رسمية ، فعلينا العمل سرا لشراء مائتي بندقية وما تحتاجه من العتاد . وكان لا بد من التكتم في هذه السفرة . وصعب علينا اخراج جواز سفر من حكومة فلسطين او شرقي الاردن . وبعد عناء وحيلة وتنكر ، ومساعدة بعض الاخوان تمكنت من الحصول على جواز سفر من القدس باسم : عمر فوزي عبد المجيد . وكان لهذا الجواز فضل كبير في تسهيل سفراتي كلها .

اخفيت امر سفري عن كثير من اخواني الذين صادفتهم في القدس وفي مصر ، مما سبَّب ملامتهم فيما بعد . ووصلت استنبول في نفس اليوم والساعة التي كان فيه كمال أتاتورك يصلها لاول مرة قادما من انقرة بعد انتصاراته . وقد اثر في نفسي مشهد الاحتفال ، واخذت أوازن بين حالنا وحال الاتراك وقدراتنا وقدراتهم . وما توافر لأتاتورك من ظروف هيأت نجاحه ، وما جابهنا من مشكلات ، لولاها لكان نصرنا المؤكد ، يفوق نصر الاتراك . مكثت في المدينة بصفة تاجر مهتم بإقامة معمل للنسيج . وكان ذلك ستارا لي يمنع عني أعين مخابرات الحكومة . وزرت أضنة حيث اتصلت بالسيد عمر البيطار زعيم ثورة جبل صهيون . ثم انتقلت الى مرعش فعينتاب فعكس ثم الى قرية الحاج فاتح المرعشلي على الحدود السورية . وكنت أسعى الى التعرف على الثوار الملتجئين هناك ومحاولة تدارك الامر وتأمين السلاح ... وكان هؤلاء الثوار لا يملكون سلاحا ، وقد شددت عليهم الحكومة التركية ، حتى تعذر عليهم الاجتماع ببعضهم .

وفي اثناء عودتي قُبض عليّ ، واتهمت بالتجسس ، ثم أخذت الى ازمير على ان اغادر على اول باخرة . واخيرا طلبت أن يعلموا توفيق رشدي بك بأمري . فورد جواب بعد مدة بلزوم ارسالي الى أنقره . قابلت توفيق رشدي فاظهر لي احترامه وعطفه على القضية السورية ، واستعداده في الفرصة المناسبة للمساعدة ، حتى لا تتأزم علاقات تركية بفرنسة . وطلب مني أن أواجه فوزي باشا رئيس الاركان للاتفاق معه على الخطة .

اجتمعت بفوزي باشا، وشرح لي اهتمامه بالقضية العربية، وتتبعه لاخبارنا. وسألني رأيي في الخطة الواجب اتباعها ، فشرحت له الامر . ثم طلب مني تقريرا مفصلا .. فوضعته بعد ايام . فعرضها على الغازي وعصمت ، وقال انهما وافقا

عليها بدون تبديل فيها ، واعجبا بإحكام وضعها . وستظل هذه الخطة في طي الكتمان الى ان تسنح الفرصة لتنفيذها . وكان الدور التمهيدي فيها أن أقوم متنكرا بجولة على الحدود التركية السورية لتنظيم المجاهدين . فحصلت على اوراق رسمية باسم (فورد نجدت) . وذهبت الى الحدود ، وأتممت هذه التشكيلات ، دون أن تشعر الحكومة المحلية بالامر . ثم رجعت الى انقرة .

لكن بعض الاخوان في القاهرة اشاع امر سفري الى انقرة ، وتناقلته الصحف ، ووصل مسامع الحكومة الفرنسية ، فاهتمت بالامر ، وتقصت اخباري بواسطة جواسيسها ، ثم ارسلت احتجاجا عن طريق سفيرها (دي شاميرون) ، وطالبت بتسليمي لها لانني محكوم من محاكمها . واطلعني توفيق رشدي بك على ذلك ، وعلى رد الحكومة التركية الذي ينفي وجودي في تركيا .

اما ما دار بيني وبين الاتراك عسكريين ومدنيين خلال هذه الرحلة فيتلخص بما يلي :

— ان تركيا تريد ان يكون شكل الحكومة في سوريا ملكيا .
— انهم يخشون فرنسا وجيوشها المحتشدة في سوريا على حدودهم ، ولو كان الامر بيد السوريين لما خافوا شيئا .
— ان قضية الاسكندرون وانطاكية تتخذها تركيا ذريعة لتعجيز فرنسا ، ولولا ذلك لما ذكروا هذه القضية .

وكان وضع الاتراك السياسي صعبا حرجا . فإيطاليا تستعد في الجزر المقابلة لأزمير . وكانت هناك مشكلات حدود معقدة مع ايران ومع فرنسا في سورية . لذلك كان وجودي خير وسيلة لتهديد فرنسة . وهكذا تظاهر الاتراك من جهة بالاستعداد لمساعدتنا ، وأخذوا يساومون الافرنسيين من جهة أخرى . وبالرغم من تثبتي من هذه الحقيقة ، فقد تظاهرت بتصديق وعودهم . اذ كان يهمني الحصول على بعض المعونة التي تقررت بيني وبين فوزي باشا ، ثم الانطلاق الى سوريا لاشعال الثورة من جديد ، غير مكترث بالاتراك ، حتى ولو سدوا الحدود في وجهنا .

ضاعفت السعي ، وتوقفت لاعداد التشكيلات وتعيين امكنة الاستلام . لكن، بينما نحن في هذا ، اخذت ترد الينا أخبار صحف القاهرة وسورية وفلسطين عن خلافات اخواننا المجاهدين ، والتهم التي يكيلها بعضهم للآخر . حتى صار اسم ثورة او ثائر او مجاهد وصمة عار ، لكثرة ما نشر من فضائح مدعومة بصور الزنكوغراف . ومعظم هذه الفضائح اساسها المال للاسف الشديد . وصارحني توفيق رشدي بالامر ، وحاولت الدفاع والتبرير . لكن الاتراك أخذوا يماطلون كلما ازددت إلحاحا . فقد وقفوا في مساومة فرنسا الى الحصول على معظم ما

يطلبون . وتعددت زيارة مندوب فرنسا السامي الى أنقرة ، وعقدت اتفاقيات الجمارك والحدود لصالح الاتراك .

ولما يئست من الاستفادة من الاتراك ، ومن حالة الثورة وزعمائها ، استأذنت من الاتراك للسفر الى مصر ، فأذنوا لي . وصلت القاهرة ، فوجدت حالة اخواننا سيئة ، وعداءهم لبعض أشد من عدائهم لفرنسا . وقد انقسموا الى احزاب وهيئات وشيع . وكان أبرز معسكرين متخاصمين معسكر حزب الاستقلال ومن اعضائه الامير شكيب والامير عادل وأسعد داغر وعادل العظمة والشيخ رشيد رضا وشكري القوتلي ، وحزب الشعب ، وعلى رأسه ميشيل لطف الله واخوانه، والدكتور شهبندر ، وحسن الحكيم وتوفيق اليازجي والمرحوم الدكتور خالد الخطيب . وكنت حائزا لثقة الطرفين ، فأخذت اتصل بهما محاولا ازالة ما أمكن من أسباب الاختلاف ، وإيجاد قواعد جديدة للتفاهم . وكان أساس الاختلاف حب الظهور والتزعم ، والاستئثار بمقاومة الفرنسيين ، واتهام بعضهم بعضا بالتلاعب بأموال الثورة .

ثم اقترحت بعد دراسة ، عقد مؤتمر تمثل فيه الاحزاب والثوار للعمل على اعادة الثورة ، قبل أن تستثمر فرنسا الاختلافات وخلو البلاد من الثوار فتتخذ تدابير يصعب معها العمل . فحبذ الجميع منفردين هذه الفكرة . فعقدت اجتماعا مع الاستقلاليين اولا فحبذوا الفكرة . ثم عقدت اجتماعا مع اللجنة التنفيذية فدار حديث طويل مع أفراد اللجنة اساسه أن اللجنة هي صاحبة الحق في تزعم امر الثورة والثوار . وكانوا يعدّون الاستقلاليين منشقين . ولما ايقنت الفشل اقترحت انتخاب واحد من كل فريق ، ثم نجتمع نحن الثلاثة لنبحث الامر بهدوء. فكان الدكتور شهبندر عن الشعبيين والحاج اديب خير عن الاستقلاليين . واجتمعنا في داري . وبعد جدال ومناقشات توصلنا الى النتيجة التالية :

تشكيل هيئة عليا تتكون من ثلاث لجان مختصة مستقلة : سياسية ومالية وعسكرية ، وتنتخب من خيرة الرجال . ويكون الاقدام على امر خطير باتفاق اللجان الثلاث . ثم قررنا ابلاغ الطرفين قرارنا . وقد قبل الاستقلاليون فكرتنا على الفور . أما الشعبيون فقد قامت قيامتهم ، على الدكتور شهبندر لقبوله مقترحاتنا . وتطور الامر الى خصام بينهم . فخرجت من هذا الاجتماع موقنا أن صفحة الثورة قد انتهت ، وأنه لم يعد في وجه الفرنسيين اي عقبة تحول دون تنفيذ خططهم في البلاد . ولقد أيدت الحوادث ما كنت المسه واشعر به ، من أن الخير كله في طبقة الشعب الساذجة ، وأن البلاء كل البلاء من المتزعمين من رجالنا المتفانين في حب الظهور . وجزمت أن الثورات الحقيقية التي سوف تضطرنا اعمال المستعمرين لخوضها يجب أن ترتكز على طبقة الشعب الشريفة وحدها .

أما اسباب فشل ثورتنا التي وصلت يوما الى حد إلجاء الحكومة الفرنسية لمفاوضة رجالنا في لوزان والقاهرة وفي ميادين الثورة ... فتتلخص في نقطتين:

اولاهما : اختلاف زعمائنا ، الذي بدأ بينهم ، ثم انتقل وانتشر في ميادين الثورة ففرق الثوار .

ثانيتهما : استسلام الامير عبد الكريم في الريف المغربي ، مما مكّن الفرنسيين من ارسال النجدات الكبيرة الى سورية حتى بلغ مجموع القوات ٩٥ الفا .

وانني اكتفي بسرد اسباب فشل الثورة باختصار، تحاشيا لاظهار مساوىء اخرى قد يكون ذكرها ماسًا بكرامتنا القومية .

***

اخذت ابحث عن ملجأ ، فلم اجد سوى الدولة السعودية النجدية الفتية ، التي تحتاج الى خدماتنا ، والتي عليها كانت تعقد الآمال في تكوين الكيان العربي الكبير .

الفصل الخامس

اقامتي في نجد

١٩٢٨ — ١٩٣٢

انا الآن أتمشى على ظهر احدى بواخر الشركة الخديوية ، التي تشق عباب البحر الاحمر متجهة الى جدة . الشمس محرقة ، والبحر هادىء ، والباخرة تحمل القافلة الاخيرة من الحجاج ، لتدرك الجمع الذي لم يبق له الا ايام معدودة. وتمركز نظري في أفق هذا البحر ، وأخذت الافكار تتوارد على مخيلتي ، فأتصور الدولة السعودية الناشئة ، والتي بسطت نفوذها على ربوع الحجاز وعسير ونجد. وكنت أشعر بغبطة وابتهاج وأنا أفكر في أن اكون جنديا يخدم في هذه الدولة . وكنت كلما تقدمت الباخرة من (جدة) ازداد شغفي وعظمت آمالي وأحلامي .

كنت قرات ما كتبه الخبراء العسكريون الاجانب عن الحركات الحربية التي قام بها جيش ابن سعود ، وهو يغزو العراق وشرقي الاردن والحجاز في آن واحد مقتحما الصحاري الممتدة من الرياض الى تلك الاماكن . وقارنت بين المعارك التي قضت جيوش الفتح الاسلامي بها على جيوش الفرس والرومان والمعارك التي قامت بها جيوش ابن سعود في (تربة) ، ومعارك (جدة) الدفاعية .

نزلنا (جدة) محرمين، واتصلت عند نزولي بالأخ فؤاد حمزة حيث كان على علم بقدومي ومكثنا قليلا في جدة . توجهت بصحبته بسيارته الى (مكة) . ولم

يثر منظر مكة المكرمة ، التي تعج بالحجاج من كل فج في نفسي شعوراً جديداً لأنني كنت شاهدت هذه المناظر في حجة سابقة ، ولكن المنظر الذي استولى على مشاعري كان منظر الجندي العربي الباسل ، بلباسه البدوي وبتجهيزاته الكاملة.

نزلنا دار فؤاد حمزة ، وكان الاخ الامير شكيب نازلا فيها وهو الذي مهد لي سبيل قدومي الى الحجاز ، وكان قد دعي اليها من قبل الملك ابن سعود . وتعرفت بالسيد يوسف ياسين ، مستشار الملك ابن سعود ، والسيد خالد الحكيم والدكتور شيخ الارض طبيب الملك الخاص ، والدكتور محمود حمودة رئيس الصحة ، والسيد رشدي ملحس محرر جريدة (أم القرى) . وكانت احاديث هؤلاء تدعم ما في نفسي من الآمال وتقويها . ثم اتصلت بسمو الامير فيصل نائب الملك في الحجاز ، والسيد عبد الله سليمان وزير المالية ، وعبد الله الفيصل رئيس ديوان الشورى ، وكثيرين غيرهم من كبار النجديين والحجازيين . ثم سنحت الفرصة فاجتمعت بالملك في (مكة) . جلسنا على سماط قد مدّ للعشاء ، وكان يتصدره الملك والامير شكيب عن يمينه ، وكنت على مقربة من يساره ومشايخ نجد ، وكبار رجالات الحجاز يحيطون بهذا السماط . ثم انتقلنا بعد العشاء الى مجلس الملك الخاص ، حيث لم يكن فيه سوى الامير شكيب وسواي وفؤاد حمزة والشيخ يوسف ياسين . فبدأ الملك يتدفق بالاحاديث بلهجته النجدية البدوية الى ان قال : «اني والله لا أنام الليل من الخوف ، والخائف حذر . واني لا أتمن احدا على ملكي ، حتى اخي او ولدي هذا ، مشيرا الى سعود ، واني احتفظ بمفاتيح مستودعات السلاح والمدافع والعتاد بجيبي هذا، ولا اسلمها لاحد الا عند الحاجة» . وكان الامير شكيب يصغي وانا متأكد انه لم يفهم مما قاله الملك شيئا . ولقد اثار حديث الملك في نفسي من عدم ائتمانه لاحد، حتى اخيه او ابنه ، وإبقاء المهمات في مستودع ، ومفاتيحها في جيبه ، اثار في نفسي شيئا من الريبة والقلق في امكان تحقيق اي امل من آمالي بهذه العقلية .

وبعد القهوة عاد الملك الى الحديث من جديد وكان الآن سياسيا محضا . قال الملك : « شكيب شف سلمك الله . اني اعلم بسياسة الدول ، وانا اللي أعلمك . شف سلمك الله : امّا امريكا فهي أمة تجارية لا تقدر على الحرب وما هي الا صوت وبطن خالٍ . والله كأنها مربوطة أوصالها بخيطان من عنكبوت، ان انقطع خيط منها اتفككت كلها عن بعضها . واما فرنسة فهي قوية ضعيفة . قوية بمعدّاتها الحربية ، وضعيفة لان الانكليز منوخين عليها من كثير ، والالمان باركن عليها من كثير ثاني . واما الالمان ، والله ، انها امة قوية ولكنها معدومة من معدات الحرب . واما ايطاليا ما قدامها غير الهلاك واللي على راسها هذا هللي يسمونه موسوليني سايقها للهلاك ، كأنه حامل على راسه قدريّه ، ويموت ما يدري وين متجه والله ان وقع الجدر غير يطيّره ويطيّر معاه ايطاليا . وبارك الانكليز على رقبة ايطاليا مثل ما تبرك بحملة الشمندفير على الريل . واما الانكليز

والله انهم اقوى دولة وأامن دولة . واللهما عاهدوني وخانوا ولا أوعدوني وأخلفوا، وهم اهل كتاب . والله اني ما اقدمت على عمل الا استشرتهم به قبل الاقدام ، والله ما غشوني يوم وهم ينصحونني في كل يوم . وأما (يحيى) ، سلمك الله ، ويش أقول عنه ؟ هو شيطان صامت . و(الحسين) شيطان متكلم . أما نحنا ، سلمك الله ، والله سالكين مسلك السلف الصالح ؛ المصاحف برقابنا والسيوف بيدينا » .

وهنا ينتهي تصوير مجمل الموقف السياسي العالمي في نظر (جلالته) . وهذا الانطباع السياسي في فكر جلالة الملك كان أشد وقعا على آمالي وأحلامي من طراز استعماله المهمات الحربية . فاصطدمت آمالي وأحلامي بحديث جلالته في هذه الجلسة فزعزعتها وحطمتها . والامير شكيب مصغٍ بكليته . وأنا أعتقد انه لم يفقه شيئا من احاديث جلالته . وأخيرا التفت الملك اليّ سائلا : «وانت ايش تقول» . فقلت : طوّل الله عمرك . انت أعلم منا بكل شيء ونحن ما اتينا الا لنخدمك بما تأمر وتستنسب» . قال : «بارك الله فيك . وعندك فؤاد ويوسف اتصل بهم» .

***

نحن الآن نسير من مكة الى عرفة . وكان الوادي الذي تمر الطريق منه يغص بالحجاج ، والعجاج يتصاعد الى السماء . وكان موكب الملك يسير ببطء وتؤدة وهو ممتطٍ ذلولاً ، تحيط به حاشيته ورجاله على هجن ، منحسري الرؤوس ، محرمين . وكان الخشوع ظاهرا على وجه فيلبي اكثر من وجوه من كان في الركب . وكان للملك كظله ، لا يفارقه الا عندما يستنسب موقفا لأخذ صورته. والمسبحة وآلة التصوير هما الشيئان الملازمان لفيلبي التقي الورع !

كان فيصل الرويش شيخ قبائل مطير ، الذي كان ساعد الملك ابن سعود الأيمن في فتوحاته بنجد ، وفاتح مكة ، قد اشتد الخلاف بينه وبين الملك ، ولم يعد بالامكان معالجة هذا وإزالته . فخرج على الملك فجمع قبائله . وأخذ يشن الغارات على العراق ويسلب قبائلها ويهدد الامن فيها . مما دعا حكومة العراق والانكليز معا ، الى اتخاذ التدابير . وقد استفحل أمر الرويش ولم يكن للملك ابن سعود بد من قتاله . فأخذ يجمع بدوره الجموع ويرسلها الى نجد . اما وجهة الخلاف فترجع الى اسباب عديدة : أهمها ان فيصل الرويش الذي يعتقد ان له اكبر حق ، لبذله أعظم مجهود ، لم يستطع تحمل معاملة الملك لبقية الرؤساء ، الذين كانوا بالامس أعداءه وأصبحوا اليوم من المقربين لديه . وما يبذله من الاموال والعطايا لهؤلاء اكثر مما يبذله لفيصل ورجاله ، والقصور التي اخذ يبنيها جلالته لنفسه وللامراء ، والسيارات التي اقتناها والتي أهداها لسواه دون تخصيصه

بالعدد الاوفر منها . وعدّ ذلك اجحافا بحقه من جهة ، وإسرافا في اموال بيت المسلمين من جهة ثانية . ولما لم يكن بالامكان تسوية الامور استطار شر الخلاف فانقلب فيصل عاصيا على ابن سعود .

وبعد ان أتم الملك استعداده ، وحشد جيوشه ، عزم على السفر ليتولى قيادة هذه الجيوش بنفسه ، ومقاتلة الرويش . ولقد اعتبرتُ هذه الفرصة ملائمة لتقديم خدماتي لجلالته ، فطلب الامير شكيب منه ان يأذن لي بالاشتراك في هذه الحركات ، لكنه لم يقبل لان لون وجهي في نظره يشبه لون الانكليز ، وهو يخشى ان يتهمه الرويش والعرب باستعانته بالانكليز على قتاله . مع انه قد اشترك ضباط عديدون من الانكليز في قتاله مع ابن رشيد ، وقد قتل احد هؤلاء الضباط المدعو الملازم شيكسبير في ميدان المعركة .

وقررت أمانة العاصمة في مكة اقامة حفلة لتوديع جلالة الملك حضرها الاعيان والوجهاء ، ثم اتجه بركبه لاحقا بجيوشه حيث واعدهم الاجتماع . وكان الرويش من جهة اخرى قد سمع بهذا الحشد العظيم ، فجمع قواه واتجه لاطراف قرية (السُبيلَة) فحصّن مركزه ، وحفر الخنادق واقام المتاريس واخذ ينتظر قدوم جيوش الملك اليه . ومن هنا يتضح لنا ان الامر جد للغاية . وان المؤتمر ينعقد لامر خطير ، قد شطر نجداً الى قسمين ، واصبح الملك مهددا . وتابع المسير مع جيوشه الى (السُبيلَة) أمام مواقع الرويش . فأخذ يراسل الرويش ، ويحاول اقناعه ليصرفه عن القتال . ولكن لم يتفقا وأصبح القتال امرا واقعا . وسار الملك ومن معه نحو مواقع الرويش . وكان التفاوت في القوة عظيما ؛ اذ كان جيش الملك ٣٠ الفا بينما كان جيش الرويش لا يتجاوز ٨ آلاف ، فكانت ملحمة عظمى قضت على جيش الرويش بجرح في هذه الموقعة ، وتمكن من الفرار ومكّنته من الجزيرة مرة اخرى ، وانتشر نفوذه فيها بدون معارض .

عاد الملك الى الحجاز منتصرا ، ودخل المدينة المنورة ، ومكة المكرمة دخول الفاتح الظافر تحت أقواس النصر ولم يبق في الجزيرة معارض ، او من يخشى الملك امره . فجعلت هذه المعركة في نفس الملك نشوة عظمى وغرورا كبيرا .

وكان الامير فيصل السعود تمكن بدهائه وحنكته من ادارة الحجاز وعسير بطريقة لم يدع معها مجالا لمن تخامره نفسه في استسناح الفرصة للانقضاض على الملك ابن سعود . وكان فيصل قد تمكن كذلك من ان يؤمن لجيش الملك كل ما يحتاجه من المؤونة والتجهيزات والعتاد والبنزين من تجار الحجاز ، دون ان يدع احدا منهم يرفع صوته بشكاة . وبهذا يكون فيصل قد حمل العبء الثقيل في اقرار الامن من جهة وتموين الجيش ، مما يصعب بدونهما نجاح حركات الملك .

وكان فيلبي يلعب دوراً خطيراً في مقدرات البلاد في موضوع السيارات التي حبّب اقتناءها الى الملك . ولكن المئات من السيارات التي كانت ترد للملك سنويا كانت لا يدور الحول عليها الا وهي هرمة ، وذلك لفقدان الطرق ، وصعوبة الاراضي الرملية من الحجاز ونجد ، وقلة اهل الخبرة من ميكانيكيين وسواقين .

استقرت سياسة الدولة وانتشر نفوذ الملك في الحاضرة والبادية .

كان الملك يجلس جلسة عامة ، يأتيها من يشاء ، وكنا نتردد لحضور جلساته هذه .

وكنا كثيرا ما نساق الى هذه المجالس الخاصة ، حيث تدور فيها بعض الابحاث السياسية وكثيرا الابحاث الغرامية . فكان كل منا يذكر موضوعا او يقترح اقتراحا فخطر لي يوما ان اذكر لجلالته مزايا الجيش النظامي الذي يستعمل الاسلحة الحديثة ، عدا البنادق ، فيكون هذا خير عون للجيش الباسل في تسهيل واجباته الحربية ، ويخفف من وطأة المعدات الفتاكة اذا ما اضطر يوما للاشتباك مع جيش نظامي ، فأجاب الملك بشيء من الشدة : «اني والله لا اترك رجالي تحت رحمة اعدائهم لا يقاتلون ولا يتقدمون الا بأمر ضابط يتآمر عليهم . واني لا ارغب ان اراهم مصفوفين يتقدمون ذبائح لاعدائهم» . وأخذ يشرح لي ما عمله جنوده في المعارك النظامية في وقائع حربية مع الجيش الشريفي النظامي ووقائع ابن الرشيد الذي أشرك الجيش التركي النظامي فيها . فادركت وقتئذ ان الوقت لم يحن بعد لافهام الملك قيمة الجيش النظامي ولزوم وجوده . ودار الحديث نحو السياسة ، فذكر احد الحضور ما قالته بعض جرائد مصر عما تعمله الاحزاب المصرية في نضالهم مع الانكليز فتدفق الملك يخطب غاضبا: ان الاحزاب كلها بلاء وضرر للبلاد، ولولا حكمة البرلمان الانكليزي لذبحت جنود الانكليز في مصر مليون او مليونين او ثلاثة من اهل مصر ولذبحت عشرات الملايين من الهند فماذا عساهم يصنعون ؟ ولكن كل البلاء من اهل التحارير (وهي الجرائد) الذين يكون احدهم في الليل خمار رقاص زمار . ولما يصبح الصباح يكثر الوسائد وراء ظهره ، ويلف رجلا على رجل ثم ... العب يا قلم ... فيكتب ما يشاء من الفساد ويحرك ما يشاء من العباد ويكون سببا للشر والبلاء . فهو يرى ان هذه الاحزاب التي لا فائدة منها يجب ان تلغى ويجب ان يتفاهم رجالها مع السلطات المحتلة التي تحتل بلادهم ويرضخون . ثم يجمعون المال سرا ، ويرسلونه للحجاز ليتقوى به واذا ارادت ان تقوم البلاد العربية بعدئذ قومة رجل واحد لطرد عدوهم فالملك يقسم ان يمشي عندئذ من ورائهم لمعونتهم . وبغير هذه الطريقة لا يأمن العرب . ثم قال : ان العرب خرجوا من دينهم فحق قتالهم . والانكليز اهل كتاب . والله لو تقع حرب في هذه الجزيرة بين العرب والانكليز ، فاني اقف في صف الانكليز ، وليغضب من يغضب من العرب وليرضى من يرضى منهم . وكان يسمع هذه التصريحات نبيه بك العظم وخالد الحكيم وفؤاد حمزه ويوسف ياسين .

اما سياسته الخارجية ، فترتكز على صداقة بريطانيا العظمى التي يرى فيها وحدها الضمان الكافي لسلامة حدوده . فهو حريص جد الحرص على عدم ايجاد اي حادثة او ظروف تمس بهذه الصداقة . اما ايطاليا التي لم تكن لتعترف به بعد كملك على عسير ، بالرغم مما يظهر من نواياها السيئة تجاه عسير ، فهو لم يكن ليخشاها ويحسب لها حسابا كبيرا ، بناء على متانة صداقته لبريطانيا ، التي هي في نظره اقوى الدول ، وكلمتها نافذة على كل الدول . ولم يكن لايطاليا وقتئذ جيش مهم في الارتيريا على الساحل المقابل لسواحل عسير . وأما علاقته مع اليمن فكانت ممزوجة بشيء من المطامع يغذيها (فيلبي) دوما . وكان للملك صلات قوية مع رؤساء قبائل الشوافعة في اليمن ومع بعض قبائل أخرى ، ممن لم يكونوا على صفاء مع الإمام يحيى ، فكانت هذه الروابط ورسائل مشايخ القبائل اليمانية المذكورة ، الذين كانوا يحثونه فيها دوما على الاقدام على احتلال اليمن وانقاذهم من الحكم الزيدي . كما كان تحريض فيلبي وتهوين امر فتح اليمن ، بما يبديه لابن السعود من الآراء والخطط التي لم يسر الترك عليها وبتقديمه المعدات اللازمة لهذه الغزوة ، كانت هذه الامور كلها تملأ نفس الملك بالاحلام والمطامع .

اما العراق فقد كان ابن سعود يخشى وجود الملك فيصل فيه حيث يعتقد فيه الدهاء والمقدرة والكياسة والحنكة الكافية لايجاد المشاكل المهمة لتعجيز ابن سعود في بلاده . ولكن هذه المخاوف كانت تتلاشى امام ثقته ببريطانيا التي لها الكلمة العليا في العراق . وكان يكره الامير عبد الله ويخشى طيشه ولكن كان يستضعف عمله ويطمئن من وجود بريطانيا الحاكمة في شرقي الاردن للقضاء على ما يحتمل ان يقوم به من الدسائس . فليس لابن سعود بالاجمال ما يشغل باله او يخيفه على سلامة حدوده . أما علاقته بمصر فكانت سيئة جدا ، وذلك لعوامل تاريخية . اولا فهو لم ينس بعد غزوة مصر بقيادة محمد علي وابراهيم باشا وطردهم سعود الكبير منها ، ثم مطاردتهم لابن سعود في نجد واحتلالهم اياها ، ودخولهم الرياض ، التي لا تزال احدى ثكناتهم قائمة فيها حتى اليوم . كما كان لقطع مصر مخصصات الحرمين الشريفين من الاموال والارزاق ، وعدم ثقتهم بالسعودية بتسلمهم أموال الحرمين ، التي يخشون تصرفهم بها على غير وجوهها، ولما حدث في الشهر الاول من حكم السعودية في قضية المحمل التي كان لها الاثر السيء في توتر العلاقة بين البلدين . وعدم اعترافهم بالملكة السعودية وما يلمسه ابن سعود من ميل الشعب الحجازي وعطفه على المصريين . كل ذلك جعل علاقة ابن سعود بمصر متوترة وفي اضطراب مستمر . ولقد سعى الملك كثيرا للتفاهم مع مصر على اساس استلام المخصصات ليصرفها على الحرمين ، فلم يثمر مسعاه . وكان لغنى مصر التي تستطيع معه تجهيز الجيوش ، ولما تتمتع به من عطف ونفوذ معنوي في الشعب الحجازي خاصة أثر في جعله في قلق وريبة مستمرين .

اما السياسة الداخلية فترتكز على ما أوجده من النفور والعداء بين القبائل

النجدية والحجازية ، ثم على قوة اهل العارض ، وبعض القبائل الموالية له وجيشه الصغير . ولقد تمكن من تسليح سيارات واقام في كل مراكز الدولة اللاسلكي التي سهلت له الاطلاع على اي حادث يقع في حينه ، وسرعة القضاء عليه قبل استفحاله . ولقد قطعت المعاهدات التي عقدها مع العراق وشرقي الاردن والكويت كل امل من نفوس من ينوي القيام عليه . فخيَّم الامن بذلك ، وخلدت القبائل الى السكينة ، وارتفعت الثقة من بين القبائل ، حتى اصبحت تنظر كل قبيلة الى الاخرى بعين الريبة والحذر . وقد بث الملك بين جميع هذه القبائل عيونا له تخبره بالكبيرة والصغيرة من اعمال هذه القبائل .

اما الحجاز فما كان ابن السعود ليخشاه ؛ اذ وطد نفوذه فيه على نفس الطريقة التي اتبعها في نجد وزيادة على ذلك بما اقامه فيها من الجيش النجدي وبما لحق الحجاز من فقر .

وكان ابن سعود في بادىء الامر لا يهتم بشأن الجرائد ، ولا بسلاح دعايتها ، وكان يعتقد انه باستطاعته الاستغناء عن العرب كافة ، ولكن العرب لا يستطيعون الاستغناء عنه فهم مجبرون على التمسك به ومجاراته لافتقارهم لمعونته بينما هو في غنى عن معونتهم ، التي لا يحسب لها حسابا ، ولا يقيم لها وزنا ، طالما هو حاصل على صداقة بريطانيا العظمى ومودتها . وأما منشأ هذا الغرور فكان مما تنشره الجرائد من الفصول الطوال عنه ، وبما تعلق عليه الامة العربية من آمال لانقاذها من الاستعباد والاستعمار . وكان كل من يخرج من رجالات العرب من الحجاز يعطون الاحاديث للصحف ، ويبالغون جدا في تعظيم اعماله . ولم يلمحوا ولو مرة واحدة عن اعمال انتقدوها فيه انفسهم . مما جعله يعتقد بنفسه ما تقوله الصحف عنه ، والرجالات ايضا . فهذا ما حمل اليه الغرور ، وجعله يستصغر شأن العرب ، ورجالاتهم الخارجين عن حدود سلطانه .

كان نبيه بك العظمة جاء الحجاز ، كما ان الامير شكيب غادرها . وكانت احوال الدولة تسير من سيء الى أسوأ ، وتمشي الى الانحطاط بسرعة . وكان للضائقة المالية العالمية أثرها القوي في الحجاز . الحجاز الذي يستورد كل حاجياته من الخارج ، وليس فيه ما يصدره للخارج . واحتياجات الدولة والبلاد تدفع أثمانها من موارد الحج . وقد اخذ يتناقص هذا المورد ويضأل لدرجة انه لم يتجاوز في عام ١٩٣١ المائتي الف دينار ، وهو مبلغ لا يكفي لسد حاجيات العائلة المالكة وحدها . وتناقصت اعطاءات الملك للقبائل والرؤساء ، مع تناقص الواردات. وكانت هذه الاعطاءات مصدرا للمعيشة للبعض ، وضمانا لاستكانة الآخرين . واخذت القبائل تطالب بمخصصاتها بإلحاح . واتخذت الاخرى مواقف أثارت الريبة والمخاوف في نفس الملك . وراجت فكرة تأسيس جيش نظامي تحت هذه العوامل والظروف ، وذلك ليكون الجيش سببا في إعالة كثيرين من النجديين ،

وقوة احتياطية تطمئن مخاوف الملك من مواقف القبائل المريبة . فتقرر أن يعهد الى نبيه بك العظمة تأليف هذا الجيش ، وأن اكون معاونا له . فأخذنا نضع منهاجا مفصلا ، وأردفناه بتقرير شامل قدمناهما لنائب الملك الامير فيصل وطلبنا ان نقوم بجولة تفتيشية لفحص ما هو موجود في المستودعات من الاسلحة والعتاد والتجهيزات . فوافق النائب على هذه الفكرة . بدأنا اولا من مكة . وكانت هذه المستودعات تحت سلطة ابن سليمان مباشرة . وكان مستحيلا معرفة ما يحويه هذا المستودع مما يهمنا ، ففيه كل شيء ، وضائع فيه كل شيء . ولا يدري احد عما فيه من محتويات .

وذهبنا الى جدة . فكان الصدأ والعفونة حرس هذه المستودعات . وذهبنا الى بقية المراكز الى ان وصلنا المدينة . وهناك حظر امير المدينة علينا رؤية المستودعات ، لانه سر من أسرار الدولة . منعنا من الدوام على التفتيش ، وطلب منا العودة حيث قدمنا تقريرا الى نائب الملك مفصلا ، فقبله بارتياح . ولكن الموافقة الوجاهية لا تعني الموافقة على التنفيذ . وأخذت المماطلة تسود الموقف . وبعد ايام زارنا فيلبي وكان يظهر اهتمامه بأعمالنا المفيدة الى هذه الدولة العربية . وأخذ فيلبي يشرح لنا سياسة انكلترا ، ويؤكد لنا انه ليس لها أدنى منفعة من كل مستعمراتها ، ويتمنى لو تخرج هذه المستعمرات من يدها . مكتفية بالتعامل التجاري معها . وانتقل الحديث الى التحدث عن الملك فذكر فيلبي عدله وعبقريته وذكاءه ومزاياه النادرة . وقال : يجب ان يكون هو وريث العباسيين . وانه ساعٍ الآن لحمل الملك على تحقيق هذه الفكرة . فيجب أن تكون العراق والسعودية واليمن وشرقي الاردن ممزوجة في هذه المملكة . ولما سألته عن فلسطين وعدن ، قال : بالطبع يتفاهم ابن سعود مع بريطانيا من اجلهما . واحتدم بيننا الحديث، فصارحته عن حقيقة امره ، وأمر بريطانيا ، وأننا لسنا بالبلهاء ولسنا بفاقدي العقول ، حتى نقبل مثل هذا الهذيان . فبريطانيا بمعاملتها العرب ، وبقطعها العهود لها وقطعها عهودا أخرى عليها ، في الوقت نفسه . ونكثها بما عاهدت عليه العرب، وتنفيذها بما عاهدت عليه اليهود بالسلاح ، تكون أسفل عدو عرفه التاريخ . فتدخّل فؤاد حمزة ، وقال : انه لا يحق لك وأنت تتمتع بصفة رسمية ، أن تتكلم مع فيلبي بمثل هذا الكلام . ثم انقلب الحديث اخيرا الى مواضيع أخرى ، وبرودة الدم الانكليزي مسيطرة على أعصاب فيلبي التي أثبتها بدعوته ايانا لنتناول الشاي عنـده .

ذهبت انا ونبيه بك الى منزله قبل الموعد ، ودخلنا غرفته ، واذا بنا أمام منظر جد غريب : اذ رأينا فيلبي جالسا وأمامه عدة وسائد ، موضوع عليها عدة اكياس من الذهب . وأمامه من شيوخ نجد الذين يتلثمون عندما يرون أمثالنا كي لا يشموا رائحة الشرك فينا ، جالسين يتفاهمون مع فيلبي على امر الذهب بكلّه. ولما رآنا فيلبي ، قام ، فحيانا ، وقال : ان هؤلاء يحبون المعاملة مع البنك ، وأنا

وسيطهم . فجمع الاكياس ، وأومأ للجماعة ، فخرجوا . وقلت له وهو خارج للاجتماع : انك يا فيلبي واسطة خير في هذه البلاد ! وبعد ان أتم أعماله مع المشايخ ، وصرفهم ، حضر لعندنا . واحتسينا الشاي معا . وكان يدلي بأفكاره في سهولة عن غزوة اليمن والخيرات التي فيها ؛ اذا استحوذ عليها الملك تخفف عنه الضائقة. ومما قاله ان الاتراك اذا لم ينجحوا فياستيلائهم على اليمن واستقرارهم فيها فذلك لانهم كانوا يغزونها دوما من السواحل . ولكن اذا توجهت الغزوة من الشمال فهذا طريق يتوقعه اليمنيون ، ويتم النصر فيه لابن سعود ، ويسهل عليه تأمين استقراره في اليمن لعلمه وسعة اطلاعه على عوائد وأخلاق اليمنيين مما كان الاتراك يجهلونه . ومما قاله ايضا انه لا فائدة من بناء السكك الحديدية التي اصبحت من الوسائل القديمة ، والتي صرفت عنها أوربا اليوم ، واستعاضت عنها بالسيارات ؛ فهي خير وسيلة في هذه البلاد .

خرجنا من عند فيلبي وأنا أفكر بما يحمله من هذه الافكار الغريبة . والغريب ان عباراته هذه كان جلالة الملك يرددها عينا في تبيان آرائه لنا في مجالسه الخاصة . وفيلبي في نظري اعظم من لورنس ولا شك ؛ لان لورنس كانت مهمته حمل القبائل العربية لقتال الاتراك في جانب الملك فيصل ، وكان المرحوم حليفا للجيش البريطاني ، وكان في متناول يد لورنس كل ما يحتاجه من الذهب ، والسلطات التي يتمتع بحق استعمالها والتصرف بها دون استئذان . ولكن فيلبي لوحده يقوم بإرشاد الملك الى اهداف معينة ، ويدافع عن الملك في لندن ، وينشر من الدعاية في الخارج كذلك ، ويرشد دائرة الاستخبارات البريطانية الى الطرق التي يجب اتباعها مع الملك . كما انه يحمل حكومة بريطانيا على تعقيب السياسة الصالحة لتأمين نفوذها في الجزيرة . فهو يمثل شركات السيارات التي تدر عليه الارباح الطائلة ، ويمثل مستشارية ابن سعود ويمثل دائرة الاستخبارات ، ويمثل الحكومة البريطانية . فهو يكتب تقاريره يوميا ويرسل نسخا منها الى السفير في جدة ، والى الانتلجنس سرفيس في لندن ، ويحتفظ بنسخة منها في خزانته . وله محاضرات قيّمة ومقالات مهمة ينشرها بصورة علنية في الصحف من وقت الى آخر ، ويلقيها في مجتمعات لندن .

وتقرر اخيرا ذهابنا الى مكة لاستلام أمور الجيش ، فوصلناها بصحبة نبيه بك . وكانت كل أعمالنا لا تتجاوز القرطاس . وفي كل مطلب من مطاليبنا ، كبيرا او صغيرا نجد أنفسنا في تحقيق أمام ابن سليمان وزير المالية وغير مرتبطين بنائب الملك . فلم نتقدم خطوة واحدة في أعمالنا خلال الاشهر الاولى من وجودنا في الحجاز . وأيقنّا اخيرا انه لا فائدة ولا امكان للعمل . فلم يسع نبيه بك الا أن قدم استقالته . وبحكم هذه الاستقالة اكون كذلك مستقيلا . غادر نبيه بك البلاد وراجت الشائعات كالعادة عندما يغادرها اي شخص ما ، فلم يأت شخص من

الخارج من رجالات العرب المعروفين الا وخرج غير راضٍ وآسف ، كما كان الرجال المسؤولون غير راضين وغير آسفين على مغادرته البلاد .

كلفت باستلام الجيش . ولكني أعلمتهم انه لا فائدة من استلامي انا او اي شخص آخر على الطريقة السالفة الذكر . ولما الحوا عليّ أعلمتهم بما ارتأيته لانهاض الجيش وإصلاحه ، فقبلوا . واستلمت الجيش وكان من مقترحاتي أن يجتمع الجيش كله في جدة ، ما عدا مفارز صغيرة تترك في المراكز اللازمة . ثم تجمع الجيش وأخذ بتوحيد اسلحته ، وبدأت بتنفيذ برنامج لتدريبه . وأخذت حالته تتحسن تدريجيا . وقد أبدى الجندي النجدي استعدادا عظيما في تلقي العلوم العسكرية والتدريب المنظم . فلم تمض بضعة اشهر حتى كان الجيش بجميع اسلحته في مستوى يعادل مستوى الجيوش النظامية في الشرق . وتوسعت في التمرينات والتطبيقات والمناورات حتى جلبت الانظار . وأخذت تدور عني بعض الاشاعات عن سر هذا الاستعداد والنشاط الذي ظهر في الجيش . وكانت صلتي اخذت تقوى بسمو الامير فيصل ، وتأسست بيننا صداقة متينة . ولكني كنت أشعر من ابن سليمان بمجاملة غريبة بنسبة تقدم هذه الصداقة بيننا . وكان يسعى لارضائي وجذبي نحوه ما استطاع بتأمين كل مطاليبي عامة وخاصة . حتى قرب يوم جلوس جلالة الملك ، فقررنا القيام باستعراض نظامي باهر ، بالرغم من بعض النواقص الموجودة ؛ فلم يكن لدينا مثلا حيوانات لجر المدافع ، فاستأجرنا بغال رواة الماء في جدة، وتدبرنا الحبال وغيرها من الوسائل وأخذنا نمرنها يوميا على سحب المدافع . حتى اذا كان يوم الاستعراض تمكنت من اظهار الجيش أمام جلالة الملك والسفراء والاعيان بمظهر تجلّى فيه النظام الذي لم يعهده احد في الحجاز ، حتى في دور الحكومة العثمانية . وعندما كانت تمر المدافع امام الجمهور في الاراضي الرملية ، وأنا عالم بوهانة البغال المجروحة ، ووهانة الحبال ، كان يزداد خفقان قلبي ، خوف انقطاع حبل ، او تعثر بغل ، فتغوص عجلات المدافع في الرمل ، ويتوقف المهرجان ، حيث يستلزم سحب هذه المدافع لافساح الطريق جهود الجنود كلها وربما بعض المتفرجين . فتم الاستعراض بدون حادث وعلى غاية ما يرام . وبعد هذا قمنا باستعراض آخر على الطريقة النجدية بلباسنا العسكري أمام الملك والسفراء ، الذين باركوا لي وللملك . وقد أهداني الملك على اثر هذا الاستعراض سيفا قيّما تاريخيا لآل الرشيد ، كما أعلمني جلالته انه أهداني سيارة وفرسا كريمة .

وكان الابتهاج عاما شاملا لمناسبة الاحتفالات في عيد الجلوس الا عند علماء الدين الوهابيين ، الذين اعتبروها كبدعة ، وطلبوا الغاءها ، وانه يجب أن يستغفر من الآثام التي لحقته لرضائه بإقامتها . فنشر جلالة الملك كتابا استغفر فيه ذنبه وأعلن الغاءها معترفا بخطيئته . وهكذا كانت سلطة رجال الدين ظاهرة بارزة لا يعارضها احد .

كانت الضائقة المالية آخذة بالاشتداد ؛ فكان الجند لم تُصرف لهم رواتب منذ ستة أشهر ، وكانوا يؤمنون معيشتهم بما يستقرضونه من اصحاب الدكاكين. ولكن هؤلاء لم يعد بوسعهم دوام قرض الجند ، فأصبحت حالتهم حرجة . وعبثا راجعت وكتبت بوجوب صرف شيء من الرواتب . وأخيرا قررت أن اذهب بنفسي لحل هذه المشكلة مع الامير فيصل . وقبل أن أغادر جدة الى مكة فاجأني عبد الله ابن سليمان بزيارة نصحني فيها بلهجة التهديد بترك الامر كله ... كان نفوذ ابن سليمان قد امتد الى فروع الحجاز كافة من حضر وبادية . وكان أخصاؤه ، وبقية المنتسبين اليه من حزبه ، يتمتعون بأنواع الخيرات ، وهم في حصانة تامة من أن ينالهم عقاب . وكان للامير فيصل حزب الصداقة فقط تربطه به ، ولكن هذا الحزب كان ضعيفا مهضوم الحقوق. فالكل يخشى سيطرة ابن سليمان ، ويأمل نيل الخير منه ، وذلك لما له من النفوذ المطلق عند الملك ، ولما أعطاه من الصلاحيات. وهذه الصلاحية خولته السيطرة على كافة رؤساء القبائل الاحرار ، حتى على العائلة المالكة نفسها .

غادرت جدة الى مكة ، وواجهت الامير فيصل ، وأعلمته بما جرى بيني وبين ابن سليمان بالحرف الواحد ، وطلبت منه اعفائي من الخدمة . فقال لي : لا تفعل يا فوزي ، واذا احد يجب أن يطلب اعفاءه من الخدمة ، فهو انا ، وهذا مقدّر ، ويجب علينا احتماله وانها فرصة تخبر الملك بما جرى بكتاب عنها . وسأكون حاضرا عنده لمعاضدتك . فكتبت للملك مبينا حالة الجيش قبل استلامي له ، وما صار اليه بعد استلامي له . أعلمته ان المشاريع التي وافق عليها سمو الامير ، وامر جلالته بتنفيذها ، قد عرقلها ابن سليمان جميعها . ثم ذكرت له ما جرى بيني وبين ابن سليمان بالحرف ، وطلبت اخيرا اذا لم يكن في الامكان تنفيذ المشاريع التي صدرت ارادته به أن يعفيني من الخدمة . وحملت الكتاب بنفسي الى الملك ثم صاح اين ابن سليمان ؟ فحضر ابن سليمان ، والتفت اليه الملك قائلا بجد : «ايش وراك مع فوزي» (سنّعه) ، اي : دبّر امره . وناوله كتابي فأخذه ابن سليمان بدوره قائلا : سمعا وطاعة . ثم تناول الملك مواضيع أخرى ؛ وبعد برهة انصرفت ، واذا بفيصل ينتظرني بسيارته . ولما سألته عن سبب خروجه قال كي لا يشك الملك في اتفاقنا على هذا الامر ، وأعلمته بما جرى فقال : والله ما هي بشارة . فتوقعت مكيدة يحيكها ابن سليمان ، كما توقع ذلك الامير فيصل .

***

عدت الى جدة وتابعت اعمالي في الجيش . ولكن الحالة كانت تزداد سوءا. واخذ طيارو الانكليز يرفعون أصواتهم بالشكاوي ، وطلب مرتباتهم ، حتى انتهى الامر بمراجعة سفيرهم والطائرات والادوات الاحتياطية وبقية الاسلحة يأكلها الصدأ وفي حالة سيئة . وعبثا حاولت إفهام هذه الحقيقة. ففي كل مرة كان ابن

سليمان في وجهي ، ولم يدعني مرة لاصلاح وإنقاذ هذه المهمات . ولما ايقنت انه يستحيل اي عمل مفيد وتقديم اية خدمة مع هذا الوضع، صممت ان افاتح فيصل في امر اعفائي من الخدمة ثانية . وكان قد زارني ابن سليمان مرة اخرى واظهر لي اخلاصه ومحبته وتقديره اليّ ، ونصحني بأن اقدم استقالتي ، اذ بها الخير لي . فأعلمته بما كنت عزمت عليه قبل مجيئه ، وبينت له بأنني ذاهب لمفاتحة الامير بهذا الموضوع ، وانصرف . وكان الملك والامير في الطائف ، فذهبت اليها بحجة تفتيش وتفقد شؤون حاميتها . فصارحت الامير بما عزمت عليه واصر عليّ بأن لا افعل ، واقنعني بوجوب التريث الى ان نجد طريقة نتخلص فيها من ابن سليمان .

ولم تكن في الحقيقة حاشية جلالته من العنصر الصالح ، من السوريين ، فهم اولا غير مثقفين ، وليس لهم اي ماضٍ مجيد ، وقد اصابوا نعمة لم يكونوا ليحلموا بها ، واصبحوا بفضل جلالته من الاغنياء وأصحاب المقامات الرفيعة . فكان طبيعيا على امثال هؤلاء أن لا يدعوا مجالا لتقرب غيرهم من الصالحين المخلصين لخدمة العرب ، وخدمة جلالة الملك . فكانوا يختلقون دوما على هؤلاء شتى التهم ، ويحذرون جلالته منهم . وهكذا حرم جلالة الملك من خدمة خيرة رجال العرب ، الذين ثبت اخلاصهم وتفانيهم في سبيل الامة العربية . وكانت هذه الحاشية من جهة اخرى ، تحذر الملك وتصور من المشكلات الجسيمة من مداخلاته في أمور الاقطار العربية التي تحتاج الى مساندة الملك الادبية . ففي نظري اذا كان جلالته معذورا بعض العذر في اتباعه سياسة حيادية ، فان المسؤولية التاريخية ترجع بالدرجة الاولى الى هذه البطانة السيئة . وكان من جراء هذه السياسة التي زينوها لجلالته وموقفه من فلسطين في ثورتها عام ١٩٢٩ عندما استفحل امرها. ولقد صرحت الجرائد الانكليزية على لسان اكثر ساستها ان قضية فلسطين تابعة لموقف جلالة الملك ابن سعود منها ، اي كلمة واحدة من جلالته تكفي لحلها ، اما لمصلحة العرب ، او لمصلحة الانكليز واليهود . فكانت كلمة جلالته التي اذاعها حافظ وهبة سفيره في لندن وقتئذٍ : «ان جلالة الملك يثق بعدل بريطانيا» . وهكذا ذهبت الجهود والدماء في فلسطين هدرا . كما كان موقفه من قضية عمر المختار ، الذي احتجت كافة الامم العربية والاسلامية واخفضها شأنا مستفظعة عمل ايطاليا في اعدامها البطل المجاهد عمر المختار .

ولقد حرمت الاقطار العربية في محنتها من عطف ومساندة اعظم قوة عربية تخشاها الدول الاوروبية . ولم يكن موقفه من الاقطار العربية مثل هذا الموقف قبل اكتساب هذه الحاشية نفوذها لديه ومكانتها عنده . اذ انه لم يبخل بمعاونته لسورية في بدء حكمه بالمال والعطف والتدخل المؤثر . اذ انه لما احتج سفير فرنسة عما وصل اليه من اخبار معاونة جلالته المالية قال له : «انهم مني (السوريون) واذا اردت معاونتهم فلست اكتفي ببضعة آلاف من الدنانير ، بل أعينهم بعدة آلاف

من القاتلين» . ولكنه مع الاسف بتأثير هؤلاء ، وبتأثير فيلبي تبدل موقفه وتطور لدرجة انه لم يسمح بإعادة ما كنا أودعنا عنده من الاسلحة ، التي اشتريناها بأموال الثورة السورية ، عندما طالبناه بها مرارا بواسطة خيرة من يعتمد عليهم من رجالات العرب . وكانت هذه الاسلحة وحدها تكفي لاعادة ثورة او لإحياء ثورة وإنجاحها في سورية وفلسطين . ولكنا حرمنا هذا الركن العظيم مع الاسف بفضل وسوسة حاشيته الكريمة !!!.

ولما وصلت جدة ، واخذت الاشاعات تسري في المدينة عن نوايا الملك نحوي من عزل وعقاب وغيرهما . فلم يكن مني الا ان ارسلت له كتابا وطلبت منه ان يرخص لي للحضور لاعلمه بما جرى . ولما لم يرد عليّ جوابا منه خلال أسبوع ، أبرقت له طالبا المقابلة لازالة سوء التفاهم . ولما لم يجبني لم يسعني الا ان اقدم استقالتي ، ابيّن فيها ان الخدمة في جيش يحكمه ابن سليمان حرام . فكان الجواب هذه المرة ما معناه : انني معزول من مقام أنا فيه منصوب وقضي الامر .

فعدت الى مكة ، وعزمت أن أرسل كتابا للملك ، أبيّن له فيه حقيقة ما جئت من اجله ، وحقيقة امره ، وحقيقة ما شاهدته في بلاده . وأردت بذلك أن أعلمه انني لا أغادر البلاد حتى أتأكد من استلامه كتابي ، كي لا أكون كالجبناء الذين ينافقون له بحضوره ويشتمونه بعد خروجهم من بلاده في غيابه . فأرسلت كتابا طافحا بالحقائق المرّة التي اقول فيها : انني أتحمل مسؤولية كل كلمة فيه غير صحيحة ، كما على جلالته ان يتحمل مرارة كل حقيقة فيه . ثم أعدت السيف الذي أهداه الملك اليّ سابقا . وكان اول هدية تعاد اليه . وبعد وصول كتابي اليه اتاني فؤاد حمزة مهددا بقوله : ماذا يمكنك ان تفعل مع الملك وباستطاعته ان يفعل فيك ما يشاء . فأجبته انني استطيع ان اعلم العرب الذين علقوا عليه الآمال الجسيمة بحقيقة امره . والآن يعلمون انهم اذا أرادوا خلاصهم فلا يعتمدوا الا على انفسهم . فهذا كل ما استطيعه ، وللملك ان يفعل ما يشاء . ولما رأى فؤاد حمزة عنادي وإصراري اخذ يلاطفني ، ويكيل لي بوعود ذهبية فيما اذا اردت البقاء . فأعلمته عن عزيمتي على السفر . وعبثا حاول . وبعد هذا اتاني يوسف ياسين فأوسع عليّ الاماني والوعود ، فلم تفلح . واتاني الدكتور مدحت شيخ الارض كذلك ، فلم يفلح . وكان قد جاء الحجاز في هذه الايام الامير عادل ارسلان ، وبعد ان اجتمعنا ، نصحني بالبقاء ، فلم اتراجع عن عزمي . واخيرا طلبني الامير فيصل اليه ، وكان صديقي الحميم . قال لي لا تكن احمق وابله . فهذه الحادثة هي خير فرصة تستثمرها ضد ابن سليمان . واصر عليّ بالبقاء . فطلبت منه امهالي . وكان الملك بدوره قد ارسل اليّ كتابا يعلمني فيه انني محسوب عليه وان عليّ ، وعلى امثالي ان أتحمله ، وهو قد امر لي بما يرضيني . فعاد الامير عادل وقال : ان مغادرتك البلاد بعد هذا الكتاب غير لائقة ، كما ان الامير فيصل اصرّ عليّ بالبقاء ، واقنعني بذلك . ولما علم فؤاد حمزة برضائي على البقاء اتاني فرحا

واستكتبني كتابا اقول فيه : انني رضيت بالبقاء في الحجاز باختياري . وانتهى الامر ، وسافر الملك الى الرياض ولم أحضر لوداعه . ولازمت بعدئذ الامير فيصل، حيث اصبحت مستشارا خاصا له ، فلم أفارقه في اقامة او سفر او اجتماع خصوصيا كان او رسميا .

***

بدات القلاقل في فلسطين عام ١٩٢٩ ، واخذت تتطور حتى وصلت الى حد خطر شمل البلاد المقدسة بأسرها تقريبا . وقد كتب اليّ احد اخواني المخلصين عن الحالة المتفاقمة فيها ، فكتبت له انه ما دامت الهجرة الصهيونية مستمرة وما دامت لليهود المطامع الكبيرة ، وما دام الانكليز يفسحون المجال لهذه الهجرة والمطامع بأسنة حرابهم ، وبالقوانين الصارمة التي يستحيل معها ان يحافظ العرب على ارضهم ، فيجب ان تتوقع تكرر امثال هذه الحوادث والتعديات الصهيونية بصورة اوسع . بينما اليهود يقومون بالتشكيلات العسكرية والاقتصادية الواسعة ، ويسلحون انفسهم بما يجلبونه من انواع الاسلحة ، سرا وعلانية . وينظمون كتلا من شبابهم على نمط تنظيم الجيوش ، ويأتون بالضباط من اليهود المطرودين من المانيا ومن بولونيا . سكون العرب واستكانتهم ، وعدم استعدادهم ، سوف يزيد من مطامع اليهود ، ويدفعهم الى استعجال تنفيذ خططهم . واني اخشى ان يصبح العرب ، وهم على غير استعداد مكتفين بثقتهم واستكانتهم على وعود الانكليز ، في فلسطين يوما من الايام وجها لوجه مع اليهود المنظمين والمسلحين ، فلا تستطيع مجابهتهم ، فتقع كارثة تودي بحياة العرب في فلسطين ، وتحل قضيتها بالامر الواقع . لذلك يجب ان لا يأسف العرب اذا لم تحصل من اعمالها الآن على نتيجة ، بشرط ان تبدأ استعدادها منذ الساعة ، بطريقة تضمن لها ايجاد قاعدة خارج فلسطين تشن منها الغارة حين الدفاع ، وتقلب القضية الفلسطينية الى قضية عربية عامة . ورسمت ما يجب لذلك من الخطط . وبالطبع لا يمكن الآن ذكر اي شيء عن ماهية هذه الخطط التي تصبح بيد الانكليز واليهود خير سلاح يقاتلوننا به ، ويسدون به علينا الطريق . فكان لكتابي هذا الوقع المؤثر في نفوس اخواني في فلسطين ، فطلبوا اليّ الحضور للتفاهم على الخطة مهما كلف الامر. ففاتحت الامير فيصل بما انويه ، وطلبت منه ان يساعدنا ببعض (التعديلات) يقوم بها . ثم استرخصته بالذهاب الى مصر ، ورجوت ان يبقي سفرتي مكتومة ، ففعل. ثم تظاهرت بأني ذاهب للمدينة بقصد الزيارة ، فاتجهت شمالا نحوها ، ثم عطفت جنوبا الى جدة. وركبت الباخرة ووصلت العريش وكان احد اخواني في انتظاري، حيث ركبت منها رأسا الى احدى العزب دون ان اعلم احدا من اصدقائي في مصر عن قدومي . ولشد ما كانت دهشتي حينما بلغني سؤال الشرطة في مصر عني من القاهرة . اتصلت حالا بكل من يجب الاتصال به من رجالات فلسطين وشرقي

الاردن . وببرهة قليلة تم التفاهم والاتفاق وبدأت الاستعدادات للعمل . ولكن الانكليز الذين كان موقفهم في العراق وفي الهند وفي مصر وفي فلسطين سيئا ، اخذوا يطلبون الوفود الى لندن للتفاهم . فبينما كانت الوفود تسافر الى لندن ، وتتفاوض فيها ، كانت رجالهم تعمل في البلدان لبث التفرقة والفساد ، وحمل الشعب على التقاتل مع بعضهم بعضا . وبهذا يكونون قد اكتسبوا الوقت اللازم ، وشلوا نفوذ ونشاط الزعماء عندما يعودون مخفقين .

مر الوفد الفلسطيني حين ذهابه الى لندن بمصر ، فاجتمعت مع من يجب منهم . وكانت الفكرة أن لا نأتي بأي عمل ما يشتمّ منه رائحة سوء نيتنا ، ما دام الانكليز انفسهم يظهرون حسن النية . فقلت : انه لا بأس من ان نستعد وننتظر نتيجة المفاوضات فان كانت شرا ليكون جوابنا حاضرا . ولكن عبثا حاولت حمل اخواني على تحقيق فكري . وكانت النتيجة كما توقعت . اذ بعد ان تمكن الانكليز من تفريق الكلمة في فلسطين ، رفضوا كل شيء ، وعاد الوفد دون ان يتمكن من عمل اي شيء . فقفلت راجعا الى الحجاز والالم يحز في نفسي والاسف يملأها .

***

وفي ذات يوم استلمت كتابا من الامير شكيب ، يعلمني فيه ان **الملك فيصل** بلغه ما حدث بيني وبين الملك ابن سعود من سوء التفاهم ، وانه آسف جدا . ويقول انه اذا لم يكن في الامكان رتق الفتق فاترك الحجاز ، واحضر الى العراق على الرحب والسعة ، واعلمني تاريخ حركتك . ولكي لا يكون هذا الكتاب موضع مؤامرات جديدة ضدي اطلعت الامير فيصل عليه كما اطلعت فؤاد حمزة ، ثم كتبت كتابا الى الملك ابن سعود أعلمته فيه مضمون هذا الكتاب ، وطلبت منه ان يأذن لي بالذهاب اذا لم يكن لديه عمل أخدمه فيه . فأجاب عليه بأنه اطلع على كتابي ، وانني محسوب عليه ، وانه سوف يقوم بأعمال تسرني ، وان انتظر عودته من الرياض ، ويدعو لي وللمسلمين بالتوفيق ، فانتظرت .

كانت الازمة الاقتصادية وصلت الى اقصى حدودها في اوروبة ، واخذ يظهر تأثيرها في الحجاز على شكل مخيف . اذ لم يكن لدى الدولة اي مال احتياطي فحسب ، بل كانت غارقة بالديون الخارجية والداخلية . وكان مورد الحج ، هو المورد الوحيد للدولة ، يكاد ان ينضب معينه ، حتى ان ابن سليمان عجز عن تأمين ما يلزم من البنزين لسفرات الملك . ولاجل الخروج من هذه الضائقة الخطرة ، كان التحسب يدور بأن يقوم الامير فيصل برحلة الى اوروبا ، يدور فيها على عواصمها ، ويحاول الحصول على قرض بفائدة مناسبة . فصارحني سمو الامير بهذه الفكرة ، ورسمت له خطة للسفر تبدأ من مكة ، تمر على العواصم كافة وتنتهي في بغداد وبعدها في الرياض . وطلبت منه ان اكون معه في هذه الرحلة،

واستكتبني كتابا اقول فيه : انني رضيت بالبقاء في الحجاز باختياري . وانتهى الامر ، وسافر الملك الى الرياض ولم أحضر لوداعه . ولازمت بعدئذ الامير فيصل، حيث اصبحت مستشارا خاصا له ، فلم أفارقه في اقامة او سفـر او اجتماع خصوصيا كان او رسميا .

***

بدات القلاقل في فلسطين عام ١٩٢٩ ، واخذت تتطور حتى وصلت الى حد خطر شمل البلاد المقدسة بأسرها تقريبا . وقد كتب اليّ احد اخواني المخلصين عن الحالة المتفاقمة فيها ، فكتبت له انه ما دامت الهجرة الصهيونية مستمرة وما دامت لليهود المطامع الكبيرة ، وما دام الانكليز يفسحون المجال لهذه الهجرة والمطامع بأسنة حرابهم ، وبالقوانين الصارمة التي يستحيل معها أن يحافظ العرب علـى ارضهم ، فيجب ان تتوقع تكرر امثال هذه الحوادث والتعديات الصهيونية بصورة اوسع . بينما اليهود يقومون بالتشكيلات العسكرية والاقتصاديـة الواسعة ، ويسلحون انفسهم بما يجلبونه من انواع الاسلحة ، سرا وعلانية . وينظمون كتلا من شبابهم على نمط تنظيم الجيوش ، ويأتون بالضباط من اليهود المطرودين من المانيا ومن بولونيا . سكون العرب واستكانتهم ، وعدم استعدادهم ، سوف يزيد من مطامع اليهود ، ويدفعهم الى استعجال تنفيذ خططهم . واني أخشى ان يصبح العرب ، وهم على غير استعداد مكتفين بثقتهم واستكانتهم على وعود الانكليز ، في فلسطين يوما من الايام وجها لوجه مع اليهود المنظمين والمسلحين ، فـلا تستطيع مجابهتهم ، فتقع كارثة تودي بحياة العرب في فلسطين ، وتحل قضيتها بالامر الواقع . لذلك يجب ان لا يأسف العرب اذا لم تحصل من اعمالها الآن على نتيجة ، بشرط ان تبدأ استعدادها منذ الساعة ، بطريقة تضمن لها ايجاد قاعدة خارج فلسطين تشن منها الغارة حين الدفاع ، وتقلب القضية الفلسطينية الى قضية عربية عامة . ورسمت ما يجب لذلك من الخطط . وبالطبع لا يمكن الآن ذكر اي شيء عن ماهية هذه الخطط التي تصبح بيد الانكليز واليهـود خير سلاح يقاتلوننا به ، ويسدون به علينا الطريق . فكان لكتابي هذا الوقع المؤثر في نفوس اخواني في فلسطين ، فطلبوا اليّ الحضور للتفاهم على الخطة مهما كلف الامر. ففاتحت الامير فيصل بما انويه ، وطلبت منه ان يساعدنا ببعض (التعديلات) يقوم بها . ثم استرخصته بالذهاب الى مصر ، ورجوت ان يبقي سفرتي مكتومة ، ففعل. ثم تظاهرت بأني ذاهب للمدينة بقصد الزيارة ، فاتجهت شمالا نحوها ، ثم عطفت جنوبا الى جدة. وركبت الباخرة ووصلت العريش وكان احد اخواني في انتظاري، حيث ركبت منها راسا الى احدى العزب دون أن اعلم احدا من اصدقائي في مصر عن قدومي . ولشد ما كانت دهشتي حينما بلغني سؤال الشرطة في مصر عني من القاهرة . اتصلت حالا بكل من يجب الاتصال به من رجالات فلسطين وشرقي

الاردن . وببرهة قليلة تم التفاهم والاتفاق وبدات الاستعدادات للعمل . ولكـن الانكليز الذين كان موقفهم في العراق وفي الهند وفي مصر وفي فلسطين سيئا ، اخذوا يطلبون الوفود الى لندن للتفاهم . فبينما كانت الوفود تسافر الى لندن ، وتتفاوض فيها ، كانت رجالهم تعمل في البلدان لبث التفرقة والفساد ، وحمل الشعب على التقاتل مع بعضهم بعضا . وبهذا يكونون قد اكتسبوا الوقت اللازم ، وشلوا نفوذ ونشاط الزعماء عندما يعودون مخفقين .

مر الوفد الفلسطيني حين ذهابه الى لندن بمصر ، فاجتمعت مع من يجب منهم . وكانت الفكرة أن لا نأتي بأي عمل ما يشتمّ منه رائحة سوء نيتنا ، ما دام الانكليز انفسهم يظهرون حسن النية . فقلت : انه لا بأس من ان نستعد وننتظر نتيجة المفاوضات فان كانت شرا ليكون جوابنا حاضرا . ولكن عبثا حاولت حمل اخواني على تحقيق فكري . وكانت النتيجة كما توقعت . اذ بعد ان تمكن الانكليز من تفريق الكلمة في فلسطين ، رفضوا كل شيء ، وعاد الوفد دون ان يتمكن من عمل اي شيء . فقفلت راجعا الى الحجاز والالم يحز في نفسي والاسف يملأها .

***

وفي ذات يوم استلمت كتابا من الامير شكيب ، يعلمني فيه ان الملك فيصل بلغه ما حدث بيني وبين الملك ابن سعود من سوء التفاهم ، وانه آسـف جدا . ويقول انه اذا لم يكن في الامكان رتق الفتق فاترك الحجاز ، واحضر الى العراق على الرحب والسعة ، واعلمني تاريخ حركتك . ولكي لا يكون هذا الكتاب موضع مؤامرات جديدة ضدي اطلعت الامير فيصل عليه كما اطلعت فؤاد حمزة ، ثـم كتبت كتابا الى الملك ابن سعود أعلمته فيه مضمون هذا الكتاب ، وطلبت منه ان يأذن لي بالذهاب اذا لم يكن لديه عمل أخدمه فيه . فأجاب عليه بأنه اطلع علـى كتابي ، وانني محسوب عليه ، وانه سوف يقوم بأعمال تسرني ، وان انتظر عودته من الرياض ، ويدعو لي وللمسلمين بالتوفيق ، فانتظرت .

كانت الازمة الاقتصادية وصلت الى اقصى حدودها في اوروبة ، واخذ يظهر تأثيرها في الحجاز على شكل مخيف . اذ لم يكن لدى الدولة اي مال احتياطي فحسب ، بل كانت غارقة بالديون الخارجية والداخلية . وكان مورد الحج ، هو المورد الوحيد للدولة ، يكاد ان ينضب معينه ، حتى ان ابن سليمان عجز عن تأمين ما يلزم من البنزين لسفرات الملك . ولاجل الخروج من هذه الضائقة الخطرة ، كان التحسب يدور بأن يقوم الامير فيصل برحلة الى اوروبا ، يدور فيها علـى عواصمها ، ويحاول الحصول على قرض بفائدة مناسبة . فصارحني سمو الامير بهذه الفكرة ، ورسمت له خطة للسفر تبدأ من مكة ، تمر على العواصـم كافة وتنتهي في بغداد وبعدها في الرياض . وطلبت منه ان اكون معه في هذه الرحلة،

فوعد خيرا . وفاتح جلالة الملك فلم يرفض ولكن ابن سليمان أفسد عليّ السفرة بحجة انني لا يمكن مرافقة الامير الى باريس ويدي لا تزال تقطر من دم الافرنسيين.

قام الامير برحلته يرافقه فؤاد حمزة ، الذي كان له اصبع في عدم رفقتي للامير، وكان من عادة هذه الحاشية ان يأكل بعضها بعضا بابتداع الوشايات والنميمة والدسائس التي يتقنونها . حتى اذا ما ظهر في أفقهم شبح اعلى منهم ، هادنوا بعضهم بعضا ، وتعاقدوا وكوّنوا من انفسهم صنعا واحدا في وجهه ، كي لا ينفذ الى قلب الملك .

اتاني يوسف ياسين ومعه خالد الحكيم ، يبلغني ان جلالة الملك يعتبرني من الآن فصاعدا من حاشيته الخاصة ، وقد امر لي بالعطايا وخصص لي راتبا جديدا. ولما صارحته انني غير واثق من اي شيء ما دام ابن سليمان موجودا في الوجود ، وانني لا بد وأن أكون هدفا لمكيدة جديدة يدبرها هذا لي . وبعد يومين أعلمني يوسف ياسين ان جلالة الملك امر ان يكون راتبي من احد ابواب الميزانية التي لا يصلها تبديل او تأخير ، وان الملك امر لي بسيارة فورد .

اخذت الشائعات السيئة تنتشر عن جلالة الملك في خارج المملكة وفي داخلها، واخذ يظهر تأثيرها جليا ، خاصة في الهند . فأخذ يهتم بالصحف اهتماما كبيرا، لاستخدامها في الدعاية . وكان قبلا ، كما أسلفت ، يسخر من هذا السلاح . وأخذ شبح جلالة الملك فيصل المخيف يظهر في أفق العالم العربي ، فاتجه العالم اليه بكليته ، وأصبح ابن سعود كأنه في عزلة وشعر الآن ان الامة العربية يمكنها ان تعيش بدونه ، وتأكد ان لا غنى له عن الراي العربي العام . فأخذ يسعى السعي الحثيث ، ولكن الوقت كان قد فات .

كان موسم الحج قد انتهى ، وكان من المقرر ان يقضي جلالة الملك ردحا من الزمن كعادته في الطائف . وبعد ان بلغني يوسف ياسين عن لسان جلالته تخصيص راتب دون ان يكون لي اتصال بإبن سليمان وزير المالية ، وانني اصبحت من حاشية جلالته الخاصة ، أبلغني عن رغبة جلالته بالسفر مع ركبه الى الطائف، وقد خصص لي منزلا لائقا في الطائف .

ولقد تأخرت في مكة يوما لاستلام ادوات السيارة الجديدة ، وفي الطائف . ولقد اقام المرحوم عبد القادر الشيبي حفلة عشاء لي دعا اليها الكثيرين من حاشية الملك ، وبعض الوجهاء . وهناك أخبرني احد خدم الشيبي ، ان رجلا بالباب يريد مواجهتك، نزلت، فوجدت احد عبيد الملك، فسألته عما يريد فأخبرني بوجود مدير الامن العام السيد مهدي في انتظاري في الخليج، واحاطتني شرذمة من الشرطة ، قادتني الى سيارة قريبة ، فيها السيد مهدي وشرطيين مسلحين .

ووجدت حقائبي وأغراضي في السيارة ، فتأكدت ان في الامر مكيدة جديدة . واخبرني السيد مهدي ان جلالة الملك يريد مقابلتي . ولما وصلنا قصر شبرا حيث ينزل جلالته ، اذا بعبد الملك الخاص يقترب ، فيهمس في اذن السيد مهدي همسات لم أسمعها . فاذا بالسيارة تسرع صوب مكة . ولما ايقنت انني مساق لامر اكون فيه ضحية مكيدة ، لم أشأ أن افاتح السيد مهدي طيلة الطريق ، بل اخذت احدثه أحاديث طريفة ونكات مستظرفة ، حتى وصلنا مكة أمام دار الحكومة . فاذا بثلة من الشرطة المسلحة في انتظاري . ودخلت السراية والشرطة تحفّ بي من كل جانب . حتى اذا دخلنا احدى غرف السراي أخبرني السيد مهدي اني موقوف بأمر من جلالته ، وانه سيوجه لي اسئلته في الغد .

وفي اليوم الثاني ، قدم لي السيد مهدي خطيا هذا السؤال : «انه تحقق لدى الحكومة انكم قائمون بمؤامرة لقلب الحكومة ، فاعلمونا مع من كنتم تجتمعون وما هي مقرراتكم والاسباب التي حملتكم على ذلك ؟» .

فأجبته تحريريا وباختصار : «انني لم اجتمع الا بالامير فيصل ، واقرب حاشية جلالة الملك وسموه وكبار موظفي الدولة ، ولم اتعرف بعد الى غير هؤلاء الذين اقضي كل اوقاتي معهم . ومع ذلك اذا كانت الحكومة قد تحقق لديها قيامي بما تدعيه من المؤامرة، فلتظهر من الادلة دليلا واحدا ، وأنا اكفيها مؤونة التحقيق، وارضى بأقصى عقاب يستطيبون تنفيذه» . وبقيت خمسة عشر يوما في محبسي هذا ، قام خلالها السيد مهدي بالتحقيق مع كل من اشتبهوا به . وقبضوا كذلك على آخرين ممن اساؤوا الظن بهم ، فسجنوهم وعذبوهم بغية اقرارهم بشيء يثبت ما أسند اليّ من التهم . ولما خابوا أتاني السيد مهدي وقال لي : أبشرك بأنه قد تحققت براءتك بما قمت به من التحقيقات الجدية ، وانه قد فتش جميع اوراقي واغراضي فلم يعثر فيها على ما يثير اية شبهة . وكان من جملة اوراقي دفتر مذكراتي ، وفيه صورة الكتاب الذي ارسلته الى الملك ، والذي يحوي على انتقادات مرة لتصرفات فيلبي خاصة وابن سليمان والحاشية . وفجأة تبدلت المعاملة معي، واخذت اشعر بأنني اصبحت حرا . وزادت صداقتي مع السيد مهدي ارتباطا . ثم ذهب الى جدة بمهمة كلفه بها ابن سليمان ، ولم تمض ساعتان على ذهابه حتى وجدت نفسي أمام ابن سليمان يدعوني للذهاب معه ، وشعرت انه استسنح الفرصة للانتقام . فتبعته الى قصر وزارة المالية ، حيث وجدت سيارة قد أعدت من السيارات الجديدة الفخمة . فركبت فيها ، وركب هو مع عبيدٍ وحاشية خاصة في سيارات اخرى ، حتى وصلنا الى منى ، فنزلت من السيارة ، فاذا بسيارة لوري يحيط بها حرس ابن سليمان الخاص ، وطلب مني ابن سليمان ركوب السيارة وانصرف ، وعاد مقبلا وبيده (زنجير الخاص بتحديد الخيل) بخيلاء ، ودفعه الى احد عبيده طالبا تحديدي . اتجهنا صوب الرياض ، حيث وصلناها بعد اربعة ايام .

فك العبد الحديد من رجليّ قبل أن ندخل قصر أبن سعود ، حيث فيه ولي العهد الامير سعود . فدخلت عليه ، وكان مجلسه غاصا بشيوخ نجد . وبمجرد وقوع نظرهم علي تلثموا وغطوا لحاهم . فخاطبني الامير بقوله : «أهكذا تفعل يا فوزي ؟! نحن الذين قدرناك اكثر من قدرك واكرمناك اكثر مما تستحق وأخيرا تخوننا ؟!» فأجبته بجدّ : «بماذا يا طويل العمر» ؟ قال : «بمخابرتك السبع دول علينا» . فقلت : «وكيف كانت هذه المخابرة أتحريريا أم شفاهيا ؟» قال : «بل بالمكاتيب» . واردف قائلا : «يقول الشيوخ» (ويعني الملك) (وهذا اللقب يطلقه كافة عربان نجد على الملك واولاده) والله لو سبق ان قتل العرب ضيفهم لقتلك على فعلتك هذه» . فأجبته غاضبا : «يا طويل العمر ليأت الملك بكتاب مني الى السبع دول ، او من السبع دول اليّ ومشيئة الملك مردودة» . ولم اكد أتفوه بكلمة مردودة حتى سلت سيوف الشيوخ دفعة واحدة . ولكن الامير هدأ من روعهم ، والتفت اليّ اخيرا . «اذن ماذا جرى حتى حل بك ما حل ؟» فقلت له : «يا طويل العمر ، أما تعرف دسائس ابن سليمان ومكائده ؟» فأطرق هنيهة ثم لعن ابن سليمان ، والايام التي سلطت ابن سليمان . واخذ يهون عليّ ، وأمر لي بدار انزلها وخدم وعبيد ، وأجرى لي الارزاق ومرتبا ، وأعطاني حرية في التنقل والتنزه في الرياض وخارجها . ولقد انساني ما لاقيته طيب قلب هؤلاء الامراء الذين لا يزالون على الفطرة ولم يدنس طيب محتدهم بسفالات الحضارة وبعض رجالها الفاسدين . ولكني لم آمن وانا في الرياض شر ابن سليمان الذي هو في نظري الملك بدون عرش ، وفيلبي مستشاره المطيع .

ولما كنت اجهل نوايا الملك نحوي وارتاب من دسائس ابن سليمان للملك ، اخذت أدبر امر الفرار ، فاتفقت بعد اختبار مع رجال من قبائل عتبة التابعين للاشراف سابقا ، وقد سئموا الحياة في نجد ، على تدبير خمسة من الهجن الاصايل والاسلحة ، وجمعناها في امكنة حريزة . ثم انتظرت قدوم الملك حتى اذا شعرت منه نية لا تناسبني فررت .

وكانت قد قامت ضجة من اجلي عظيمة في دمشق والقدس والقاهرة ، وارسلت الى الملك عدة رسائل وعرائض اخبرني القرقني عنها بقوله : «انني اشتري نصفها بضعف ما حل فيك لما اظهره فيها قومي من الشعور الحي والعطف النبيل حتى انساني اساءة ابن سليمان . ولقد اغتبطت وافتخرت كثيرا لاهتمام اخواني بشأني الذي خلق في نفسي آمالا طيبة لنوايا الملك» .

وصل الملك الى الرياض كعادته ، واوفد ابن معمر رئيس ديوانه اليّ ، واعلمني بأن الملك قد افرج عني وهو يود مواجهتك . فذهبت اليه ، ومما قاله لي: «اننا نحن اهلك وعشيرتك ، فان احببت جوارنا فأنت عند اهلك ، وان اردت الخروج من البلاد فالراي لك» . فطلبت منه السماح بمغادرة البلاد . قال : «الى

أين» ؟ قلت : «لعند فيصل في العراق» . ففقش بإصبعيه وقال : أبوي ، أن فيصل يروج اليوم في وديان فلسطين (يعني يتنقل كالتائه) وكان الملك فيصل وقتئذ في فلسطين ، فماطلني . وبعد محاورة أخبرني انه مرسلني الى ابنه في الحجاز ، وأوسع عليّ العطايا والهدايا ، وخصص لي سيارته وسائقه الخاص لايصالي الى الطائف . ففرقت هذه الهدايا كلها على من كان عندي من الخدم وعلى اصحابي .

تركت الرياض الى الطائف ، حيث وصلتها بعد تسع عشرة ساعة . فرحب الامير فيصل بي ، وعدت معه الى سابق صداقتي ومودتي . وصرح يوما بحضور السيد مهدي وعبد الله الفيصل رئيس ديوان الشورى ، ان كل ما اصاب فوزي هو بسببي ، وانه يصعب على الرجل الشريف الآتي من خارج هذه البلاد ان يعيش فيها ، وكانت هذه الكلمات لي خير عزاء .

انه بالرغم من كل ما شاهدناه من الادارة الابتدائية في البلاد ، ومن العقلية الساذجة الفطرية عند الملك والامراء والرؤساء ، ومن بعض التصرفات التي لا تتناسب مع النهضة العصرية ومطامع دول الاستعمار في الجزيرة ، فاني ارى ان في الشعب العربي في هذه الدولة من الكفاءة والمقدرة في ادارة الشؤون الحربية والمدنية ما يجعلنا نطمئن على حياتها . وان ما في نفس الملك من الشجاعة والبسالة والعروبة يجعلنا نعتقد ان ما شاهدناه من الشذوذ ان هو الا عارض ، وان الاخطار المحدقة بتزاحم الدول الاوربية على بسط نفوذها في الجزيرة ، وما يجري من الحوادث في اوروبا وعلى شواطىء البحر الاحمر القريبة ، لا تلبث ان تلجىء الملك الى التفكير العميق، والقيام بما تستلزم الحالة من اتخاذ التدابير الحازمة والوسائل الضرورية لوقاية حدود البلاد ، ولا بد ان يتلاشى يوما اثر حاشية الملك وفيلبي امام هذه العوامل الخطرة .

كنت عازما هذه المرة العزم الاكيد على ترك البلاد ، وقد الح سمو الامير فيصل ليصرفني عن عزمي ، ولكني لم أطاوعه خشية وقوعي في مكيدة ثالثة . كما ان فؤاد حمزة سعى كثيرا لاقناعي بالبقاء في البلاد . وأخيرا جاءني سمو الامير ببرقية من جلالة الملك يقول فيها : «اتفقوا مع فوزي على ابقائه في الحجاز بأي شرط كان» . وكان فيصل فرحا بهذه البرقية . ولكني سألته : هل تستطيع حمايتي من اهانة او اذى يلحق بي اذا وقعت في مكيدة جديدة الى ان يظهر الحق. قال : والله لو تقع على رأس عبد الله – ويعني ولده – لا استطيع ذلك . فقلت له : اذن يا سمو الامير الاشرف لي ولك ان اترك البلاد ، وان لا أؤخذ مرة ثالثة من بين يديك ، وعيناك تنظران فأسجن وأهان وانت لا تستطيع عمل اي شيء . فتأثر كثيرا ، وقال : والله الحق معك ، توكل على الله ، وعسى ان لا يكون هذا آخر العهد بيننا . فتركت الطائف ، وتوجهت الى جدة ، وأنا محفوف بكرم الامير

وعطفه . وركبت الباخرة متجها الى مصر . وكانت جدة تبتعد عن انظاري وتبتعد معها الحجاز ، وأخذت تعاودني في هذه اللحظات أحلامي وآمالي التي كنت أتلذذ بها وانا قادم صوب جدة . واستعرضت كل الحوادث التي توالت عليّ والتي شاهدتها خلال مقامي في الحجاز السنتين والنصف . ثم استعرضت من جهة أخرى موقف الامة العربية بأسرها ، وما يحيط بها من اخطار خارجية ، وما يثقل كاهلها من مشاكل داخلية ، فشعرت عندئذٍ ان ما كنت احمله من الآمال والاحلام في رجال هذه البقعة من الجزيرة ، والثقة بهم لم تنزع بعد ، وانه لا بد وأن ينتهي شذوذ الملك وتصرفات المسؤولين من ذوي السلطة الواسعة في مملكته ، عندما يجابه الملك الاخطار فيقدم على غزو اليمن التي يسوقه اليها فيلبي ويزينها له ، وعندما تصطدم سياسة الامبراطورية البريطانية ومصالحها مع الدولة الايطالية الفاشيستية في البحر الاحمر وفي الحبشة . فيشمر عندئذٍ عن ساعد جده ويلتفت الى شؤون مملكته ، ويطهر بلاطه من نفوذ حاشيته السيئة ، ويتجلى له عندئذٍ قيمة الراي العام العربي ، وضرورة ارتباطه بالاقطار العربية ، ويتأكد كذلكَ ان لا حياة له ولا لبقية الاقطار بدون وحدة وثيقة تتأسس على دعائم الدم العربي والعبقرية والكفاءة العربية . وغابت جدة عن أنظاري وانا مستغرق في هذه الاحلام اللذيذة .

***

وصلت القاهرة ... واجتمعت باخواني الموجودين آنئذٍ فيها : اسعد داغر، الشيخ رشيد رضا ، والدكتور شهبندر . ومن الصدف ان كان المرحوم ياسين الهاشمي فيها . وكان الكل متلهفا لسماع الاخبار عن حقيقة الدولة السعودية . فكنت أقص عليهم ما اراه مناسبا . كما ان كثيرا من أرباب الصحف العربية ارهقني بأسئلته عن الحالة فيها ، فكنت أدلي لهم بالمعلومات المقتضبة عن النواحي الطيبة في تلك البلاد . واجتمعت بعد حين بالمرحوم الهاشمي اجتماعا خاصا في فندق الكونتننتال ، وكان قائما بسياحة في الاقطار العربية ، يمهد فيها السبل لربط هذه الاقطار بعضها مع بعض بشتى الوسائل . وفي اثناء طوافه هذا تألق نجمه في سماء البلاد العربية ، حتى أصبح ينظر اليه كرجل الساعة الذي ستتم على يده وحدة العرب . وكان يؤكد انه سيعمل لتحقيق هذه الامنية .

ودار الحديث بيننا في مختلف المواضيع ، ثم انتقلنا الى موضوع سورية الذي كان في نظري الموضوع الاساسي للوحدة العربية . وقلت ان الانقلاب التركي الاخير وما سبقه من الانقلابات انما تم على أيدي الضباط والعسكريين الذين تخرجنا معهم من مدارس واحدة . ولم تكن كفاءتهم ولا نباهتهم اعظم من كفاءة ونباهة اخوانهم العرب . ولكن مع الاسف لم يقم ضباطنا العرب بأي عمل يسجل لهم كما سجل اخوانهم ضباط الترك . وعزوت ذلك الى شعور الضابط التركي

بالسيادة التي يتمتع بها ، والتي يمتاز بها على قرينه الضابط العربي . فأمن الهاشمي على قولي ، وزاد : وانه ليجب العناية والالتفات الى هذه الناحية الحيوية . ولما سألته بما يجب عمله من اجل سورية وانقاذها من الانتداب ، قال: لدينا وسائل شتى نضغط بها على الافرنسيين ، أهمها البترول . فاذا لم تثمر ، عمدنا الى تشكيلات على الحدود السورية العراقية ، نبعث منها العصابات لإقلاق الافرنسيين . فقلت : ان هذا صعب نظرا لما يفصل الحدود عن المعمورة السورية من المسافات الشاسعة من الصحاري، حيث يتعذر العمل فيها. ولكن اذا قصدتم الإقدام على امر ، فان هناك طرقا أخرى . فقاطعني قائلا : ماذا عساها تصنع فرنسة ؟ فلتأت بمليون جندي وتحتل العراق . فأيقنت ان ليس في الامر جدّ. وانتقلنا الى مواضيع أخرى .

وقصدت بغداد ، فوصلتها بعد مخابرات عدة مع الملك فيصل ، فدخلتها أواخر ١٩٣٢ . وطلبني المرحوم الملك فيصل لمواجهته في بلاطه ، وبادرني بقوله : حيا الله فوزي ، والله انك كنت مجهولا ، وعرفت الناس بأعمالك . وان ما قمت به فخر لنا كلنا . فانت المثال الحي للتضحية يقتدي به ضباطنا على الاخص . ثم دار الحديث حول المملكة السعودية . وأحيانا كان يسألني عن الثورة السورية . وكنت احدثه بالتفصيل ، فكان يسرّ ويقول : عساك تكون دوّنت اعمالك هذه ، فهي حقا مذكرات قيّمة . ثم توالت اجتماعاتي بجلالته ، وكان في كل مرة يستزيدني من مباحث الثورة السورية ، واخبار المملكة السعودية وكلما زدته تفصيلا ازداد بي الحاحا بوجوب تدوين مذكراتي على ان يقوم هو بكل ما تحتاجه من النفقات . وكنت أعده وأماطله لان تدوينها في نظري لم يحن حينه بعد . ولقد رغب الملك فيصل في تعييني في الجيش . وكان امر تعييني تحيط به كثير من المشاكل السياسية والقانونية . وقد ارتأى الهاشمي تعييني في شركة النفط العراقية الانكليزية ، وفي الدوائر الملكية . فكان من المتعذر عليّ قبول أمثال هذه المقترحات التي لا تتلاءم مع روحي ومسلكي ، كما انها كانت في الحقيقة غير ممكنة . وأخيرا عينت استاذا للفروسية في المدرسة الحربية العسكرية الملكية برتبة رئيس . وكان لطه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش وقتئذٍ ، وناجي الأصيل رئيس الشعبة السياسية في وزارة الهاشمي ، الفضل في ازالة العقبات من سبيلي للوصول الى هذا التعيين .

وكنت ازور الملك علي ، الذي يحنّ كثيرا الى سماع اخبار المملكة السعودية بصورة خاصة ، وكان قد اتخذ له من بغداد مقرا يأوي اليه . وكان كثيرا يتوق الى تبوء عرش سورية . وقد جعل الافرنسيون من رغباته وسيلة لحل قضية سورية ، وإرضاء السوريين بوعود عن لسانه . وكان ضعيف النية والارادة ، وقد استغل كثير من السوريين هذا الضعف الذي فيه . فبذل في سبيل الدعاية الى هذا العرش كثيرا من الاموال التي ذهبت سدى وسببت له بعض التقولات .

وكان العراق مستقرا في سياسته ، ويتقدم من نواحيه كافة تقدما محسوسا. فأصبح بوجود فيصل على عرشه رمزا للعروبة ، وملجأ لمضطهدي العرب السياسيين . وكانت ميول عديدة تتجاذب سياسة العراق منها العربية العامة والاقليمية والشعوبية كذلك . ولكن دفة السياسة ، وهي في يد الملك فيصل ، تتجه دوما باتجاهها العربي العام .

وكثيرا ما حدثت المشاكل الداخلية والاخرى الخارجية مع بريطانية على جانب من الخطورة . ولكن فيصل كان يتغلب عليها دوما بحنكته ودهائه اللذين لا مثيل لهما بدون اراقة نقطة من الدماء . وفي عام ١٩٣٤ حدثت حوادث الاشوريين القلقة ، وكانت الاشاعات الكثيرة تدور عن قوتهم العظيمة ، وعن تغذية الانكليز لهم بالسلاح والمال . وعن معاملة الافرنسيين الحسنة لهم عند اختيارهم الحدود السورية التي اتخذوا منها قاعدة لاعمالهم . وشاع كذلك إمداد الافرنسيين هؤلاء بالمال والعتاد ووسائط النقل ايضا ، مما جعل الحكومة العراقية وعلى رأسها فيصل ، تهتم الاهتمام الشديد وتتفرغ لدرء هذا الخطر . وقد تأكد للناس سوء نية الانكليز والافرنسيين واتفاقهما على إثارة الاشوريين ، ليتمكنوا من قطع جزء كبير من شمال العراق وشرقها ، فيجعلوه امارة مستقلة لهؤلاء ، تحت اشراف بريطانيا ، وتكون منابع النفط العراقية ضمن هذه المنطقة المستقلة . اخذ الجيش العراقي يحتشد في شمالي غربي الموصل ، ويترصد معابر دجلة (وفيش خابور)، واصبح الجيش على أتم الاستعداد . وعم الحماس القبائل العربية ، خاصة شمر والقبائل الكردية ايضا . وذهبت المحاولات لاعادة السلم سدى ، لما كان عليه الاشوريون من الغرور بأنفسهم ، والاعتداد بفرنسة وبريطانيا معا . ولقد تطوعت للاشتراك في قمع هذه الثورة ، ولكن رئيس اركان الجيش شكرني قائلا : ليس ثمة من حاجة لاشتراكك الان .

وتقدمت جموع الاشوريين من المعابر ، وتظاهروا بالاستسلام الى الجند المرابطين هناك . ولما وثق الجند من استسلامهم ، وتقربوا اليهم ، بادروهم باطلاق النيران معلنين خيانتهم . ثم هاجم الاشوريون المعسكر العراقي فصدتهم الجنود بقسوة . وما هي الا سويعات حتى قضي الامر ، وتشتت من بقي سالما منهم ، فطاردهم الجيش والقبائل ، ولم تبق منهم باقية . وبهذا انحلت هذه المشكلة بنصر بهر عيون الانكليز والافرنسيين .

طلبت مواجهة فيصل على اثر هذه الحوادث ، وذكرت له انني تطوعت للاشتراك مع اخواني ، ولم ير رئيس اركان الجيش حاجة لاشتراكي ، وان الفرصة الآن سانحة للعمل في سورية لقاء ما قامت به فرنسة من الاعمال والنية السيئة تجاه العراق ؛ ووعدت أن أريه دخان دمشق من قصره لو سمح لي بثورة اقوم بها بعشر ما قدمته فرنسة للاشوريين من المساعدات . فسرّ جلالته جدا من

تصريحي هذا ثم قال : ان بيدنا الآن وثائق مهمة جدا ، تثبت تدخل فرنسة في حوادث الاشوريين . ونحن سنرغم على حل القضية السورية في جنيف حلا برضي الجميع . فقلت له : «ان المنتظر من جلالتك هو هذا ، وانت محط آمال العرب ، ولكن للسياسة اساليب شاذة ، وربما لا يتاح معها حل القضية السورية». فقاطعني قائلا : «عندئذ اقول لك استعد . ونحل القضية عن طريق الثورة التي تتطلبها» . واردف قائلاً : «هل فكرت في الطريقة التي يجب اتباعها في ثورة جديدة» ؟ قلت له : «نعم» . وكنت في الحقيقة قد درست موقف سوريا درسا عميقا ، واتصلت خلال وجودي في العراق بكثير من الرجالات الذين يعتمد عليهم. وكنت على استعداد تام لرسم افضل خطة تلائم الحالة الراهنة في سوريا . وتقوم على تجارب واختبارات الثورة السورية الماضية . وطلبت منه ورقة أشرح له عليها تفصيل الخطة التي اردت اتباعها ، على خريطة رسمتها على هذه الورقة . وكان جلالته يصغي الى ان انتهيت . فقال : «انك اصبحت خبيرا يا فوزي . وسأحتفظ بهذه الورقة في دفتر جيبي عند الحاجة» . وسألته : «هل أشرع بالاتصال مع الشخصيات التي ذكرتها لك ، وأبدأ بالاستعداد ؟» قال : «تربص حتى تأتيك مني اشارة» . وانصرفت من لدنه مترقبا اخباره من جنيف ، حتى فاجأتنا الاقدار بانتهاء حياته الدنيا التي تعب بها كثيرا من اجل العرب . ولقد ترك موته فراغا في العالم العربي كان محسوسا بالدرجة الاولى في العراق ؛ اذ اخذت الفتن تنشب، والاختلافات تتوالى ، ولم يقدر احد على قمعها حتى خيرة رجال العراق الذين يعتقد العرب فيهم الكفاءة كلها . ولقد حدثت في زمن حكومة الهاشمي وحده من الفتن والقلاقل ما جعله يعلن الاحكام العرفية سبع مرات ، خلال السنة والنصف.

***

اخذت الحالة السياسية في سورية تزداد حراجة وتفاقما ، وكثرت المخابرات والمداولات بين فريق من الاخوان وبيني ، وحضر الكثير منهم الى العراق آملين بالحصول على بعض المساعدات المادية والمعنوية من حكومة العراق ، يستعينون بها في مقاومة السياسة الافرنسية ، وللدعاية من اجل سورية والعراق . وقد اجتمعت مع احسان الجابري وأسعد داغر وسعد الله الجابري . كما اني اجتمعت بعد حين بالاخوان جميل مردم وفخري البارودي في طريقهما الى الحجاز . وكان يقتنع كل واحد بعد محادثتي معه ، بأن لا طريق لنا لحل القضية السورية الا طريق الثورة ، ويعد بأن يعمل ما يستطيع لتحقيق هذه الفكرة . وكنا نستمزج احيانا اخواننا من رجالات الحكم في العراق . فكان من يكون في الحكم منهم لا يحبذ الثورة ، ومن كان خارجه يحبذها ، ويهون علينا امرها بامكان مساعدة العراق سرا . ولكن لم ينجز شيء من هذه المواعيد لا من قبل اخواننا السوريين ولا العراقيين .

واشتدت الازمة السياسية اخيرا في سورية ، وتطورت الى اضراب شديد

لا بد وان ينتهي بأحد الامريـــــن : اما بالثورة واما بخضوع الافرنسيين لمطاليب السوريين . لذلك كان لا بد من المباشرة في الاستعداد والمجازفة مهما كلف الامر. وكان قد حضر اسعد داغر من القاهرة ، وكان يومئذ الهاشمي في الحكم . ولما فاتح داغر الهاشمي عن حالة سورية ، ووجوب مساعدتها لم يستطع الهاشمـــي ضبط عواطفه ، فبكى ، ووعد. وكان يلوح لي ان وعد الهاشمي هذه المرة صادق. وكان ما وعد من المعاونة غير المالية يكفي تماما لاضرام نيران الثورة التي نريدها . ولكن الايام مرت ولم يتحقق شيء منها مع الاسف . وربما كانت السياسة فـي هذه المرة كما كانت سابقا هي التي منعته من البر بوعده .

واخذت الحوادث في سورية تزداد خطورة ، ويزداد معهـــا عدد الضحايا المتظاهرين . واخذت السجون تمتلىء كما انه اخـــذت تنضب ينابيع البـــلاد الاقتصادية ، التي لم يبق الافرنسيون عليها . فكان لا بد من العمل ، وكان لا بد لي من ان أعمل . فاستسنحت فرصة العيد الاضحى ، وذهبت الى الموصل ، ومنها اتجهت غربا واتصلت بزعماء قبائل شمر والعقيدات وغيرها من القبائل في اراضي سورية . وكوّنت حلفا من هؤلاء البدو ، يضمن لي على الاقل اربعمائة مقاتل . وقفلت راجعا الى بغداد ، واتصلت باخواني في عمان ودمشق ، لتكوين قوة اخرى من مجاهدي الدروز والشوام ، بما يعادل هذا العدد . واخذنا نسعى لتجهيزهم وتسليحهم . حتى اذا ما اكملنا استعدادنا تركت الجيش العراقـــي وانقضضت بجموع شرقي الاردن على الصفاء ، وبعد ما أجلب اليها القوة الافرنسية تنطلق القوى الشمالية من الاتحاد البدوي ، الى اتجاه دير الزور ، وجبـــل الزاوية ، فتشطر القوة الافرنسية شطرين وتعم الثورة مرة اخرى البلاد السورية أجمع ، التي هي اليوم على استعداد اقوى واشد منه في الثورة الاولى . ولكن الافرنسيين الذين شعروا بحراجة موقفهم في سورية وفي اوروبة ، انهوا الاضراب بطلب وفد يؤم باريس للمفاوضة على اساس تحقيق المطالب السورية .

***

كانت قضية فلسطين تشغل فكري دوما ، وتقلق بالي . فاقترحت لاول مرة عام ١٩٢٩ ، وانا في الحجاز ، اعداد منهاج للدفاع المسلح عنها ، يكفل سلامـــة العرب فيها ويجعل لها في خارجها دعائم عربية قوية . طلبت لتنفيذ هذه الخطة، ولكن حال دون تحقيقها طلب الانكليز لجنة فلسطينية للمفاوضة في لندن .

وكان قلقي يزداد بازدياد حوادث فلسطين ، وطغيان الصهيونيـــة والانكليز فيها. فذهبت وانا ضابط في الجيش العراقي مأذونا الى فلسطين عام ١٩٣٤ ، واقترحت خطة واسعة النطاق نسعى لاعدادها ، على ان تنفذ عند الحاجة . وتم الاتفاق على كل شيء ، ولكن مع الاسف لم يقدم احد على اعداد ما اتفقنا عليه .

فسافرت الى القدس مرة ثانية في سنة ١٩٣٥ . وكانت يومئذٍ حالة سورية تدعو الى القلق الشديد من اعمال الافرنسيين فيها ، التي وصلت الى حد لا تطاق معه الحياة . فوضعت خطتي لثورتين في سوريا وفي فلسطين على ان تنفذ الواحدة تلو الاخرى ، وعلى أن نتجنب اي حادث يجعلنا نجابه الدولتين في آن واحد . وكان المقرر ان نبدأ بسورية اولا ، لاسباب كثيرة . حتى اذا انتهينا من مشروع سورية وبقيت حيا ، اتخذنا منها قاعدة لتنفيذ المشروع الثاني في فلسطين على شكل اقوى واعم . وكان لهذا المشروع أدوار ، أشرع بالدور التمهيدي منه وانا في بغداد فعدت اليها ، وشرعت في اعداد الدور التمهيدي ، وتقدمت فيه تقدما محسوسا وبنجاح تام دون ان نصادف ما يعكر علينا سير الخطة . وبينما انا في اعمالي التمهيدية هذه اقتضى سفري الى القدس مرة اخرى للتفاهم على بعض تفصيلات ضرورية . فذهبت اليها بنيسان ١٩٣٦ . فتم في هذه التفاهم على كل شيء ، وبصورة جدية . ونحن لا نزال على قرارنا الاول بترجيح سورية اولا ، حيث ان الاضراب في سورية قد بدأ ، وكان خير وسيلة نتذرع بها للثورة . ولم يكن احد مطلعا على هذه المقررات سوى خمسة اشخاص من سوري وفلسطيني .

اخذت أسارع في اعداد مشروع سورية مع تطور الحالة في دمشق . ولكن لم استقر في بغداد اياما ، حتى فاجأتني حوادث فلسطين فـي الشهر نفسه ، واخذت تتطور بسرعة . فحاولت تحديد حوادث فلسطين ، لكي نتمكن من تنفيذ مشروع سورية . ولكن الحوادث التي استفحلت ، جرفت مجهودنا . ولم يعد بامكان اي رجل الحيلولة دون حوادث فلسطين او تجنبها . ومن حسن الحظ ان اضراب سورية الذي استفحل امره بعد ٥٤ يوما قد الجأ الافرنسيين الى طلب وفد للمفاوضة في باريس ، على اساس عقد معاهدة تضمن للسوريين أمانيهم ، فتوقف الاضراب . وكان الفرنسيون قد شعروا من جهة بترتيبات الثورة ، التي اخذت تعم شمالي سورية . ولم يكن موقفهم في اوروبا من جهة اخرى يسمح لهم بإرسال الجيوش من جديد الى سورية لقمع ثورة تقوم فيهـــا مجهولة العواقب . فقررنا عندئذٍ الالتفات الى تنفيذ خطة رقم ٢ وبدات بالاستعدادات أوائل شهر حزيران . وفي الواحد من شهر آب ١٩٣٦ كانت قوافل المجاهديـــن من العراق وجبل الدروز وجبل لبنان والشام وحمص وحماة في طريقها الى نقطة التجمـــع العام الاخيرة ، في ميدان الجهاد في فلسطين . وفي الخامس والعشرين من آب، اطلقت اول عيارات نارية من هذه المفارز على الطائرات الانكليزية في جبل جريش واسقطت منها طائرتين .

المَلَاحِق

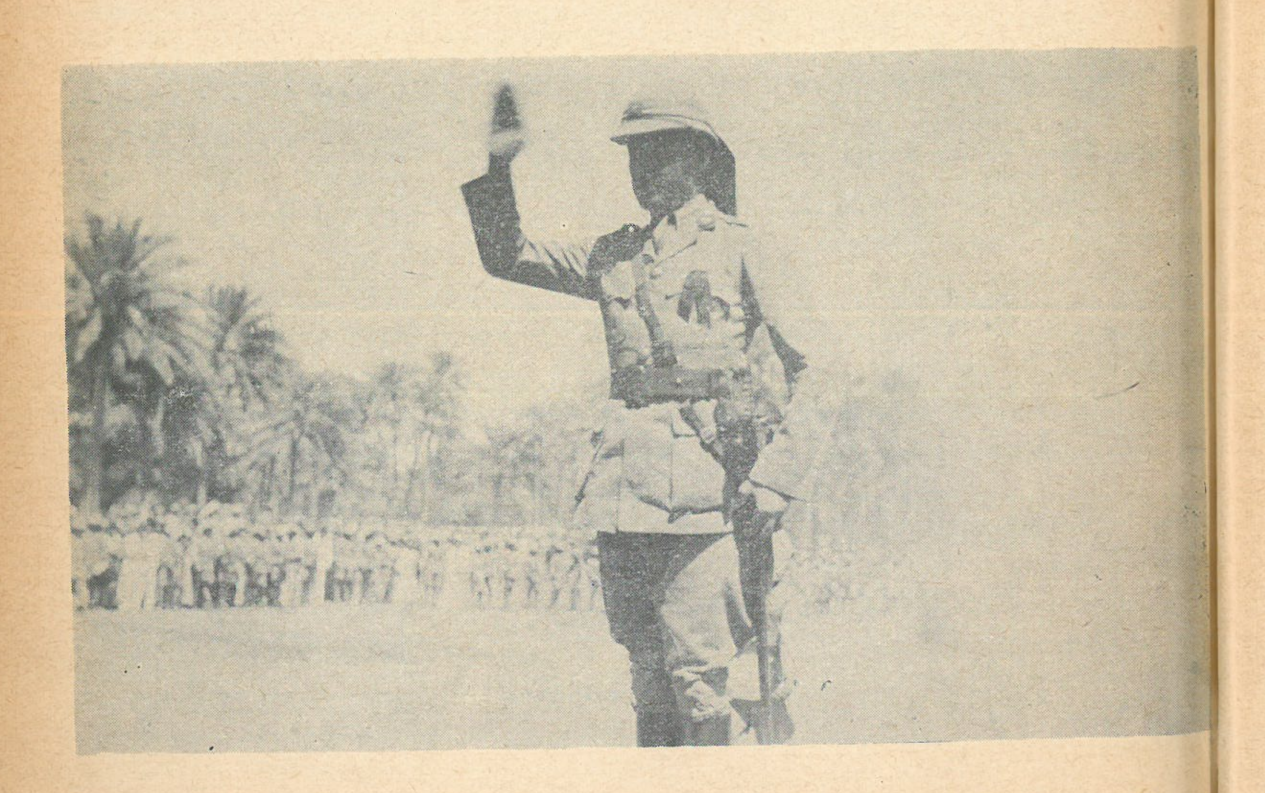
الهوية الخاصة بفوزي القاوقجي بصفته أحد أفراد الجيش العربي ١٩٢٠

«١»

ورقة الهوية المختصة بمنتسبي الجيش العربي

«٢»

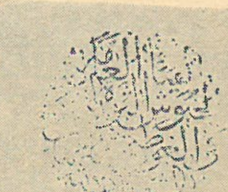
الصنف	[illegible]
الرتبة	[illegible]
اسمه وشهرته	السيد فوزي
اسم ابيه	عبد المجيد
ولايته	بيروت
محل ولادته	طرابلس الشام
تاريخ ولادته	[illegible]
مذهبه	اسلام
جنسيته	عربي
من اي مدرسة تخرج	مدرسة الحربية في الآستانة
متأهل ام لا	متأهل
مقدار نفوس عائلته	
رقم سجله التركي	
رقم سجله العربي	٦ - ٥٦



فوزي القاوقجي في بغداد وهو يحيي جثمان الملك فيصل الاول باسم الجيش العراقي ١٩٣٣

تقرير مرفوع من القائد العام للثورة السورية في منطقة الغوطة الشمال الى الزعماء السوريين شارحا الحالة العامة في جبل الزاوية بقصد مد نطاق الثورة الى الشمال .

١٤ – ٤ – ١٩٢٧



الحالة الروحية في جبل الزاوية

الصفا

١٤ نيسان / ٢٧

ان جبل الزاوية الذي قاتل لوحده السلطة المنتدبة سنة ١٩٢٠ عندما كان موجود الجيش الافرنسي في سوريا وكيليكيا [١٠٠٠٠٠] جندي باعتراف بريان رئيس الوزارة الافرنسية وقتئذٍ والذي اظهر من البسالة والبطولة ما ادهش الجيش الافرنسي الذي كثيراً ما انخذلت حملاته الكبيرة امام فئة صغيرة من مجاهدي هذا الجبل ان قابلية سكان هذا الجبل في القتال تستمد من طبيعة الجبل المنيع والوعر المسالك ومن الشجاعة الفطرية الموجودة عند الاهالي وتعصبهم الزائد في الدين.

ان جبل الزاوية بوعورة اراضيه لا يشبه لبقية الجبال اذ يحتوي على اقسام صخرية كانها بركانية ومنقطعة عن بعضها يستحيل المرور منها الا ماشيا وتفصل جباله وديان عظيمة ملآنة مياه غير قابلة السلوك لا صيفاً ولا شتاءً الا من بعض جهاتها تجد لها معابر لا يعرفها الا اهاليها. وهذا الجبل يتألف من مجموعة جبال كجبل الوسطاني والعلي وجبل ريحا وغيرها من الجبال التي يصعب على اي جيش كان ان يقوم بحركات عسكرية واسعة النطاق حيث لا يستفيد الجيش المدني من كافة معدات الحديثة من البندقية واحياناً الرشاشات نظراً لصعوبة السلوك.

واما اهالي هذا الجبل فكلهم سنيون ما عدا جبل العلي الذي تقطنه عشيرة من الدروز [illegible] مع اهالي الجبل والتي ترى نفسها مرغمة على مماشاة اهاليه على حسب رغائبهم. ولاهالي هذا الجبل مزايا خصوصية قل ما توجد عند غيرهم وهي الاطاعة العمياء لزعمائهم الذين يعتقدون ان اكبر عمل يتقرب به المسلم الى ربه في هذه الدنيا هو مقاتلة الكفار. لذلك كانت زعماء هذا الجبل اثناء حربهم مع الافرنسيين يقودون رجالهم للاخطار بانقياد لم يرى مثله حتى في الجيوش النظامية وفي قتالهم مع الافرنسيين الذين [illegible] كاملين ولم تعلم عند الامة السورية الا شيئاً قليلاً الظهور من المقدرة الحربية [illegible] القتال [illegible] ان يكونوا من العناصر السورية الصالحة للقتال واني اذ تركت في عدة وقائع [illegible] بالجيش الافرنسي

خصوصا واني اذكر الحركات العسكرية التي توجهت ضد اهله والمعارك التي دارت في جبل الزاوية والتي تجعلني ان اعترف بانني لم اشهد مثلها الا في الحرب العامة تعرض الجيش الافرنسي على [٤٠٠] مقاتل محتلين قمم الجبال الوسطاني من ثلاثة جهات بحملة مؤلفة من [١٥] الف من خيرة القطعات النظامية واشترك بهذه المعركة ١٨ مدفع وكانت الحملات بقيادة الجنرال غوبو والكولونيل فوافه والكولونيل [illegible] وبعد قتال دام اربعة ايام انهزمت الحملات وغنمت المجاهدين ٥٠٠ رأس من الخيل وكانت تلفيات الافرنسيين تزيد عن [٤٠٠٠] وكذلك تعرض الجيش الافرنسي على جبال ريحا واسمه بقوة تزيد على ٢٠ الف ولم يتمكن من الاستيلاء على خطوط المجاهدين الدفاعية الا بعد عراك دام اكثر من اسبوعين وكانت خسارة العدو لا تعد. وكانت هذه المعارك مظهراً من مظاهر حروب الخنادق في الحرب العالمية

ان جبل الزاوية الذي وصفت حالته في هذه المقدمة الوجيزة كان يتألم كل التألم لعدم اشتراكه في ثورتنا الحاضرة وعدم اشتراكه يرجع لوجود زعمائه خارج سوريا وكون الاخرين كابراهيم هنانو وغيره الى السجن وتجريده من السلاح تجريداً باتاً ولقد تشبث كثيراً زعماء هذا الجبل للحصول على سلاح وعتاد من الاتراك كالسابقة فلم ينجحوا. واخيراً تقربوا الى السلطة وتمكنوا من اخذ ١١٤ سلاح منها على ان [illegible] في قراهم وبعدما اخذوا هذا السلاح ارسلوا وفداً مؤلفاً من الزعماء محمد الحاج طاهر واحمد المرعي والشيخ اسماعيل الى الغوطة ليطلبوني الى جبل الزاوية وكان حضورهم في اثناء الحركات التعرضية في ١١ [illegible] وفي الوقت الذي كان معظم الثوار منسحباً منها لذلك لم اتمكن من اجابة طلبهم فوعدتهم الحضور الى الجبل عندما تتحسن الوضعية في الغوطة من ذلك وبعد مضي شهراً اخراً ارسلوا وفداً ثانياً ويعلمون استعدادهم ومناسبة الفرصة السانحة ورغبة اهالي حلب الذين اسسوا الجمعيات التي بدأت تجمع الاعانات لمعاونة الحركات في الجبل ولما انتهت الحركات في الغوطة واكتسبت شكلها الاخير [illegible] شأناً جديداً فتخابرت معهم مرة اخرى وطلبت منهم ان يعلموا زعمائهم الموجودين في حدود الاتراك وارسلت رسولاً بكتب فوصل لعندهم واتاني بالاجوبة التي كلها تطلب حضوري بسرعة وبالحاح والظاهر ان العدو وقف على بعض نوايا هذه الزعماء فكان يعامل اهالي جبل الزاوية معاملة خاصة من اللطف واللين انما وضعهم تحت مراقبة شديدة بحيث لا يشعرون بها فلما وصلت اخيراً الى

جبل الزاوية كان العدو انتهز فرصة تقدمنا الى الجبل وملأه بجنده واخذ السلاح الذى اعطاهم اياه قبلاً وقبض على كافة الزعماء الموجودين والرجال الملحوظ منها خطر وهكذا اصبح الجبل امام امر واقع عندما دخلت حملتنا الاخير استقبلنا رجاله جال هذا الجبل بتحيات لا توصف من العطف والحب وفتحوا لنا بيوتهم ولم يبخلوا علينا بشئ احتجنا اليه وقد بينوا لنا حالتهم واظهروا لنا منتهى خجلهم وكانوا يقولون لي بالفعل ماذا سيسطر لنا التاريخ من الذل لعدم تمكننا من معاونتكم ومع ذلك كانت رجالهم تمشي مع حملتنا وتدب بها على الاراضي ونسائهم تقدم لنا الاعاشة وتواسي جرحانا وشبانهم الذين كانوا يرافقونا كانوا يرجون على اقدامنا ليأخذوا من ايدينا البندقية ليطلقوا طلقة واحدة على العدو انتقاماً لوالده الشهيد او لاحد اقربائه الذى قضى عليه العدو اثناء حركات الجبل السابقة فانا لم ارى وطنية في بقعة رجال سوريا تعادل ما ابدى لي من هذه الرجال ولم ارى شعباً مستعداً للقتال مثل اهالى جبل الزاوية انه لايوجد من شبان هذا الجبل من لم تقتل العدو والده او حرق داره او قضى على احد اقربائه لذلك نشبت هذه الشبيبة وشبت من ماحسن الانتقام والحقد والعداء والغرامات المتوالية والمظالم التي كانت تجدد هذه الحسيات وتغذيها في نفوس الشبيبة الحاضرة.

لذلك اني اقول ان الثورة يجب ان تتقدم من جديد في الشمال واصدق ما قاله الجنرال بيللوت انه من حظ الجيش الافرنسي لم يشترك جبل الزاوية في هذه الثورة وان الخطر كل الخطر في قيام هذا الجبل الذى عرف الجيش الافرنسي شدة بأسه)

وقيام هذا الجبل يتوقف على مقدار من السلاح والعتاد [٥٠٠ بارودة ولكل واحدة (٢٠٠) مشطاً فقط] واعتقد ان هذا السلاح يمكن تداركه من حدود الاتراك بسهولة بواسطة بعض رجال الاتراك الذين لايزالون يحافظون على ارتباطهم القديم مع زعماء الجبل الموجودين داخل حدودهم ثم قيام جبل الزاوية يسبب لقيام عربان الموالي والعكيدات بدون ريب ولا شك. ان هذه القبائل اشتركت مع جبل الزاوية بكل مصائبه كما اشتركت معه فعلاً بكافة حركاته واذا قامت الثورة في جبل الزاوية واشتركت معها عربان الموالي يكون قدرنا للثورة (١٠٠٠٠ بندقية لايقوى عليها العدو بـ ٥٠٠٠٠ بندقية) فانني مصر على هذا التشبث في الوقت الذى ارى فيه ثورتنا تجتاز دوراً خطراً جداً

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة الحجازية ونجد وملحقاتها

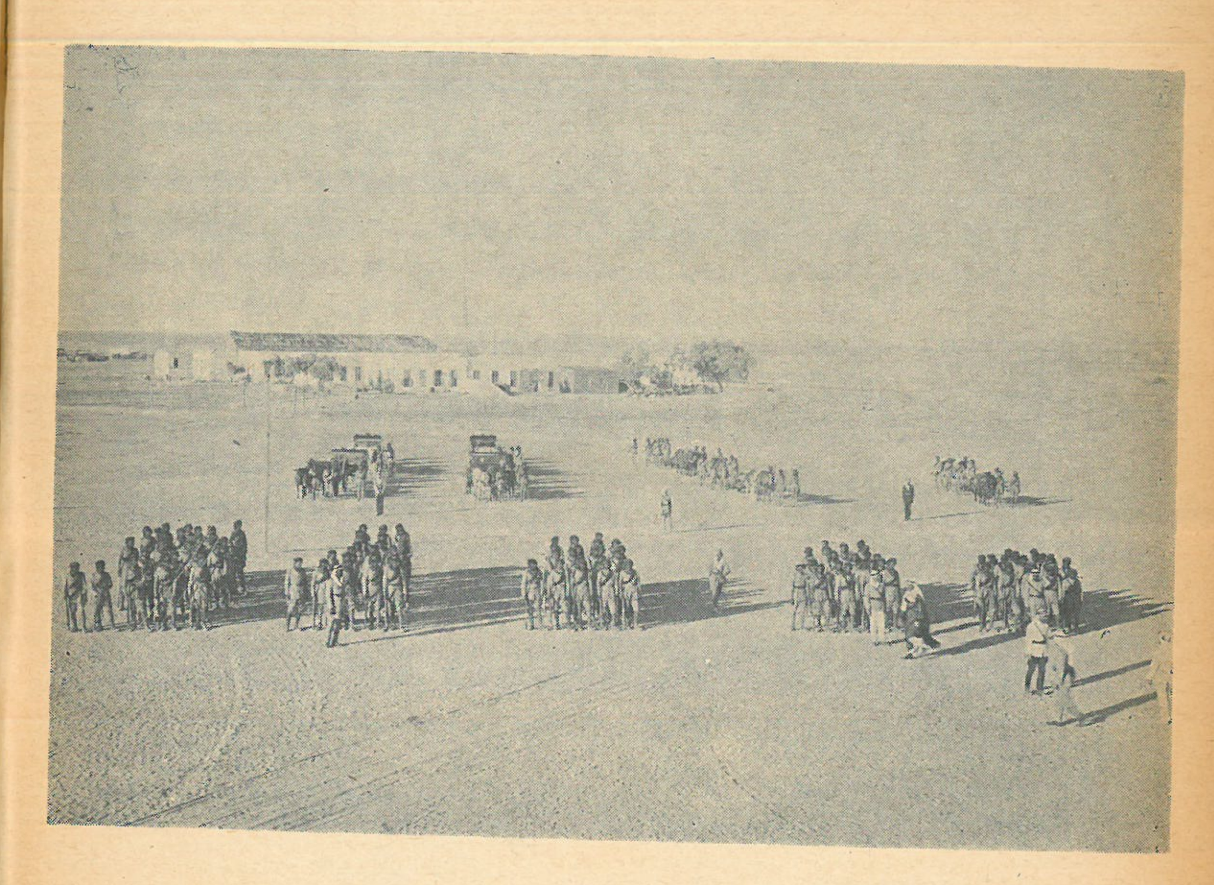
عدد ٣/٢٣/٦

في ١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٥٠

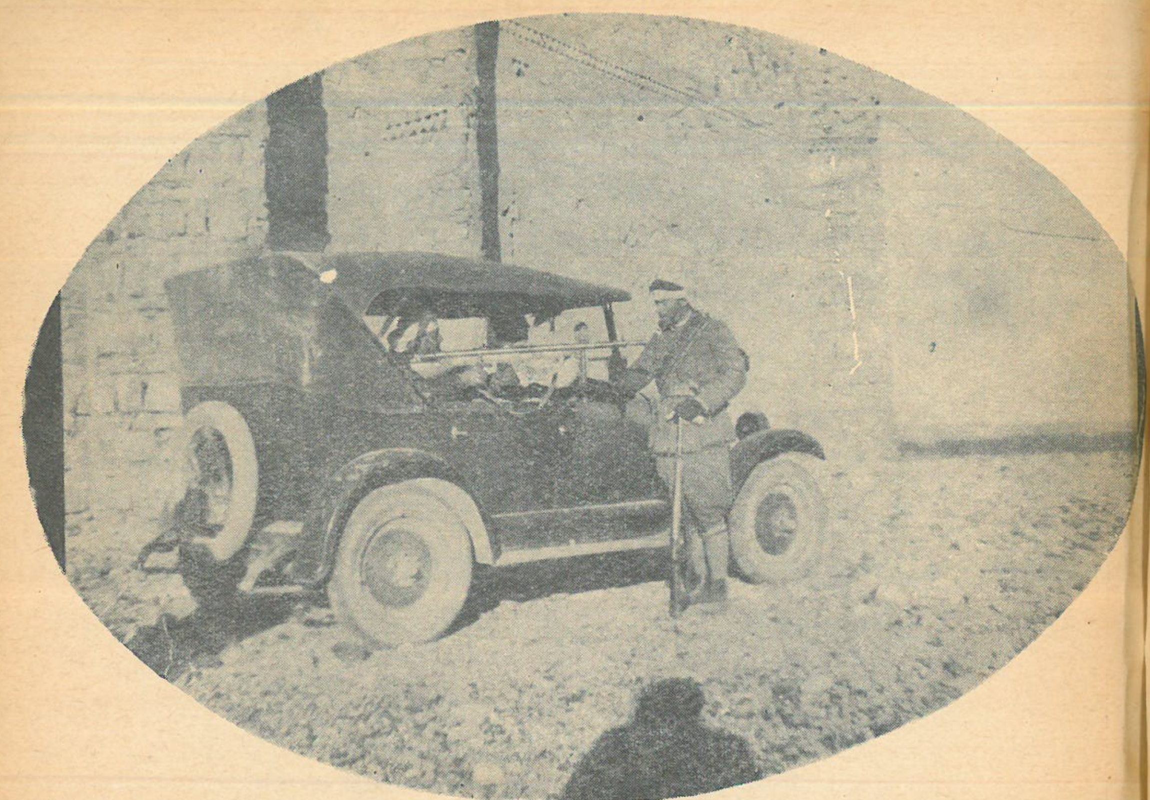
من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب المكرم فوزى القاوقجي سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فقد تلقينا كتابكم وذكرتم رغبتكم في العمل او السفر ونحن نرى ان تستقيموا هذه المدة لانكم محسوبون علينا وسترون ان شاء الله مايسركم في المستقبل ونسأل الله ان يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه والسلام

بعض التدريبات للقوات السعودية التي أشرف فوزي القاوقجي على تدريبها اثناء اقامته في السعودية (١٩٢٨ – ١٩٣٢) .



اثناء الثورة السورية الكبرى مع العميد هزاع ايوب .





الامير فيصل آل سعود يشهد تدريبات الجيش السعودي (١٩٣٠) .

رسالة من سعيد الترمانيني من عمان ٢٧-٤-١٩٢٧ توضح تأثير حملة القاوقجي لجبل الزاوية على تبديل الوضع السياسي في سورية .

عمان ٢٧ نيسان ٩٢٧

الأخ الكريم فوزي بك المحترم !

تحية وشوقاً زائداً . وبعد فإن ما قمتم به من الأعمال الأخيرة
لهي خطوة عظيمة تضم إلى أعمالكم السابقة المجيدة التي سيسجلها التاريخ
بحروف من نور . فبارك الله بكم وحفظكم بعين عنايته إنه كريم .
أبشرك أيها الأخ العزيز بأن [illegible] التي [illegible] البارحة من [illegible]
كلها آتية من جهة [illegible] حيث صمم الافرنسيون على التفاهم مع
السوريين بصورة قطعية وذلك نتيجة عن الوقائع الأخيرة
التي حصلت في الجاه وجبل الزاوية وحماه وحمص وقد ورد
لقصاره عدة كتب من باريز ممن يشتغلون [illegible] بالأمور
السياسية وهم إخواننا يبشرون بالتبدل الحاصل في أفكار الحكومة
الافرنسية وكيف أنها قنعت بأن الثورة حقيقة لم تنته
وأن العسكريين مخادعون في زعمهم بأن الثورة انتهت .
حتى أن العدد الأخير من المقطم وقد قرأناه البارحة
[illegible] مقالة عن [illegible] التي هي الجريدة الرسمية للحكومة
تنادي بوجوب التفاهم مع السوريين في الداخل والخارج
فمن هنا نظهر لك الانقلاب الكبير الحاصل في أدمغة
رجال القنصلية المسؤولين وهذا لا شك [illegible]
[illegible] . أي يا عزيزي لك بشارة زائدة [illegible]

[illegible] بالحق أنها هذا [illegible] لا بد من حضورك
كي تتمكن من تدبير الأمور وما تحتاج إليه من الدراهم لأجل
الدوام على العمل وهذا لا يتم بدون مجيئك على ما أعتقد !
وبمجيئك هذه المرة [illegible] إن شاء الله [illegible]
[illegible] من القيام بأعمال واجباتنا المقدسة نحو الوطن المفدى
هذا ولا خلاف . دم واسلم لأخيك المشتاق المخلص

[illegible]

رسالة مفصلة تتحدث عن الحالة في حماة والقرى المجاورة على أثر خروج فوزي القاوقجي منها .

٧ تشرين ثاني ١٩٢٥

(الثورة السورية
٧ ت٢ ٢٥)

سيدي الأخ

حمداً لله من أسبوعين الحالة هادئة . ولكن من قبل كانت البلد
جنود [illegible] والبرية أي القرى من فوق [illegible] بعد ذهاب فوزي
طلعت الجنود على القرية بتل الطيبة وخلوقها [illegible]
جميع من فيها من بني الانسان وفرقوهم ثلاثة فرق وابقوا ثلاثة
[illegible] لتأكد أن [illegible] ونهبوا أشياء كثيرة
ثم في الحاضر نهبوا عشرة محلات واكتفوا ببعض من الاختيارية
وقتلوا واحد منهم وفي مرور الخائنين من الجنود [illegible]
وبدوية فعلوا معهم فعل [illegible] نهاراً بأرض [illegible] وكل ذلك
بأمر قائدهم وصار كل من [illegible] من فوق الحاضر [illegible]
دفع القصاصة وكذلك الشهر [illegible] إلى [illegible] لأجل [illegible]
ذهبوا على بعض القرى مائتين نفر وقتلوا الشهيد [illegible]
واحضروه إلى السرايه ووضعوه على كرسي وصوروه [illegible]
حتى الخائن رشيد وضع كاس العرق على رأس الشهيد وشرب
عدة كؤوس وعاونه رجل من [illegible] الباز لعنة الله عليه
الحالة في بلادنا غير حسنة من [illegible] ومن الخوف [illegible]
[illegible] من شدة الأمطار

كتاب توجه به فوزي القاوقجي الى الزعمـــاء السوريين في القاهرة يشرح فيه امكانية تجديـــد الثورة السورية في الشمال .

٢ - ٦ - ١٩٢٧

البقنص
٢/٦/٢٧

الاحتياج الاصغرى والاحتياج الطبيعى لحركة الشمال .

جنيه	
٢٠٠	١ — مصارفات سفر الثلاثة اشخاص (سعيد، فوزى، الدكتور)
	من فلسطين، مصر، اقامة ثلاثة ايام بمصر، مصر - اناضول اقامة وتجول مدة شهر بالاناضول (مدة احضار الحركة)
	٢ — مصارفات الحركات :
٧٠٠	ثمن ٢٠٠ بندقية مع خرطوش (٤ جنيه كل بندقية ونصف جنيه عتاد)
٢٠٠	مصرف تجهيزات ورواتب الزعماء وجنود (العدد من ١٥٠ الى ٢٠٠)
١٠٠	مبلغ احتياطى (اعاشة داخل)
١٠٠٠	

ان هذه الارقام هى الحد الاصغرى التى يمكن ان نأمل الحد الاصغرى من الاحتياج الضرورى . واما المقدار اللازم للاحتياج الطبيعى فهو ضعف هذه الارقام (ما عدا ثمن البنادق) وثمن العتاد يكون ثلاثة امثال ما هو مقيد بهذه القائمة اذاً يكون كما يأتى :

٦٠٠	ثمن ٢٠٠ بندقية
٢٠٠	خرطوش
٤٠٠	مصرف تجهيزات ورواتب لزعماء وجنود
٢٠٠	احتياط (الاعاشة داخل)
١٥٠٠	

يجب ان تدوم هذه التخصيصات لمدة شهرين فى حالة النجاح واما الشهر الثالث فعلى الغالب يمكن تأمين الاحتياجات كلها من نفس المنطقة الثائرة

ان المقدار الذى يجب تأمينه بالوقت الحاضر هو مصارفات السفر من ١ فقط . اما مصارفات الحركات تكون جاهزة على ان تدفع عند الطلب

مقتولة

رجل من الجنود وجد بطريق حوران مطروحين قريباً من ازرع فطلعت العساكر وجلبت من جميع اطراف الطريق وجنسهم ومكنه عسكرية ورجال تعذبهم عذاب ما لم اشاعة ادعيه فى بلاد بأن سوريه عرضت على الجميع جابت شبه عشر بليون ترم وهى الآن فى اشراف شاعت الثانية وهى بشرى رفاقنا ان وطنهم حاجة الفرنساوية وما اوصا على ذوبه بطريقهم محدود دائرة اخرى ان القواد والجنود طرفكم فى الازرق اشغلو حرباً وتلف منهم رجال اغراض فوزي لم نقص منهم سوى شيء قليل وهيبتهم عند تلامه اخرون عن ابو كنعان فوزي وهذه هل وصل لطرفكم ام الآن بأى محل وهذا ما لزم ودمتم

محب وطنه

[illegible]

الاوسمة الالمانية التي حصل عليها القاوقجي خلال الحرب العالمية الاولى وموقعة باسم الجنرال ليمان فون ساندرز .



من الاناضول وذلك بعد شهر من يوم الحركة من فلسطين (تقريباً)

ان النتيجة التي حصل عليها سعيد بك حيدر من ذهابه الى مصر بناءً على قرار جلسة ١٨ مايس ٩٢٧ من مفاوضات مع سفير الحكومة الجمهورية بمصر ومخابرة الاخير مع حكومته بانقره لهي اكبر وثيقة لنا في قبول الحكومة المذكورة جريان الحركات في شمال سوريا التي ستكون مصدرها من اراضي الاناضول وهذه الحالة تجعلنا في غاية الثقة من نجاح تلك الحركات التي ستكون من الاكسير المنقذ لحياة الثورة الجنوبية التي تتنازع بين عوامل الضعف واليأس وتأثير المفاسد الكمونية الاخيرة.

اني اطلب من حضرات اعضاء اللجنة المجتمعة بجلستنا اليوم ٤ حزيران ٩٢٧ اعطاء الجواب القطعي لتكون وثيقة تاريخية تزيل عني كل مسؤولية من عبث الزعماء [illegible] الى الثورة التي [illegible] خلال هذا الشهر التي جعلتني معرضاً لعذاب الوجدان الاليم ثم من حيث مصير هذه الفرص التاريخية الكبيرة

فوزي
القاوقجي

خلاصة الجواب:

المفتي: ان هذا المشروع [illegible] ... [illegible]

حسن [illegible]: [illegible]

[illegible]: [illegible]

Lfd. Nr. 221

Urkunde.

Im Namen Seiner Majestät des Königs von Preußen ist dem Oberleutnant

Fosi Bey.

Adjutant d. Maultier-Rgts. V. Armee

ie „Krieger-Verdienst-Medaille"

erliehen worden.

Armee-Oberkommando der 5. Osm. Armee, den 27. April 1917.



Liman v. Sanders.

كان فوزي القاوقجي واحدا من ابناء الامة العربية الذي اعتلى مسرح الاحداث المعاصرة خلال الفترات المثيرة من انبعاث الشعور بالقومية ، والحربين العالميين وما تخللهما من حركات تحررية ، وقد ظل يقاتل في كل ارض عربية طغى عليها الاستعمار منذ ان وعى الفكرة العربية وهو لا يزال ضابطا في صفوف الجيش العثماني الى بداية الحرب العالمية الاولى وحتى معركة ميسلون ١٩٢٠ حيث عاد ومعه ضباط طيران أسرى من الفرنسيين . وتحت القناع الواقي وهو المركز الرفيع الذي كان يشغله في الجيش الفرنسي بعد الاحتلال كان لاعلانه ثورة حماة التاريخية ١٩٢٥ الفضل في عدم تمكن المستعمر من القضاء على ثورة جبل الدروز وجعلها ثورة عامة تشمل معظم البقاع السورية . وكان آخر من ترك ميادين الثورة ١٩٢٧ وظل مشردا عن سورية حتى ١٩٤٧ حيث ظل يمسك بعنان فرسه كلما سمع صيحة عربية طار اليها . فأقام في المملكة العربية السعودية بضع سنوات ساهم في بناء القوات العسكرية الحديثة فيها ، وعاد الى بغداد ١٩٣٢ ليصبح معلما للفروسية وأستاذا لتدريس الطوبوغرافيا في الكلية العسكرية . وفي أواسط حزيران ١٩٣٦ قاد حملة من المتطوعين عبرت بادية الشام لتنجد ثورة فلسطين ضد جحافل الانكليز . وبعد الهدنة عاد الى العراق يترقب مغامرة جديدة ضد المستعمرين ، فقاد فريقا من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين في حرب العراق ١٩٤٠ ضد بريطانيا وسجل انتصارات لم يسجلها الجيش النظامي . وظل بعيدا عن الوطن العربي حتى عهدت اليه جامعة الدول العربية عام ١٩٤٧ بقيادة فريق من قوات انقاذ فلسطين . وبعد نهاية المرحلة الاخيرة والمؤلمة لحرب فلسطين قرر الانسحاب من على مسرح الاحداث .

المذكرات التي دوّنها القاوقجي على مراحل كانت السلاح الذي غنمه من الميدان الحربي وفي الجزء الاول منها يكشف بأمانة الى جانب التضحيات والبطولات اليد الخفية التي تسيّر السياسة والاخطاء التي يمكن ان يستوحى منها العبر والدروس . وسيتابع القاوقجي في الجزء الثاني ذكريات الكفاح العربي في فلسطين ونتائجه المؤلمة ... والمذكرات ليست بالمعنى الدقيق ترجمة لحياته بل مجموعة ملاحظات اقتطفها من اختبارات طويلة وتجارب عميقة في موضوع القضية العربية ، وقد تتضارب حولها الروايات والآراء وتصطبغ بالآراء الذاتية ، والاحكام السريعة الا انها تصلح مادة للمؤرخين وكل ساعٍ لاقتناص الحقيقة .

دار القدس
بناية مكرزل - شارع بشارة الخوري
بيروت/لبنان

٨ ل.ل. ١٠٠٠ فلس
١٠ ل.س. ١١٠٠ درهم ليبي